كلمة الوزارة

أسعَدَ اللّهُ صباحَ عُشّاقِ العربيّة

محمد الأحمد
وزير الثقافة

مِنْ مقاييس رُقيّ الأُمم وتحضُّرِها حبُّها للغتها الوطنيّة، وحرصُها على النهوض بها، وتطويرِها، وإغنائِها، وإثرائها، والمحافظة على صفائها، ليكون معبّراً عن هُويّة الأمّة ووجدانها وروحِها الخاصّة، وقد قال هو تشي منه القائد الفيتناميّ لأبناء وطنه: «حافظوا على صفاءِ لغتكم كما تحافظون على صفاء عيونكم».

وقد دأبت اللّجنة الفَرْعيّة للتمكين للغة العربيّة على العناية بالعربيّة واستجلاء ما فيها من جمالٍ وسحرٍ وطاقاتٍ إيحائيّة، فأقامت مناشط مختلفة لإذكاء هذا اللّسان العربيّ في نفوس أبنائه، منها إصدار الهيئة العامة السّوريّة للكتاب سلسلة «قضايا لغوية» التي تُعْنى بشؤون العربيّة المعاصرة وقضايا التعريب والترجمة والمصطلح، وصدر منها حتى الآن أربعة كُتيِّبات.

ويتناغم نشاط اللجنة الفرعيّة للغة العربيّة مع السياسة العامة للدولة التي أعادت للغة العربيّة بهاءَها ومكانتها، ودرّست الطّبّ والحقوق بها في العقد الثّاني من القرن الماضي،

❁ الكلمة التي ألقاها السيد وزير الثقافة في حفل توزيع جوائز حفظ الشعر العربي.

وأنشأت مجمع اللغة العربيّة في دمشق الذي يعدّ أوّل مجمع في الوطن العربيّ عام (١٩١٩م)، وأصدرت قانوناً لحماية العربيّة في الخمسينيات من القرن الماضي، ومدّت يد العون لشقيقاتها العربيّات اللواتي تحللن من براثن الاستعمار في تعريب العلوم، وأصدر السيد الرئيس بشار الأسد القرار الجمهوري المتضمّن تشكيل لجنة التمكين للغة العربيّة لوضع خطّة عمل وطنيّة للارتقاء باللغة العربيّة، وقدّم إلى مؤتمر القمّة العربيّ الذي عُقد في دمشق عام (٢٠٠٨م) مشروع النهوض باللغة العربيّة للتوجه نحو مجتمع المعرفة.

ولـمّا كان تراث العربيّة قائماً على الشعر الذي نراه أجمل المخلوقات، رأت اللّجنة الفرعية للتمكين للغة العربيّة في الوزارة إقامة مسابقة في حفظ الشعر العربيّ – العصر العبّاسيّ.

وقد اختارت اللّجنة مجموعة من عيون الشعر العربي العباسي لفرسان البيان أبي تمام والبحتري والمتنبي وأبي العلاء المعري، لما في أشعارهم من ديباجة عالية ورونق صافٍ وبهاء للمعاني. ولا ريب أن حفظ هذه الأشعار مما يثري ذائقة أبنائنا، ويرفد ما لديهم من مواهب جمة، ويصنع عندهم معجماً لفظياً غزير اللفظ وفير المعنى، وكل هذا مما يصب في التمكين للغة العربية، فحين يأوي الشعر إلى قلوب أبناء هذه اللغة الجميلة تُعْصَمُ العربية.

أيها الحفل الكريم:

اللغة العربية هي وطنكم الرّوحيّ، والإرث الذي نطاول به أعنان السماء، ولستَ ترى شجرةً باسقةً شامخة يانعة الثمار إلّا وأنتَ مطمئنّ إلى أنَّ لها جُذوراً راسخة في الأرض.

اللغة حصنكم الحصين للذود عن العروبة والوحدة القوميّة، إنّها جفونكم التي تَنْسَدِلُ على العيون حامية لها منبئة بحُسْنِها وسحرها.

أشكر للجنة الفرعيَّة للتمكين للغة العربيّة في الوزارة ما تبذلُه من جهود، وأرجو لها مزيداً من العطاء والنجاح، وأبارك لأبنائنا الفائزين الثلاثة، وكلّي أملٌ أنْ أراهم من أعيان العربيّة الكبار المدافعين عنها والكاشفين عن سحرها الذي لا ينفد.

والسلام عليكم.

كلمة العدد

القصة في الزمن الحرج

ناظم مهنا
رئيس التحرير

كان الإعلان عن عدد خاص بالقصة السورية، نوعاً من المجازفة إلى حدٍّ ما، لا سيما في مثل هذه الظروف المعروفة، والتي يُضاف إليها أن القصة القصيرة تعيش خريفها الطويل منذ عقود، ويرى بعض النقّاد أن هذا الفن الصعب في حالة أفول وقد رحل أعلامه الكبار عن الدنيا، تاركين خلفهم إرثاً مجيداً، لم يستطع الأحفاد الحفاظ عليه!

أعلنّا عن هذا العدد الخاص، وَوُجهنا بتخوُّفٍ مُسوَّغ من بعض الأصدقاء، إذ اعتقدوا أنه من الـمُحَال جمع ما هو كافٍ من القصص لإصدار عدد خاص ومميّز. ورأوا أنني ورَّطتُ نفسي بفشل مُحَتَّمٍ كان بالإمكان الاستغناء عنه. على أيِّ حال، ما إن أعلنَّا على صفحات المجلة عن العدد حتى تدفّقت القصص، ووصلتنا مشاركات من كتَّاب القصة السوريين في أماكن وجودهم وانتشارهم. كثرة المساهمات وفّرت لنا متعة الاختيار حتى ظهر العدد على هذا الشكل، وفيه من التنوع ما يبعث على الرضا، وفيه تعدد في المستويات الأسلوبية، وهذا أيضاً له ما يسوِّغه.

يظهر في هذا العدد، بشكل جليّ، وقع هذه الحرب الطويلة وتأثيرها على النفوس وعلى الكتابة، فمعظم القصص فيها هذا الأثر الذي يُعبَّر عنه بشكل مباشر أو غير مباشر، صريح أو عَبْر الإشارات والإيحاءات، وهذا بحد ذاته تفاعل مع ما يجري، وتعاطٍ مع الواقع. ولا بدَّ من التنويه ببعض القصص التي رصدت البطولات التي حققها أبطال جيشنا الوطني وهم يتصدّون للإرهابيين، وهذا الجانب الوافر في قصص العدد يشير أيضاً إلى إمكانية أن يكون عندنا، في القادم من الأيام، أدب وطني مثل الأمم التي خاضت حروباً مصيرية عظمى.

ولكن ليست كل القصص هنا عن الحرب، ولم يكن هذا مطلوباً بل جاء عفو الخاطر، ونحن رحّبنا بالأنماط والموضوعات المختلفة، ولمن يقول: إن مستوى القصص متفاوت فنياً، نردُّ: إن هذا أمر طبيعي، فهو عدد خاص بالكتابة القصصية، وليس مختارات قصصية، عبّر فيه نحو خمسين كاتباً عن طريقتهم وأسلوبهم في كتابة القصة، وأكّدوا بذلك أن فن القصة ما يزال موجوداً، وأن القصة ما تزال عند السوريين فناً حاضراً لا يندثر بعد كل الإنجازات التي حقّقها المبدعون القصصيون السوريون منذ مطلع القرن الماضي.

في هذا العدد ومن منطلق أن القصة أكثر أهمية للكاتب من التنظير حولها، رأينا أن نخصص كل العدد للقصص ونغفل الدراسات والبحوث حول القصة إلى أعداد آتية، معتقدين أن كتّاب القصة يعرفون نظريات الكتابة القصصية وتاريخ هذا الفن، والأحسن أن ندع الكتابة القصصية تعبّر عن ذاتها بذاتها، وأن يكون التّماسُّ مباشراً بين القارئ والنص بلا مقدمات وبلا وسائط، وألا نقحم التفسيرات والتنظيرات على النصوص.

في هذا العدد كل الكتَّاب المشاركين وغير المشاركين لهم مكانتهم واحترامهم وتقدير تجربتهم وإبداعاتهم، ولم نشأ أن نتدخل بأي شكل في تقييم أو إنشاء تفضيل بين قاص وآخر أو بين قصة وأخرى، فالأمر متروك للقرّاء ولذائقة كل قارئ على حِدة، وترتيب القصص جاء وفق التسلسل الأبجدي للاسم الأوّل

للكاتب مراعاة للتقاليد الجدية للمجلة، ولا علاقة لذلك على الإطلاق بمكانة الكاتب وقيمة كتابته.

وإذا كان لكل مقام مقال، ونحن في مقام القصة السورية، نرى أن نذكّر باختصار ببعض النقاط التي تتعلق بفن القص عموماً، وبعض الخطوط العريضة لتاريخ القصة السورية وآفاقها.

بداية، لكل شيء سواء أكان شخصياً جداً أمْ عاماً، نسبياً أمْ مطلقاً، أمْ كان حلم يقظة أمْ حلم نوم لا بد من حكاية أو قصة، مكتوبة أو غير مكتوبة، مروية أو لم تُروَ بعد. وللقصص والحكايات طرائق عرض متنوعة، قد تكون متقاربة أو متباعدة، ومن ثمّ نحن مع الزمن صرنا أمام أنواع وطبقات وأجناس حكائية متعددة صنّفها النقاد السرديون المعاصرون تحت تسميات عديدة.

وكما هو معروف؛ فالقصة قديمة قدم التاريخ، ربما ترافقت مع بداية الوعي، وتطورت وتنامت مع الزمن إلى أن بلغت ذروتها في العصور الحديثة، والتاريخ بشكل أو بآخر هو رواية أو حكاية، ولا بد أن تاريخ البشرية عرف طوفانات من الحكايات الشفهية التي انداحت ثم عادت لتنبعث في أشكال كتابية وتحت عناوين متعددة، منها: الحكاية، والأسطورة، والخبر، والتاريخ، والسرد، ثم الرواية، والمقامة.. إلخ، وكان لنا نحن العرب حيِّز وافر من الحكايات والمرويات القصصية التي يُعتدّ بها، وكان لها دور في تشكيل بدايات فن القص. إلا أن كل هذه الأشكال السابقة للفن القصصي وخصائصه التي ظهرت في أوروبا منذ القرن الرابع عشر الميلادي قد تطورت تطوراً دراماتيكياً في عصر الطباعة، ثم في زمن انتشار الصحافة، وبهذا غدا الفن القصصي فناً جماهيرياً يمكن أن يقرأ بمتعة وتأن، ويمكن أن تكون القصة مسلية وملغزة وغذاء روحياً عند قطاع واسع من القراء.

من الحكاية البسيطة المتتابعة ورواية الحادثة إلى الشكل الحديث للكتابة السردية، تعقّدت القصة فنياً منذ القرن التاسع عشر دخولاً في القرن العشرين، وتوافر لها

كتّاب نابغون وصلوا بها إلى ما فوق السحاب، من أمثال إدغار آلان بو وهوثورن في أمريكا، وتولستوي ودوستويفسكي وتشيخوف وتورجنيف وبونين وعشرات القصاصين في روسيا، وموباسان وديكنز وتوماس هاردي وصولاً إلى بورخيس وكتّاب آخرين. وربما ازدادت الأمور تعقيداً في أيامنا هذه التي توصف بزمن العزلة والفوضى والتشوش، حيث تغير شكل القصة ومحتواها، وتدريجياً تراجع حضور القصة وتقدمت فنون أخرى على حساب القصة القصيرة، واليوم في زمن الاتصال والتواصل كان من المتوقع أن تعود القصة القصيرة للتقدّم واستعادة مكانتها السابقة إلا أن الأمر لم يتم حتى الآن، وما تزال الرواية تحتل المكانة الأبرز في لائحة الأجناس الأدبية من حيث الحضور والجماهيرية. ويلاحظ النقّاد أن من ضمن الأنواع والأنماط المتعددة للقصة توجد أربعة أنماط رئيسة هي:

النوع القصير من القص الذي أطلق عليه الكاتب الأمريكي واشنطن إيرفنج (١٧٨٣- ١٨٥٩م) «السكتش» وقال: أعدُّ القصة مجرد إطار أضع مادتي ضمن حدوده. أمّا إدغار آلان بو (١٨٠٩- ١٨٤٩م) فكان يرى أن كل عناصر القصة التي يتحدثون عنها تعد ثانوية بالنسبة إلى الحركة ككل.

أما النوع الثاني من القص الذي رصده النقاد فيطلق عليه: القصة القوس، التي تكون ذروتها في منتصفها، ثم يقودنا المؤلف إلى الحل بالتدريج حتى النهاية، أو القصة التي تتكوّن من عدد من الذروات كسلسلة جبلية.

النمط الثالث هو القصة التجلي، كما أطلق عليها جيمس جويس؛ وهي التي تتبلور فيها الفكرة أو تتضح في الصفحة أو الأسطر الأخيرة من القصة.

أمّا النمط الرابع فيُسمّى بالقصة الحديثة، حيث تكون الفكرة مسيطرة من البداية حتى النهاية، وتكون عادة القصة دون ذروة أو تَجَلٍّ ومفتوحة النهاية.

ويرى هؤلاء النقاد أن القصة ما تزال تُكتب بهذه الطرائق الأربع التي تختزل مراحل تطور القصة القصيرة من البدايات حتى عصرنا الحالي.

وكما توجد أنماط توجد تعريفات كثيرة أيضاً للقصة، فإرسكين كالدويل يعرِّفها بأنها «حكاية خيالية لها معنى، ممتعة بحيث تجذب انتباه القارئ، وعميقة بحيث تعبّر عن الطبيعة البشرية».

الكاتبة الأمريكية كاثرين آن بورتر ترى أن على القصة القصيرة أن تقدِّم فكرة في المقام الأول، ثم وجهة نظر ومعلومة ما عن الطبيعة البشرية بحس عميق، وفي النهاية يأتي الأسلوب.

ومن الطريف أن الناقدة الأمريكية هالي بيرنت في كتابها: «كتابة القصة القصيرة» ترى أن القصة القصيرة أكثر الفنون ديمقراطية، لأن كل فرد يمكنه أن يحكي قصة، وإذا كانت القصة جذابة فلا بد أن يصغي إليها شخص ما.

في الحقيقة، توجد تعريفات أكثر مركزية ودقة من التعريفات التي أوردناها وهي كثيرة لم نشأ أن نتطرق إليها، لأن الموضوع ليس بحثاً في القصة وتعريفاتها، بل مجرد توطئة للعدد الذي سنضعه بين أيديكم.

بقي أن نؤكِّد أن العرب عرفوا فن القص وبرعوا فيه، وتوجد شواهد كثيرة على ذلك في الحكايات والأخبار، وكتاب ألف ليلة وليلة شاهد شامخ على بلوغهم ذروة الفن في القص، وهو كتاب حكايات خيالية وواقعية، وليس كتاباً وعظياً ولا كتاباً في التاريخ.

أمّا عن القصة السورية في هذا العصر، فقد تعامل كتّابنا مع القصة على أنها فن جديد، على الرغم من وعيهم لتراثهم الحكائي، وانفتح كتّابنا على المؤثرات الخارجية لفن القص منذ مطلع القرن العشرين، إذْ بدأت القصة القصيرة بالمحاكاة والتقليد، ثم تطورت حتى غدت فناً واقعياً ناضجاً، له ملامح وخصائص محلية، وظهرت هذه الانعطافة في التطور الفني للقصة منذ بداية الخمسينيّات من القرن العشرين، وظهر أعلام كبار في القصة وربما بلغت القصة ذروة تطورها في سبعينيّات القرن الماضي، ثم بدأت تنحسر وتتراجع تدريجياً، ليس عندنا فحسب بل في كل أنحاء العالم، والبحث في أسباب ذلك سيكون لنا معه وقفة أخرى.

ونختتم بالقول: مهما يكن نوع الجنس الأدبي، قصة أم شعراً أم رواية، فإن الأدب الجيد والمؤثر هو الذي يعبّر عن شخصية ووجدان الأمة. ونقول مع بورخيس أيضاً: الحكايات عندنا ما تزال أشبه ببيضة طائر لم تفقس بعد.

وكل الشكر لمن أسهم في إكمال هذا العدد الخاص بالقصة، وأخص بالشكر الكتّاب المشاركين فيه.

❁ ❁ ❁

ربيع الأسماء

إبراهيم الخولي

نظـرت فاتنة إلــى نفسها في مـرآة صالون الحلاقة النسائـيّ، تأمّلت لـون شعرها بصبغته الجديـدة وتسريحته المائلة، ابتسمت لنفسها بإعجاب، التفتـت إلى الحلّاق الواقف بجانبها، أثنت على عمله، ارتدت معطفها الأسود، تناولت حقيبة يدها وخرجت من الصالون وهي تقول له بعد أن قرصته على خدّه بدلع ظاهر:

– سأدفع لك في المرّة القادمة أيّها البارع!

– لا بأس، الله معك يا آنسة!

أجابهـا الحـلّاق مخفياً امتعاضه بابتسامةٍ ملوّنةٍ استعارها مـن أحد رفوفه المليئة بأصبغة كثيرة، فهو لا يريد أن يخسرها بوصفها: إحدى أكثر زبائنه الدائمات!

أشـارت فاتنـة إلى أوّل سيّـارة أجرة عابرة كي تقلّهـا إلى البيت، وعلى شـدو السيدة فيروز بأغنيتها الشهيـرة (أساميـنا، شو تعبـوا أهاليـنا تالاقوها، وشـو افتكروا فينا) بـدأ المطر بالسقوط!

شـدّت فاتنة معطفهـا على جسدها من البرد على الرغم من تشغيل مكيّف السيّارة، وشدّتها كلمـات الأغنية، فسرحـت تتذكّر قصصها مع أسمائها الأولى كما روتها لها أمّها بعد أن كَبِرَت

العمل الفني: الفنان مطيع علي.

ونمَت، فحين وفدت إلى الدنيا قبل ثلاثين عاماً، أطلق عليها والدها اسم هناء تيمّناً باسم حبيبته السابقة، وعلى ما يبدو لم يعجبها الاسم حينذاك، فقد انحازت إلى جانب أمّها نكاية بعشيقة والدها السابقة، وكانت دائمة البكاء والصراخ، لا تهدأ في ليل ولا في نهار، واضطرّ والدها إلى الذهاب بها إلى المدينة أكثر من مرّة كي يفحصها الطبيب الذي نخر في آخر زيارة له على وقع ضجيج العيادة المتهالكة بصراخها وبكائها:

- ليس فيها علّةٌ أو داءٌ، إنّها مزبلة للجنّ والعفاريت!

في اليوم التالي، ولمّا لم يبقَ أمام والدها سوى نصيحة جارته العجوز التي أشارت عليه بها، وجد نفسه على باب أحد مشايخ تلك المنطقة المشهورين، وبين يديه طفلته ذات الشهور الخمسة، فقال له الشيخ وهو ينظر إلى وجه الطفلة المُزرقّ من شدّة النقّ والبكاء:

- إنّ الهناء لا يناسبها، أنصحك بتبديل اسمها!

- إذن سأسمّيها فالحة علّها تكون فالحةً في الدنيا والآخرة يا مولانا!

أجابه والدها على الفور. ومن ساعتها سكتت فالحة عن البكاء إنّما على مضض، ولا أحد يعرف إذا ما كان سبب سكوتها وصفة الشيخ السحريّة، أم نتيجة خوفها من رؤية سُبْحته التي تُغالب ذقنه طولاً!

اليقين الوحيد بالنسبة إليها، أنّها اعتادت على أن تكون فالحة بين الناس، فيما بقي الهناء مقيّداً في سجلات النفوس، ورحل والدها عن الدنيا بعد ذلك بسنوات دون أن يغيّر اسم ابنته العزيزة في السجلات حتى قام خالها بذلك قبل حصولها على شهادة الإعداديّة، التي كانت فيها فالحةً كما قال لها الجميع!

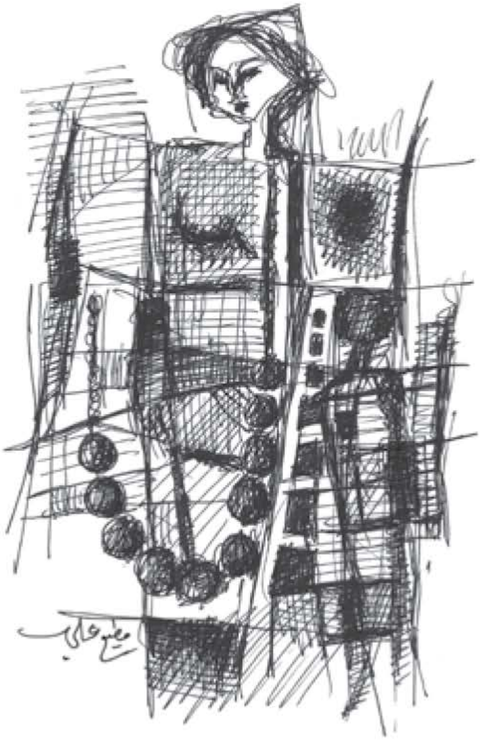
نزلت فاتنة من سيّارة الأجرة، وأسرعت إلى غرفتها الصغيرة المستأجرة حتى لا تغرق في سيل شتائمها التي صبّتها على السائق الذي طالبها بأجر زائد نتيجة أزمة البنزين الخانقة التي فاضت عن فتحات تصريف مياه الأمطار في الشوارع!

أخرجت طعامها من الثلاجة ووضعته على الغاز لتسخينه:

- اللعنة، نسيت ألا غاز عندي! والكهرباء (كلّ سبعة بلمعة)!

اتصلت بأحدهم، كان وعدها يوم أمس بتأمين أسطوانة غاز لكن هيهات، فقد أغلق اللعين هاتفه، فشتمته وهي تتأفّف:

-متى سأنتهي من حياة القرف هذه يا ربّي؟



قالـت فاتنة لنفسها وهــي تتناول بضع لقيمــاتٍ باردة على الواقــف، ثمّ أسرعت تندسّ فــي فراشهــا مــن قســاوة البرد والصقيع حتى دون أن تبدّل ثيابها، وليس لها مــن تسليةٍ ســوى الضجــرِ بأسمائها القديمــة، فحيــن أصبحــت فالحــة فــي الجامعــة، وجــدت أنّ اسمهــا القــرويّ القديم لم يعد يليق بها وباللغة الإنكليزيّة التي تدرسها، فحدّثته إلى فالة الأكثر دلعاً ونغماً، وبه عُرِفت بين زملاء الجامعة!

في سنتهــا الثانية، وكان ذلــك قبل أن تبــدأ الحرب الأخيرة، تعلّقــت فالة بحبّ أحــد طلبة الأدب العربــيّ إنّما من طرفٍ واحد، وكي تلفت إليهــا انتباه ذلك الغبيّ المشغول بأشعــاره الركيكة، اشتركت في مسابقــة الشعــر لإحدى مجــلّات الخليج الشهيرة، وحدثت الطامة الكبرى وفازت بالجائزة الأولى!

لمّــا أرادت فالــة استلام جائزتها والفرح بهــا، ردّت المجلة طلبها لأنّهــا ما تزال فالحة في صورة بطاقة الهويّة التي أرسلتها، أمّا الفائزة عندهم، فهي فالة! ولأنّ قيمة الجائزة مغرية في ذلــك الوقــت، استشارت أحد المحامين الحذقين، فاقترح عليها بــذكاءٍ وبراعة بعد أن وعدته بغمزة عينٍ ونصف المبلغ:

- سنرفــع دعــوى على كاتــب النفوس الذي أخطأ فــي كتابة اسمكِ يا عزيزتــي! انظري إلى نظّارته السميكة، لا أعرف لماذا يضعون مثله في منصبٍ حسّاسٍ كهذا؟

بعــد طــول انتظار ربحا الدعوى، لكنّ الذي لم يكن في الحسبــان، أنّ المجلة الشهيرة قامت بحجــب الجائزة بعــد أن أرسل لها أحد الأغبياء نسخة من مجلــةٍ أخرى نُشِرت فيها القصيدة نفسها قبل نحو عامٍ باسم فلّة!

وكي تتخلّص فالة من الدعوى التي رفعها بحقّها المحامي الحذق لأنّها كذبت عليه، وخدعته، ولم تعطه ثمن أتعابه المستحقّة، وكانت حينها قد تخرّجت في الجامعة، وبدأت الحرب أوارها، لم تجد من حلٍّ أمامها سوى طليقته المحامية الجميلة، والتي استطاعت عن طريق أحد أصدقائها الأتراك، الحصول لها على بطاقة هويّة وجواز سفر يُثبتان أنّها فلّة! وبعد أن رأى القاضي طليقة المحامي البارعة الحُسن والفتنة، وهي تقول قولتها:

- هل سمعت يوماً يا سيدي القاضي عربياً أطلق على ابنته اسم فالة؟

أسرع القاضي وأعلن حكمه بأنّها:

- فاتنة فعلاً!

يومها، وعلى وقع الموسيقا الصاخبة، احتفلت فاتنة مع بعض صديقاتها باسمها الجديد الذي رافقها حتى الآن، تماماً كهذه الموسيقا التي انطلقت فجأة من التلفاز المتألّق فرحاً بعودة الكهرباء إليه بعد طول غياب، فقد كانت إحدى المحطّات تنقل أفراح الناس بمناسبة طهور أحد أبناء الملوك وتسميته وليّاً للعهد، فيما تبثّ محطّة أخرى أفراح أُناسٍ آخرين بعد أن توضّأت أحياء حلب الشرقيّة بدم الجيش، وانتصرت!

بعد أيّام قلائل، وبوصفها خبيرة أسماء بشهادةٍ أميّة، ولأهميّة المرحلة مع بداية العام الجديد، اقتنصت فاتنة عقد عملٍ مُغرٍ مع ما يُسمّى معارضة، باسم فتنة بنت الشيخ جدعون!

❁ ❁ ❁

جدي الذي لم ينجب أبداً..

أحمد عبد الكريم ونوس

للشيـخ محمـود كراماتٌ كثيرة.. يعرفهـا الجميع، وآخرها أنـه فجّر النار تحت قِـدر عمّي أبي أحمد..! لا أحد يعرف سرّ هذه الكرامة، غيري أنا، وابن عمي معاذ، الذي لم يترك له ملكُ الموت مجالاً ليروي لكم حقيقة ما جرى..

لا أحد يعرف كيف جاء الشيخ محمود إلى سلالتنا، على الرغم من أنه عاقر، لكنّ الجميع ينسبنا إليـه..! خصوصاً أنـا وعمّي.. يقولون إنّه أحـد أولياء الله الصالحين جداً.. ثـم ينسون ذلك في غمرة العيش... إلا أنّ انفجار النـار ذكّرهـم به، فهرعوا إلى قبره قانتين خاشعين، وكأنهم لم يروه قبل الآن.. على الرغم من أنّه موجودٌ هناك، تحت شجرة السنديان... كالهمّ.. والقداسة..!

عمي أبو أحمد عجوزٌ جاوز الثمانيـن.. وما زال طمّاعاً وشحيحاً.. يجلس أمام الموقد المشتعل، يغلـي عصير الرمان، الـذي يشكّ الجميع أن نصفه مسروق من أشجـار الجيران.. وحين انفجر الموقـد كقنبلة.. كان يُلقـم النـار بعض الحطب المسروق كالعادة.. بينما تجلس زوجه الثانية (أم حسـن) بالقـرب، لا شك أنكم تعرفـون أنه تزوجها بعد موت زوجه الأولـى أم أحمد، وقد كان في العقد السابع من عمره، عندما أنجب منها حسن، الذي كان يلعب حولهما، ويُغنّي:

- (دبس الرمان على النّار..)

ويُكررها، حتى انفجرت النار، وانقلب القدر.. فولّى أبو أحمد الأدبار بسرعةٍ غريبة، وهو يصرخ مستنجداً:

- يا أم حسن.. الدبس.. يا أم حسن..

لم تكن المسكينة تسمعه، فقد صمّ الانفجار أذنيها، فسارعت لاحتضان طفلها، وإبعاده عن الخطر.. وهي تشتم الدبس ومن يأكلونه.. والبخل ومن يألفونه:

- قلتُ له أن يغلي الدبس على موقد الغاز، لكنه أبى إلا أن يستعمل الحطب، الذي جلبه من مقام الشيخ محمود، الذي لا يرضى أن يسطو أحد على أحطابه، ففجّرها..! قدّس الله سرّك يا شيخ محمود..!

شاع الخبر بسرعةٍ في القرية وجوارها.. فتقاطر الناس لزيارة قبر الشيخ، للتّبرك به.. وتقديم النّذور له، حتى صارت دماء الأضاحي تجرّ الحصى..! وانعقدت في أجواء الحيّ رائحة البخور، والابتهالات.. وصار الجميع ينظرون لعائلتنا بعين التّبجيل.. لأننا أحفاد هذا الوليّ الصالح، صاحب البراهين..! والذي تؤكّد جميع الجدات أنه كان عاقراً..! ولم نجرؤ أبداً على سؤالهنّ من أين أنجبننا.؟!

فلربما تكون هذه معجزةٌ أخرى تدلّ على سرّ جدي الشيخ وبرهانه..! ومن يدري ما الذي يستطيع فعله صاحب الأسرار المقدّسة، الذي فجّر النار، وطيّر قدر الدبس عنها سبعَ قاماتٍ أو أكثر..! وهكذا صار الناس يُضيفون على الموضوع بهاراتٍ تجعله أكثر جاذبية وسحراً..! فيزعمون أن الشيخ قد أصاب أم حسن زوجة عمي بالطرش، لأنها سمعت كلام زوجها، وسرقت الحطب من جواره.. مع أنها أعجز من أن تلمس ورقةً واحدةً من شجرة السنديان العملاقة التي تُظلّل قبره..! ويقولون أيضاً:

- إن وميض الانفجار قد أصاب عمي بالعمى..

مع أنه الآن بالضبط يتربّع على مائدةٍ من لحم الأضاحي، ويتمايل رأسه الأبيض على موسيقا المواويل الأثرية المتطايرة من جهاز التسجيل الجديد، الذي اشتراه بعدما صارت النقود تلعب في جيوبه.. بتأثير معجزات جده..! ولا أنكر أننا استفدنا نحن أيضاً من تبرعات المريدين وذبائحهم..!

فالحادثة غيّرت كل الناس في القرية إلا عمّي..! على الرغم من قناعته الرّاسخة بأن الشيخ محمود قد فجّر ناره، وسقى التراب بدبسه...

وقد بقي سرّ ذاك الانفجار خفيّاً.. لا أحد يعرف حقيقته إلا أنا، وابن عمّي معاذ الذي أعطاكم عمره، قبل أن يرى هذه التطورات.. ولو كان حيّاً لأخبركم مقهقهاً:

بأنــه ورث عن جـده الشيخ شيئاً آخـر غير العقم.. ألا وهـو صناعة المعجـزات..! وأنه بعد أن شكوتُ له سرقة عمي لحطبنا، فكر بالانتقام منه.. وقال لي:

- ما رأيك أن نعمل بالعجوز مقلباً، يُنسيه حليب أمه، ويردعه عن الحرام..؟

سألتُه، وأنا أشكّ في أننا نستطيع أن نُقصّر يديّ هذا العجوز الطويلتين، مهما فعلنا:

- كيف..؟

قال متضاحكاً:

- نفتح ثقوباً داخل العيدان اليابسة، ونحشوها بالبارود..!

وهذا ما كان.. لكننا لم نتوقع أبداً أن ينسب الناس تلك الكرامة لجدنا الكبير..!

❀❀❀

التماسٌ مُوجّهٌ إلى وسائل الإعلام:

(أرجو أن يبقى ما أخبرتكم به سرّاً بيننا..! لئلا ينسج الناس عن جدّنا العظيم الأقاويل..).

❀ ❀ ❀

صرخة وحشية

أدهم العنداري

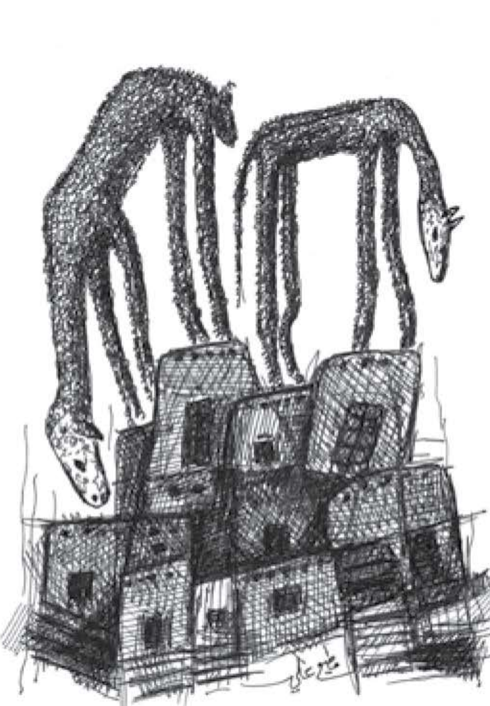
صرخةٌ وحشيةٌ جعلتهُ يتراجع عدة خطوات.

لحظةٌ هي اللحظة التي تسبق حدوث الأشياء الخطيرة. هي جزء الثانية الذي يتصرف فيه الجسد من تلقاء نفسه، ما زال يهتز في مكانه، يحدّق بتلك الكتلة المندفعة نحوه، بدا قرناه أضخم، وبدت عيناه أشد احمراراً ورعباً، وفي تلك اللحظة الحازمة فطن أنه هو مَنْ يتحكم بالنور، أطفأ المصباح وانخطف يميناً ليمرَّ بمحاذاته، ويمسكه من قرنه يبطحه أرضاً ويبرحه ضرباً، وإن استدعى الأمر يخرج الموسى من جيبه الخلفية ويذبحه، إلّا أن ذلك الكبش استدار معه على الرغم من الظلام وكأنه عَلِمَ بما دار داخل ذلك الرجل، صدمة عنيفة رفعته عالياً، ومن ثم ارتطم بالأرض وتدحرج المصباح بعيداً، لم يكن متأكداً إن كان هو من أضاءه أم أنه أُضيء من تلقاء نفسه، يتدحرج بين قوائم الكبش حيث راح يركله إلى أن تحطم زجاجه وابتلعه الظلام.

صوت الأظلاف تدور حوله برتابة، والزرد يشحذ فوق الأرض ببطء.

صوت الأظلاف في هذه اللحظة أقرب إلى أن يكون إيقاعاً لرقصة ما. يقترب الصوت ويبتعد، ومن ثم الصمت والصمت، صمتٌ مرعبٌ وكأنه يسيل من سكون الأشياء ويتخثر فوقه ثقيلاً،

العمل الفني: الفنان مطيع علي.



حـاول من جديد النهوض. دوَّت الصرخة من جديد فأردته أرضاً، وراح جسده يتلقى رقص الكبش بتأوهات وألم. يتخبط تحت كتلة الصوف مثل غريق. صوف نتن يحاول أن يُبعـده عن وجهـه، لكنه لم يـزل جاثماً ثقيلاً، يبعث حرارة مقززة...

كل خليـة في جسده تؤلمـُـهُ، والألم يلوك رأسه.

ملقىً علـى الأرض مثل ممسحة، يعتصر بـرداً وكأن أربعينية الشتاء مـرت به دفعة واحدة!

وَقْـعُ قَدَمـي إنسان تـدوران حولـه. أين أنـا...؟ فتَحَ عينيه كأنه لـم يفتحهما، ظنَّ أنـه يحلم، تذكر الأظـلافَ والكبش فأيقن أنه صحا من غيبوبة لا يدري كم استمرَّت.

صوت الخطوات يبعثُ في صدره الطمأنينة والأنس. هذا حسان، قال في صمته واستغرب كيف استطاع أن يعثر عليه.

صاح: حسان؟

تغرغرت الحروف في بلعومه، رجرجها لسانه، وخرجت من بين شفتيه ثغاءً متهالكاً.

توقفت القدمان، وسَمِعَ صوت سحبات الزرد.

عـاد الألـم يعصر رأسه. أراد أن يقول: مـن أنتَ؟ إلا أنها خرجت مـااااااع!! تقدمت الخطوات وجذب الزرد من جديد، فاق الألم حد احتماله هذه المرة..

حـاول جاهداً أن يفتح أصابع يديه، دون جدوى، دس قبضته كما هي فلعله يمسكُ بالسكين، إلا أنها عَلِقَت بصوف أجعد!!

صـوف أجعـد!؟ أحس بالدم يسيل على وجهه ثم تلمَّس مكان الألـم في رأسه، فاصطدمت يداه بقرنيـن نبتا مـكان صدغيه، يهز رأسه محاولاً إزالتهما وهو يصـرخ مذعوراً.. بدا ثغاؤه مخنوقاً،

حاول مراراً الوقوف على قدميه. لم يقدر أن ينهض إلا على أربعة، وشيء ثقيل يتدلى من مؤخرته ويرتطم بفخذيه من الخلف، حاول الفرار لكن تلكَ القوة جذبته من قرنيه فسقط، وجرته خلفها، حتـى بـدا له أن صـوت الأظلاف الـذي تعالى صادر عـن مشيته، صُعـقَ، عندما أيقـنَ أن صوت الأظلاف صادرٌ عن مشيته.

النـور الضعيف أنبأه أنه يقترب من الخارج، النـور هنا كافٍ لأن يرى حلقات الجنزير تمتد من بيـن عينيـه وتتصل بقبضته. رجل يرتدي ثيابه. لم يعد يفكـر إلا في الهرب. قررَّ أن يركض ويثب ويغرسـ قرنيـه في ظهره ويهرب. ركض ووثَبَ. انحرف الرجل قليـلاً، مرَّ بمحاذاته، فأمسكه من قرنه. بطحه أرضاً وأوسعهُ ركلاً.

فـي الخارج ضوء الشمس كان مؤذياً، ومن البعيد سَمِـعَ أصواتهم يتصايحون: ها قد عاد ومعه الكبش، أبناؤه زوجته إخوانه أولادهم، ينظر في عيونهم ويصيح بكل ما أوتي من قوة: احموني منه حرروني، أنا أبوكم، أنا أخوكم، لكن عبثاً فثغاؤه يُصمُّ الآذان.

ســاروا جميعهم من حوله، الصغار يركلونـه والكبار يتحدثون بود ويربتون على كتف من يقوده، إلا أن من يقوده لم يكن مكترثاً لأحد، كان يسيرُ بسرعة.

مـن بعيـد عَرَفَ أنه يُقـاد إلى حيث -منـذ ساعات- ذَبَحَ الخـروف الصغيـر، راح ينطُّ ويثغو، يرغـي ويزبد ويثغو ويثغو، جزره بنظرة بعثت القشعريرة في بدنه، شدّ الزرد بسحبة كادت تشطر جمجمتـه، أنـزل قائمتَهُ مـن أمام فمه، فبمثل هذا الألـم كان يعضّ على إصبعـه. أسنانه تقضم بعضها، وأذنـاه يُخرِّقهما الطنينَ، اندفع الجميع يضربونه ويشدونه، حتى أخرج أسنانه من فخذ ذلـك الذي يريد ذبحهُ، وغرزهـا في ذراعٍ أمامه، تركها ليطبقَ فكيهِ على راحة تقترب من وجهه، مضى يعضُّ كلَّ ما يقع بصره عليه.

أدخـل الرجل إصبعيـهِ في فتحتي أنف الكبش وراح يشدهما إلـى الأعلى، وأطبقت كفه الأخرى علـى فكه السفلـي، تهاوى جسده تحت ثقـلِ «أخويه وقد ركباه»، ربطوا قوائمـه... حملوه وتعجبوا جميعاً من دموعه التي تسيل على وبر وجهه.

❁ ❁ ❁

أعراس.. لكبار السن!

أكرم شريم

واستيقظت هذه العجوز الثرية في ذلك الفجر منشغلة وتتلفّت حواليها، وكأنما أضاعت شيئاً مهمّاً وتريد أن تبحث عنه لكي تجده وبأسرع وقت! الأمر الذي جعلها تجلس في السرير محدِّقة وهي تفكر بتركيز فيما يدور في ذهنها! فهي (المدام) التي تملك من المال الكثير والذي يتكاثر باستمرار أيضاً وهي في السابعة والثمانين، وكل من هم حولها وحواليها من الأبناء والبنات والأحفاد وأبناء الأحفاد يحبّونها ويتمنّون لها دوام الصحة والسعادة والسرور وليس لشيء، ولكن لأنها تحبهم جميعاً، فهي أمّ الجميع، وكما يقولون: أحلى جدة... (وياستي ياست الكل)، وقد جعلتهم جميعاً يملكون ويستغنون عن طلب المال وعن أيّ حاجة إليه.

ويزداد تحديقها وانشغالها بما تفكّر فيه! إذ كانت هي ومع كل ما معها ومَنْ معها ومَنْ يسعى لخدمتها وبكل ما تطلب وتعاني من الوحدة والعزلة، فما بالك بالعجوز التي تجاوزت الثمانين إلى التسعين، وتعيش وحيدة ومنعزلة، ونادراً ما يزورها أحد، وكذلك الرجل العجوز الذي كبر وليس لديه سوى الحاجة إلى مَنْ يزوره ويتحدَّث معه، فلماذا لا تجمع هذا الرجل الثمانيني أو التسعيني بتلك المرأة الثمانينية أو التسعينية، ويعيشان معاً، في بيت واحد وضمن عقد زواج

العمل الفني: الفنان عبد الوهاب حمزة.



شرعـي وقانونـي، ويتعاونان في كل شـيء وعلى كل شـيء، ألا تكـون بذلك قد فعلت مـا هو أفضل مـن كل ما فعلته في حياتها، بـل ما هو أفضل من كل ما يمكن أن يفعله أي إنسان أو مجتمع أو حكومة في هـذا العالم؟! فكم هي مُرَّة، بـل صعبـة وقاسية حيـاة كبار السـن إذا كان كل منهـم يعيشـ فـي عزلـة ووحـدة دائمـاً!؟ ويشـرد بهـا التفكير الآن وتهرع وراءه:

صحيح أنهم قالوا لي كثيراً ويقولونها باستمـرار: تعالـي وعيشي عندنـا، ولكن مـا الذي سيجعلني أخرج مـن عزلتي ووحدتي، إذا لـم يكن لـدي إنسان في مثل عمـري، قد تجاوز الثمانيـن، نعيشـ معاً فـي السّـراء والضّـراء، وستكون حياتنـا كلها سراء، فقـد خَبِرتُ المحادثة الخاصـة بين الزوجين والنوم معاً، والحب الناضج الدافئ، والعناية المتبادلة ببعضنا، في كل ما يهم كل منا؟!

إذن، لمـاذا لا أقـوم بتزويج كبار السن من العجائز خاصة، الذين يعيشون، بل يعانون من حياة العزلـة والوحدة معظم الوقت وطوال الليل والنهار؟! وفي الوقـت نفسه سيزورون الأبناء والبنات والأحفـاد لبناتها العجائز وكذلك من هم أبناء وبنات وأحفـاد لأبنائها العجائز، وتتحرك الحياة وتضيء وتنشر الفرح والراحة والاستقرار لكل هؤلاء العجائز!

فهل أبدأ بنفسي؟!

ولكنهـا سرعـان مـا استدركت.. إنهـا لا تحتاج إلى ذلـك إلا كآخـر عجوز، لأن لديهـا كل مَنْ يحبّونهـا، مع ذلك فـإن عزلتها لا تتوقف! والأفضـل في هذه الحالة -ويـا الله ساعدني- أن أبدأ بالتعرف إليهم، دون أن يتدخل أحد بمشروعي..!. ثم أجعلهم يتعرّفون إلى بعضهم بعضاً ثم أقيم لهـم الأعراس... وستكون أحلى الأعراس... أعراس العجائز المهملين وتحديداً بعد الثمانين من

العمـر.. إلـى التسعين... وما بعد التسعين! شريطة أن يكونوا بأمسِّ الحاجة إلى ذلك! وإلا ما نفع كل هـذا المـال الذي أملكه، وكل ما يملكه غيري وكل أثرياء العالم، وكل المجتمعات أيضاً، إذا لم تكن له فوائد إنسانية عامة.. مثل هذا العمل الإنساني الكبير في العالم؟!

إنَّ زواج كبـار السـن.. والمنعزليـن خاصـة، والذين يعيشون فـي وحدة طوال ليلهـم ونهارهم.. رحمـة!.. نعـم!.. إنه رحمة! إنها الأم الكبيرة، فالجدة أمّ الجميع، وإذا أصبح أي ابن لها أغنى رجل فـي العالـم فهل سيصبح أفضل من أمه؟! وتجيب نفسها جازمـة: طبعاً لا! وإن أصبح الابن صاحب أعلى المناصب في العالم، فهل سيصبح أفضل من أمه؟! وعلى الفور تجيب: طبعاً لا! فلماذا لا يكون عند هذه الأم العظيمة، حين تصبح عجوزاً.. شريطة أن تكون وحيدة ومنعزلة، رجلٌ مثلها، يؤنسها ويمـلأ حياتهـا وتؤنسه وتملأ حياته بكل ما يحتـاج وتحتاج! وتتابع التفكيـر الآن وهي تحدِّق بإمعان أمامها وكأنها تقرأ الوحي أو تسمعه، ومن نفسها، وقلبها، وكل مشاعرها: الزواج إذن!.. وسيقومون بمساعـدة بعضهـم بعضاً وبرعاية بعضهم بعضاً، فهناك خبرة طويلة عند كل منهم، فقد تجاوز كل منهـم الثمانيـن في حياةٍ كلّها خبرات وتجـارب ودروس! ومن المؤكد أنه يوجـد من كبار السن بعد الثمانيـن والتسعين الراغبين، بـل الذين يتمنّون مثل هذه العلاقة في هـذا العالم، الملايين إن لم نقل عشرات الملايين، فقد تكون هذه الخطوة الإنسانية والدينية والأخلاقية التي سأقوم بها، بداية تَكبُر وتنتشر وتصبح عادة في العالم كله؟!

وهـل سيزيدني ذلك سعـادة، ويجعلني أشعر أن المـال يمكن أن يكون إنسانيـاً، ويضع الحلول الإنسانية العظيمة؟!

تتـرك سريرها الآن وتتوجه إلـى غرفة تفكيرها الصغيرة، حيث توجد الطاولة التي تضع عليها المجلّات العائلية ومجلّات الأطفال وكل ما يلزم لتسلية الأحفاد أيضاً، هذا مع العلم أنهم ينتشرون عادة في كل أنحاء المنزل، حتى إنها قد تجدهم أحياناً يختبئون من بعضهم في الخزانة في غرفة نومها!.. فما أحلى أن تكون الإنسانة جدة.. وأمّاً للجميع.. وتتابع رعاية الجميع!...

وتبـدأ تضـع الخطة.. مَـنْ سيعمل معهـا بكل ما تطلـب وتريد، ومَـنْ سيبحث عن كبـار السن المنعزليـن.. مرضى العزلة الإنسانية.. مرضى انتهاء العناية والرعاية والحب! ولا يوجد عندهم مـن يرعاهم ويجعلهم يعيشون الحياة كاملة بكل مـا فيها من العلاقات الإنسانية الحلوة! تحديداً من الذين يحتاجون إلى ذلك أمس الحاجة، ويتمنّون أن يحدث لهم ومعهم ومن أجلهم هذا الزواج

الرائع؟!... وهل يوجد أحلى من أعراسهم؟! ومنذ صباح هذا اليوم نفسه، وبعد هذا الفجر نفسه يتحوّل كل عملها ونشاطها في هذه الحياة إلى تحقيق هذا العمل الإنساني والأخلاقي والديني والقانوني، ويصير كل ما تقوله وما تفعله من الاجتماعات هو الحرص الشديد على ذلك، وضرورة ذلك في هذه الحياة، وعمق الإنسانية فيه! ويتطور هذا النشاط وينتشر ويبدأ يعطي أُكُلَه!..

وفي يوم العرس الأوّل لكبار السن - وما أكثر المدعوبين وفرحهم وبهجتهم والذين امتلأت بهم الصالة جلوساً ووقوفاً، واستغراباً وإعجاباً! - تدخل إلى الصالة العروس العجوز التي اقتربت من التسعين من عمرها وهي ترتدي بدلة الزفاف بكامل حلاوتها وأناقتها وبيدها عصاها تتكئ عليها وتمشي ببطء وضعف نحو كرسي العروس، ثم تجلس والتصفيق يعلو وينتشر في كل منطقة من هذا المكان! وعلى الفور وفي الطرف المقابل يقترب العريس العجوز، وهو بكامل أناقته وفرحه وإعجابه واستغرابه أيضاً! وينظر حواليه كأنه غير مصدِّق ما يحدث، وكأن تسعينه عادت إلى شبابها.. إلى الحياة.. وصارت حباً وبهجة وفرحاً على الدوام، ويقترب من عروسه العجوز الآن ويجلس إلى جانبها بسعادة غامرة وطافحة!.. ويفاجئ الجميع، كما يفاجئها، فيقبّلها من خدها، ويتفاجأ هو الآن، كما يتفاجأ الجميع حين تقبّله من خده، ولكن فجأة يقفان ويقبّلان بعضهما من الفم، وتطير على الفور آلاف الأيدي بالتصفيق الحار المترافق بالسعادة والسرور والضحك والفرح.. تصفيق الحب لكبار السن. وللحياة الحلوة كلها، وبكل ما فيها.

وينتبه الحضور القريبون إلى امرأة في الستين من عمرها تبدأ تبكي.. وتبكي، فتقول لها أخرى: (ليش عم تبكي.. لازم تفرحيلها لأمك! صارت عروس!) وتبكي المرأة أكثر الآن، وكل من حولها يضحكون، وفجأة ترفع يديها عن وجهها وتضحك مثل الآخرين.

وتقول المرأة: (أمي صارت عروس.. كتر خيرك ياربي.. كتر خيرك.. كتر خيركن يلي كنتو السبب!).

وتقول الأخرى: (عرسان ختايرة!..ختايرة وحلوين.. والله حلوين!... ومن أول وجديد صاروا عرسان!).

وتبتسم في الصدارة الآن، وبكل فرح وسعادة هذه العجوز الإنسانية، وهي تتفرّج وتفرح وتفخر وتستعيد كل ما دفعته وقدّمته من العمل والمال مع أرباحه الكثيرة.. الرائعة والباهظة.. وتبتسم وتبتسم وتبتسم!

❀ ❀ ❀

الصورة..

انتصار بعلة

في مثل هذا اليوم من كلِّ عام تُحضِّرُ المرأةُ المتلهِّفة لوازم عيد زواجهما جميعها بعناية، فتختار قبل كلّ شيء ثوباً للمناسبة العزيزة. وعادةً لا تحتارُ طويلاً أمام خزانتِها العامرة، إذ تنتقي ذلك الفستان الأبيض ذا التقليمات الرفيعة:

- عندما تلبسينه أراكِ أجمل عروسٍ في الدنيا حبيبتي.

هكذا كان زوجها يعلن في سرور غامر، لذلك – على الرغم من وجودِ عدَّة فساتين غيرَهُ أكثر إثارة – تصرُّ على ارتداء هذا الفستان المقلَّم الَّذي يغطي جسدها حتَّى أخمصِ القدمين. ثمَّ تهمس بودّ تسأله:

- مَن غيرُ عينيك مرآتي؟

بعد ذلك تأخذ بتحضير قالب الحلوى، وقد تعوَّدت أن تصنعه بنفسها منذ أخبرها قبيل سفره:

- مِنْ تحتِ يديكِ يصبحُ أشهى، وأشعرُ بطعمه اللذيذ أكثر!

هو ذا يقرعُ الباب، ثمَّ تهطلُ قُبُلاتُهُ النديَّةُ فوقَ شفتيها كالمطر، بعدها يتفقَّدُ أشياءَهُ الصغرى.

العمل الفني: الفنان عبد الوهاب حمزة.

ها هي جريدتُهُ مازالت في الركن محفوظةً باعتناء، وهنا ديوانُ حبٍّ لشاعر المرأة النبيل نزار قباني، كانا يقرأانه معاً في الأمسيات اللطيفة.

إنَّها لا تريدُ - هذه الليلةَ بالذاتِ- دعوةَ أيٍّ من صديقاتها المقرباتِ، أو حتَّى أهلها، فهذه مناسبة خاصَّة بهما:

- هي ونضال ليس أكثر.

تعلنُ الساعة الجداريَّة تمام التاسعةِ مساءً موعدَ حضورِهِ المعتاد، فتبدأ وفيةٌ – بعدما تزينتْ في أبهى أناقةٍ – بترتيب طاولةِ الاحتفالِ حيث تضع وسطها مزهريَّةَ الوردِ الجوريِّ؛ إذ لم يأتِ – طوال فترة (الخطوبة) - إلى لقائها لو مرَّةً واحدةً من دون وردة جوريَّة حمراء، فهو يعلمُ أنَّ المرأة المحبَّة للورود تمتلك قدراً كبيراً من الأنوثة، وهي عاطفيَّةُ المشاعر، تجيدُ الاختيار، لقدرتها على فهم الآخرين.

ثمَّ تفاجئه أيضاً بأنْ تشكل وردةً كبيرةً على غرَّتِها المنسابة، كيفما اتفق، وترتِّب الأطباق بشكلٍ متناسق مثلما يحبُّ ويشتهي.

- ما أروعكِ يا زوجتي الغالية، فقد جعلتني أحبُّ الحياة بعدما حُرمت من حنان الوالدين بسبب حادث سير أليم...

يومذاك أنَّبته العرَّافة بوضوح سافر:

- أسرتك منذورة للطريق يا ولدي.

❀❀❀

قد شغَّلتْ - كي ينسابَ اللحنُ الرقيقُ، فيعبقُ المكانُ بعذوبة ساحرة- جهاز التسجيل على كلماتِ نزار قباني المغناة:

الحبُّ في الأرض بعض من تخيُّلنا

لو لم نجده عليها لاخترعناه..

أخيراً تشعلُ شموعَها – هذه السنة عشر شمعاتٍ ملوَّنةٍ – لتنظر في عيني زوجها المضيئتين بالوجدِ والشوق العميق...

بانتا شاردتين في نقطةٍ ما من الجدارِ المقابلِ فخاطبتْهُ عنْ قربٍ:

- أتذكرُ حينَ تعارفنا في مثل هذا اليوم يا نضال؟

وإذ يرتسم طيفُ ابتسامةٍ عذبة على محياهُ تكملُ سيرتَها في حنين:

- كنتُ أتنزَّه مع الأولاد في الحديقة المجاورة لمنزلنا، وشاهدتُكَ تختلسُ النظرات إليَّ، لكنَّك لم تستطع الصبرَ فعدوتَ نحوي:



- (الله يسلِّمن ولادك الحلوين).

رددتُ عليك:

- ليسوا أولادي، أنا عمتهم.

كان قراري الحاسمُ عدمَ التفكير بالارتباط إلاَّ إذا وجدت الرجلَ الَّذي أحبُّهُ كي أكونَ له مدى العمر، لأنَّ الحبَّ عهدٌ على الوفاء بين قلبين.

فتساءلتَ:

كيف لمن في مثل جمالِكِ البديعِ أن تبقى بلا زواج؟

فاستغربتُ جرأتَكَ الزائدة عن حدِّها:

- هكذا (من الباب إلى الطاقة) حديثٌ في الزواج؟

فباغتَّني أكثر:

- أين ترغبين قضاء شهر العسل إذن؟

أجبتك:

- حيث يوجد الحب يوجد العسل يا ...

- اسمي نضال..

آنذاك تعارفنا جيداً ثم رحنا نلتقي وسط تلك الحديقة التي أضحتْ عُشَّنا الأليفَ؛ لتهمسَ في أذني كلَّما شاهدتَ طفلاً يلهو فوق الأرجوحة:

- سيكون أبناؤنا أجمل..

فأردفتُ مداعبةً:

- «لما يأتي الصبي نصلي على النبي..»

لحظتَها حدجتني بنظرةٍ قاسيةٍ كأنني أرتكبُ ذنباً:

- لا فرق. صبي أم بنت، المهم أن حبنا لن يذهب سدىً...

تشردُ رافعةً غرَّتها المنسابةَ نحو البعيدِ في غصةٍ...

قد جاء مستعجلاً يودعها:

- إنها فرصةٌ عمل نادرةٌ وعليَّ اغتنامُها يا وفية.. لكنك تخافُ ركوبَ الطريق، فماذا دهاك؟

واستنكر نضال ما سمع، (آملاً تحسينَ ظروفِه المعيشية الخانقة)، ما أجمل أن أرجعَ من الغربة فأجدَ عروسي الرائعة في انتظاري...

- لا تهتمّ وسوف نحتفل بعيد زواجنا معاً..

بعد سفره الموجعِ تأججَ الحبُّ في داخلها أكثرَ فأكثرَ... مخطئٌ من قال: إن البعيدَ عن العين بعيدٌ عن القلب..

تترنَّمُ المرأةُ المتأنقةُ كأبهى عروسٍ في العالم بكلماتِ القصيدةِ التي تعوَّدَ نضالٌ أن يرددها وهو يرمقها بلهفة قائلاً:

- قولي أحبُّكَ كي تزيدَ وسامتي...

بعد ذلك تأخذ وفيةُ بإطفاءِ شموعها الدامعة وهي تواصل سنةً بعد أخرى – في مثل هذا اليومِ بالذات – مُخاطبةً صورةِ زوجها المعلقة على الجدار، الموشحة بشريطة سوداء:

كلَّ عامٍ وأنتَ حبيبي...

❀ ❀ ❀

ربعُ استدارةٍ فقط

أوس أحمد أسعد

أحياناً، قد تزلّ قدما ظلّك وتسقطُ من أعلى شجرة الحلم، في عصافيرها، فتنكسر أجنحتُك، وتُطعن رئاتك بشهقات الرّيح. وأحياناً وأنت تلملمُ أشلاء عتمتكَ عن حبال الرؤيا، يصدفُ أن يعبرَ قوسُ قزح صغير، وينتشلكَ من الضّياع. فلا سرابكَ يكتمل، ولا نجومكَ تُهتدَى. هي الانتباهة الموجعة فحسب وقد اختمرت، تُصليكَ بحمّاها حدّ اكتواء. هأنذا، أراكَ تتنزّه في حديقة البرزخِ، تحفّ بكَ اليماماتُ، وثمّة دندنة لها طعم الصّدأ ترافق خطوكَ. قبل أن تتقمّص زيّ الرّاوي وتذوب في ملح النصّ.

بضع ثوانٍ كانت كافية لتموتَ ببهاء، ويكتشفكَ طحلبٌ مغامر، أو حلزونٌ حكيمٌ، واهباً إيّاك قوقعته لتختفي مرّة واحدة وإلى الأبد. هي أكثر من كافية، لتتفادى غزالة فخاخها، بقفزة ضوء ماطرة، حيث احتمال السّقوط في الهاوية كان الأقوى. والهبوط المدوّي للزمن إلى درجة الصفر، هو الأرجح. ما يحاول قوله بقليلٍ من المداورة، أنّها كانت المغامرة الأقسى في حياته، على هذا الصّعيد. وقتَ تمكّنت أنثاه من اجتياز نفق الشّكّ مع آخر دفقة فطنة اكتنزها شحوبها، وبقي هو مسمّراً إلى وجيبه المتلاطم كتمثال. بضعُ ثوانٍ وحشيّة سقط فيها الأفق على وجهه مغشّياً، واندلقت مياه مالحة، جارفةً الأرض تحتهما إلى المجهول. ليطفو فوق سطحها جسدان

العمل الفني: الفنان علي الكفري.



عاشقــان غابا ببعضهما حدّ الامّحاء. لحظات تحوّلَ فيها المـكان إلى أذن عملاقةٍ حادّة الإصغاء، تكاد تلتقط دبيبَ النّمـل. فلم تعد تسمع سوى تكتكات القلبين الواجفيـن، يرقصـ على إيقاعهمـا نبضُ الكـون. صـوت دوران المفتاح فــي القفل، فتّــتَ زجاج اليقظة إلــى شظايا لا نهائيّة. الزّاويــة الحــادّة لانفراجة البــاب، الولوج الواثقُ، غيــر المتوقّع للرّجلِ.كلّ ذلك كان أشبــه بزوابــع شوكيّة نبتــت للتّوفي الحلق غازيةً الجسدَ والرّوح. ليتخثّرَ الهـواء على العتبة وليغـرق الوجود في بحرٍ من اللّزوجــة واللّا معنى. من شقوق الذّاكرة، بدأ تاريخ حافل بالخيانات الخضــراء ينثالُ مرتجفاً على ضفافِ المشهــد .لأوّل مرّة بحياته يؤمــن بالمثل الشعبي «الثالثــة ثابتة»، فقد نجا من كارثتين سابقتين كادتا تقذفان به إلى التهلكة.

المغامــرة الأولى خاضها في لجّة ليلٍ شتويّ يمورُ بالــدّفء والعذوبة. افتداءً، لعلاقة عاصفة مشبعــة بفاكهــة الجسد، دامت سنوات، وانتهتْ ببساطةٍ، لاستنفــاذ طاقة ديمومتها. حين فُتح باب المنزل ليدلفَ «الأخُ» إلى غرفته الخاصّة الأقرب إلى الباب الخارجي، ثمّ إلى المطبخ الذي يلي غرفة أخته، عائداً بعد دقائق ليتفاجأ بحضوره المريب معها. كان يعرفه جيّداً ويواكب بقلقٍ قدومه الكثيف، في أثناء غيابه. وضعيّة جلوسهما المتّزنة، متقابلين ساهمين بحديث لا ينضب أعطــت المشهد مصداقيّة عالية أخرستْ أسئلة الشفــاه، وضعيّة بدتْ متناقضةً حدّ الألم، مع ما كانا عليه منذ قليل. اكتفى «الأخ» بنظرات مرتابة، غلّفها شكٌّ رصين لشيخٍ متدرّبٍ في طور التّلمــذة، وقفــل لائباً إلى صومعته ليستمطــرَ بركات أولياء صالحين زيّنــت عمامــاتُهم حيطان غرفته الشّاحبة. غارقاً في ضباب أوراق صفراء تُطيل بتعاويذها قامة الخلاص المنتظر.

المغامرة الثّانية جاءت تلبيةً لنداءات عشقٍ عتيقٍ استصرخه بحرقةٍ في منتصف ليلٍ صيفيّ حين هربت أنثاه من سجن بيتها الرّيفي إلى المدينة، واستأجرت الملحقَ الأخير لبنايةٍ من طابقين، داعيةً إيّاه إلى وليمة حبٍّ دسمة، علّها تعوّضهما عن قسوة الفراق الطّويل. وما إن أنجز الجسدان غرقهما المُشتهى، وطفا زبدُ شوقهما عالياً، حتى قُرع الباب أسفل البناية. هتفتْ مذعورة أو هكذا خيّل إليه: يا إلهي إنّه أخي، ما العمل؟! لوهلة ظنّ أنّ ثمّة تواطؤاً بينها وبين أخيها ضدّه، فهي هاوية فخاخ كما يعرفها جيّداً، قضت ثلث حياتها مطاردة بأشباح كوابيسها اليانعة، إذ ما الذي يدعوها لاستقدامه بعد كلّ تلك السنين وفي منتصف الليل، ليتشاركا وليمة الحبّ، دون وضع احتمال قدوم أحد ما، وإمساكهما بالجرم المشهود؟! لكنّه لمعرفته بتهوّرها الدّائم الذي كاد يودي بهما مرّات كثيرة إلى الجحيم، استبعد مؤقتاً فكرة التّواطؤ والفخاخ. فهي لا تهاب شيئاً في سبيل هدفها. وصوليّة بامتياز، الغاية لديها تبرّر الوسيلة، دوماً. ما يتذكّره حينها حدّ الهلوسة، هو رؤيته بأمّ العين، لخطوات الزمن المجنونة تتناهبُ درجات السّلّم الحجريّ، متدربكةً مع خطواتٍ قدميه المتسارعة نحو باب الخروج. كان أوّل الواصلين إليه. التقيا عند الباب، زائرين مبهمين في منتصف ليل تمّوزي حارق، ألقى عليه تحيّةً عاجلة، لدرء الشّبهة، وانطلق غائصاً في عباءة الظلام المخيّمة على المدخل، لا يلوي على شيء. لعلّه خمّنه أحد زوّار البيت الأرضي، من يدري؟! هي الحواف نفسها دوماً، الشوك والجمر اللّذان أتقن المشي فوقهما أغلبَ عمره. أمّا الآن وآه منك أيّها الآن! بجرفكَ الشّاهق ينتظرُ زلّة قدمه الوشيكة، فهل من مفرّ؟ الزّاوية الحادّة لانفراجة الباب بدت فارغة الشّدقين، وجاهزة لالتهامه، ربعُ استدارة الرّجلِ البطيئة، الثّواني القليلة المترمّدة على شفاه الوقت، الصّدمة المتشظّية التي أحدثها فحيحُ المفتاح، وذاك الضّباب الصّديق الذي غيّبَ الملامح في قلنسوته، ليخفي الجسدين الملتهبين. كم هو مدينٌ لتلك النّباهة، تزوره كلّ عقد من السّنين مرّةً واحدة وقد شحذتْ حذره، فلم يُقدِمْ على نزع ملابسه. أمّا هي، فجرأتها كانت طاغية، تعرّت حتّى آخر ورقة توت على أغصانها. موعزةً لحدس الأنثى اليَقظ بالغفوة، بعد أن طمأنها تقديره للزمن، وإبعاده لاحتمال ممارسة فعل الحبّ في الغرفة الداخلية، وإلّا لكانت كلّ قوى الأرض عاجزة عن منع وقوعهما في المصيدة التي نصباها طواعيّة لنفسيهما. لأنّ عمق الغرفة الدّاخلية بالنسبة إلى الباب الخارجي، كان سيمنع أذنيهما بالتّأكيد، من سماع صوت دوران المفتاح في القفل. القوى الخيّرة التي منعت اكتمالَ الصّيرورة، متعاطفة معهما، أوقفتْ

الزمن على العتبة، مفسحةً المجال أمام الغزالةُ لتفرّ بأقصى سرعة ممكنة نحو الحمّام، مغلقة إيّاه بضجّة خفيفة.ليقف هو مبهوتاً كالأبله، وقد استطاع بمشقّة التّحكّم بملامحه، والانتصاب مــن جديد بشعر مشعّث وهيئــة من يغالب اليقظة، فبدا كمن يحاول (توضيب) أغطيته. بدوره وقــف الشّقيــقُ صامتاً هنيهة، لا يدري ما يفعل، ثــمّ بادر بإلقاء التّحيّة. وهــذا ما هدّأ من هلع العاشــق قليلاً، لينطلــق بعدها منقطع الأنفاس إلى المغسلة متظاهــراً بغسيل وجهه. بينما هو فــي الحقيقة يحاول منح روحه زمناً أطول لتخرجَ مــن رماديّتها وتستعيد بعض التّوازن. مضى الزّمــن ببطء شديد، وهــو يجرّ قديمه المتثاقلتيــن نحو الشّرفة، حيث جلــس الشّقيقُ منتظراً قدومه. بينما بقيت هي مرتجفةً في مكمنها، فراشة تنتظر احتراقها الوشيك. لم يستعدْ وعيه إلّا بعــد سماعه صوت محدّثه يدعوه - مستغرباً شروده الطويل- لقراءة ما كتبه أحد الجهابذة الطّارئيــن على دنيا السّياسة في الجريدة اليوميّة، بــأنّ الأزمة «خلصت وفشلت» وها نحنُ في الهزيــع الأخيــر قبل قطف ثمار الانتصار على قوى الظلام. هزّ رأســه بطريقة أرادها أن تبدو غامضــة. جلسا متقابليــن. بدا محدّثه، أخاً حليماً وأكثر من طبيعــيّ. بينما تابع هو تنقيبه في ملامحه الحياديّة، متوقعاً انفجاره في أي لحظة، وقد نزع قناع تماسكه الشّفيف. لم يحدث أيّ شيء من ذلك. لكنّ التفاتة مفاجأة إلى الدّاخل أعادت قلقه إلى مربّعه الأوّل، حيث كانت ورقة التّــوت الأخيرة التي غطّــت مثلّث العاشقة، تتلوّى مذعورة على الكرســي. وتكفي ربع استدارة، لرؤيتهــا! لكــنّ خــروجَ صاحبتها، وقــد اطمأنّتْ إلى حديــث الرجلين الــودّي، ماطرة الملامح وإلقاءهــا تحيّة الصّبــاح عليهما، وكأنّ شيئاً لم يكــن، أضفى على المشهــد سورياليّة خاصّة. مضــتْ بكامل الهدوء، حيث ترقدُ ورقــة التوت، وغيّبتها بسرعة في الغطــاء الصوفّي القريب، كمــن يــؤدّي عملاً روتينيّاً مألوفاً. ومع فنجــان القهوة السّاخن الذي قدّمته لــه، غابَ ثانيةً في إغماءتــه، غيــر مصدّق تلــك النّهاية الواقعيّة للمشهــد الكارثيّ. فمنذ دقائــق، كان يتدلّى إلى منتصف بئرها، وفمه يطير من حلمة إلى أخرى، ممرّغاً رأسه بين نهديها الفائرين الصّلبين. أثنى ثانية على نفسه، وثمّة سؤال دفين مازال يؤرّقه: كيف استطاعت تلك السمكة، بثوانٍ قليلة الانزلاق من تحته والتّبخر في عتمتها، كيف؟!

❁ ❁ ❁

جسور ثقافية

تعزم مجلة «جسور ثقافية» على إصدار ملف خاص عن نوم تشومسكي، تعالج فيه المحورين الآتيتين:

• **تشومسكي الألسني**: النحو الألسني والدراسات التداولية، وتأثير نظرياته في علم النفس والسلوك اللغوي.

• **تشومسكي المثقف المناضل**:

- موقفه المعادي حرب فيتنام، والمعادي هيمنة الولايات المتحدة الأميركية على العالم،
- تعاطفه مع فلسطين والفلسطينيين،
- تأييده حركات التحرير الديمقراطية في العالم وتصديه لمالكي ثروات العالم،
- نقد وسائل الإعلام والخطاب المهيمن،
- تأييده شعوب العالم الثالث في العيش الكريم،
- انتقاده الإرهاب الدولي،
- دعوته ضد تخريب المناخ،
- مساندته تحرير الشعوب من الاستعمار التقليدي والمبطّن،
- مقاومته تقييد الرأي وحرية التعبير.

• تدعو هيئة تحرير مجلة **جسور ثقافية** الباحثين الراغبين في المشاركة في هذا الملف الخاص أن يوافوها بأبحاثهم حتى مطلع العام القادم، على بريد المجلة الإلكتروني: syrtranslation@gmail.com

مع الشكر المسبق لتعاونكم

هيئة تحرير مجلة جسور ثقافية

ليس وهماً

(غيمة صيف)

أيمن الحسن

تحـدِّق بي عيون المساء أزهاراً من حجر، وروداً من قطران، فيشتعل دماغي بالأسئلة: «لماذا؟ كيف؟ متى بدأت هذه الحالة؟ وإلى أين سأذهب الآن؟».

نزلت من حافة النقل العام، ثمَّ وقفت أتذكَّر: «يا إلهي، لقد نسيت لماذا جئت إلى هنا!».

أنزعـج كثيراً لما يحدث معـي مقرِّراً أن أدوِّنـه، فأمسك بالقلم، لكنِّني أشـرد: **«القصُّ عالمي المشتهى، حبيبتي الـ تقفز كالغزالة تحت ضوء الوجد متوكئاً على حلم الوصول إليها».**

لا يفارقنـي هاجس الكتابة، تتمشَّى الكلمات من حولي بأثوابها الزاهية: لكلٍّ كلمة ثوب مختلف، أناديهـا تستجيب لي، لكنَّها لا تأتلـف في حبكة سلسة، فأنضِّدها قصَّـة قصيرة مثل العادة. أرى الحوادث أمامي تنتصب شموعاً دون أن أستطيع ضمَّها في شمعدان أنيق، يضاء ببهاء، فمن يقدِّم لي مفاتيح القصَّة أيُّها الأصدقاء؟

- المـرأة فـي قصَّتي هي الحياة، كائن ورقـيٌّ، أكسوه باللحم والعظم، وأضـخُّ له من شراييني دم الحبـر المعتَّـق، أرسم مشاعرها في بهـاء، وأحاسيسها في حنين، لأنَّ عالمـاً بلا امرأة عالم مأفون.

العمل الفني: الفنان مطيع علي.

وأعترف:

- بكلِّ ما أعطي قلمي من وجد، وكلماتي من أسراب ضياء، قريحتي خاوية، ترقب كسرة حبٍّ من امرأة، تفتح نافذة الليل على نهار قادم، حبيبة تزهر كلماتها عصافير، تغرِّد بفرح كلَّما سرنا معاً يداً بيد، تحطُّ على شغاف القلب كفراشة، لترقص على نغمات حروفي بانسجام. صحيح أنَّني لا أتعاطى الكتابة شعراً، لكنَّ القصَّة عندي تقارب الشعر.

من عادتي أن أكتب، وأنا أتمشَّى في أيِّ مكان، لكنَّ نكهة مرارة غريبة في فمي اللحظة، لذلك أمضي إلى مكتبة صديقي حكيم، القريبة من ساحة شمدين، فيعاجلني بالسؤال:

- هل تصالحت مع زوجتك؟

أراها تلوِّح لي بيدها:

- أريد أن أعود إلى البيت فوراً.

توقظني قبلاتها من شرودي عائداً من مكتبة صديقي حكيم الَّذي لم أرتشف معه القهوة منذ زمن، ولا ننام قبل أن نوقظ فجر المحبة الطافحَ في قلبينا مع صياح الديكة زوجين متصالحين.

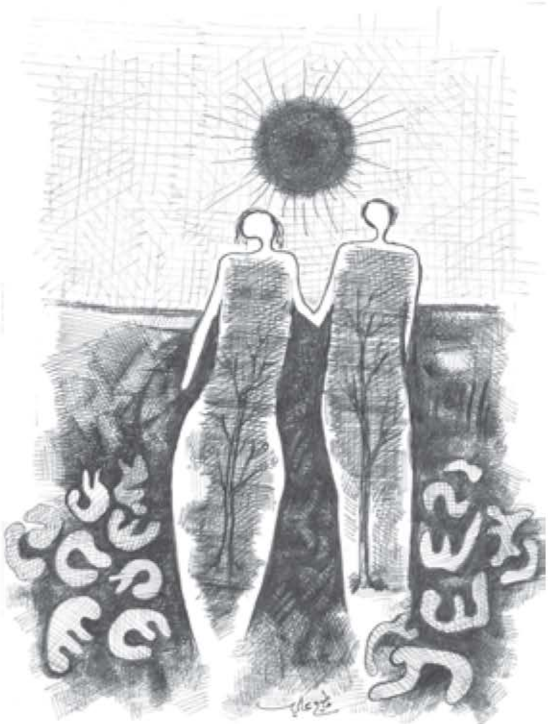
شاهدني حكيم ارتبكتُ، فتركني وحدي ليحضِّر القهوة:

زوجتي الغالية، أعرف أنَّك زوجة مثقلة بأعباء المنزل مع متطلبات مهنة التدريس، ومستلزمات الأسرة على مدار الثانية، وليس الساعة، مثلما يقال. لكن مِن غيركِ قصَّتي كلام ناقص، مرتبكة جملي الفعليَّة والاسميَّة، تسرد على قلق كما السير على صفيح ملتهب. وفي مهبِّ الكتابة طالما هتف قلبي باسمك، فابترد بشال من مطر...

مازلت حبيبتي، ويهاجر الخصام البغيض نحو البعيد، يحضر الحبُّ غيمة تنتظر الهطول، وأنا ألاحق الاكتمال نحو نضج أكبر غداً.

- فعلاً أنا أنتظر مصالحتها بفارغ الصبر يا حكيم. لم أستطع نسيانها على الرغم من طول البعاد. كنَّا نتخاصم كثيراً، لكنَّني أحبُّها، كلَّما خطرت في ذهني ينتابني الفرح حتَّى أقابلها، فأشعر بالسعادة، تملأ كياني: **«تنامين بين جفوني طوال الوقت، فإذا صحوت هرول قلبي نحوك: زواريب ضيِّقة للخصام، شارع واسع للمصالحة يا حبيبتي!».**

أمتطي صهوة الحياة في بهجة:



ولا أنسى حديث جدِّي، كان يكرِّر أمامي قولته الشهيرة:

- الحياة طائر، جناحاه المرأة والرجل، يا بني.

لذا رجعت إلى غرفتي البائسة وجدت أوراقي مبعثرة كيفما اتفق، شاحبةً من طول الغياب. فجلست سريعاً إلى طاولتي، وقلت أخطُّ كتاباً إلى زوجتي الغالية:

- صدِّقيني: في كلِّ بيت ما يشبه حالة الحرب الَّتي نعيشها، فلا تبتئسي عزيزتي.

فجأة إذا ذاكرتي تنتظرني معبأة بزنابق الحكايات...

ما غابت عن ذهني مواعيد حديقة السمكة في منطقة التجارة/ حيِّ القصور: تأتين، على شعرك شريطة حمراء. إلى جواري على المقعد الأخضر، وسط الحديقة الزاهية في خيلاء، تجلسين.

- جوعانة؟

فأجري مسرعاً إلى بائع الشاورما عند الساحة: «سندويشتان مع عصير».

- أحبُّ عصير التفاح.

- تأمرين على رأسي يا عمري.

وأنحني بخضوع مثل ممثِّل مسرحيٍّ محترف، فتضحكين من قلبك، وآخذ قبلة خاطفة. نثرثر طويلاً، ونحن نتجوَّل في شوارع باب توما، أمسك يدك، فأحسُّ بنشوة اللمسة الحنون، وأتساءل:

- هل حلّقتُ يومذاك، فراح الناس ينظرون إلى السماء باندهاش؟ أم هي الطائرة الورقيّة تتسلق كتف السماء باقتدار، يحرّكها الطفل السمين في أقصى الحديقة؟

بعد حديث مستفيض عن الآمال الكبيرة ما بيننا تزمعين على إيصالك إلى كراجات العباسيين. ويُشاهد على الملأ، وأنت تصافحينني للركوب بحافلة الرحيبة، عناق أصابعنا، كأنّها لا تريد أن تفارق بعضها!

تغادرين، وأتسكّع وحدي شريداً كالمجنون، لكنّ حمامة بيضاء تلاحقني، أشعر أنّها تحدّثني عنك فأنصتُ:

- تقرئك السلامَ. وصلت إلى بيتها، ونامت.

لم تكن توجد (موبايلات) حتّى أطمئن عليك مباشرة أيامذاك.

وأنا أعود أدراجي إلى بيتي أرى خطواتنا منقوشة على حجارة الأرصفة حيث مشينا قبل قليل، وتلك شجرة التوت عادت ترفع أغصانها نحو الأعلى بعدما أرختها كي أقطف لك منها بضع توتات ناضجات. تتذكّرين كم كان طعمها لذيذاً!

- انظري كأنّ الشجرة تضحك، وأنا أطعمك بيدي اليمنى، فتتلوّن شفتاك بلون النبيذ، كأنّهما شاربان.

ترحلين، فتذبل نشوتي بقايا صدى، ورجع أنين. أتأبّط صمتي، وأغادر الحياة، فلا تستغربي ألاّ تغرّد العصافير فوق غصونها الآن.

ذات ليلة بعدما سافرت إلى مدينتك الرحيبة المسمَّاة، لكرم أهلها، الرُّحيبة استغربت أن يظهر البدر ليلاً، فأخبرني أنّه جاء يحمل أشواقي إليك، وأنت ساهرة على سطح بيتكم هناك في الحارة الجديدة.

يا انتصار:

أزرع النساء كالأشجار في غابة قصصي. لكنَّك المرأة الوحيدة فيها، كأنَّ زمان القصِّ زمانك وحدكِ، لذا أوصيك أن تقرئي قصصي لتدخلي الجنَّة:

(١٩٩٦ تزوجنا، والآن لدينا شابان رائعان، وصبيَّة مثل القمر، لقد نضجت أمُّ غدي، كما وردة فوَّاحة، واكتملت أحلى السيِّدات. وكم صار من الصعب تصوُّر أنَّ هذه السيِّدة الَّتي تفعل

أشيــاء كثيرة، ليست من اختصاصها النسويِّ، هي الفتاة الرقيقة الناعمة الَّتي حملتها كي لا تبتل «سكربينتهــا» الجديدة عندما زارتنا في حيِّ المشتل. لقد تصلَّب عودها، وبان في قسمات وجهها الكثيــر من العذوبة الهادئة مع حضور قلــق نفسي، وبعض الضجر وسط أُمورنا المعيشيَّة الصعبة حاليَّاً.

لقد أخبرتها منذ ذلك اليوم ١٤/٥/١٩٩٦ أنَّ هدفي إسعادها مهما كان الثمن).

نسيت ما خرجت لأجله من غرفتي العاتمة أشعر أنَّني أمشي على أشلاء روحي. لذا أُمضي إلى محــل بيع الزهور، أشتري باقة ورود حمراء، أُقدِّم حبيِّ واعتذاري للمرَّة الألف، ترحِّب بي زوجتي في ابتسامة من ألق، تلوِّح كعادتها، وهي تغريني بالدخول إلى البيت:

- سأسكب على شفتيك عصارة شهدي لتكتب قصصاً أجمل.

هــا نحن بعــد الزواج نتابــع مسلسلنا المفضَّل «سيرة حــبّ» نجلس متلاصقيــن نتابع الحوادث الرومانسية في انسجام. تحضرين عدَّة المتَّة لنشربها معاً، بينما فيروز تحكي قصَّتنا:

«يا أنا

أنا وياكِ

صرنا القصص الغريبة!»

- أحبُّــك يــا شريكــة عمــري، تظلِّين أبــداً يمامــة حبٍّ، تحــوم على ضفــاف قلبــي، تملئينه بالسعــادة حتَّى وأنت حردانــة غائبة. فلا تتركيني وحيداً يا المــرأة الأجمل في حياتي، ودعيك مــن قصصي، فلن تكون ضرَّتك بل ابنتك النجيبــة، تحبلين بها، وأنتِ تلهمينني أن أكتب أحلى عندما تسألينني:

- ماذا تكتب هذه الأيام؟

- لا شيء.

- ما عرفتك كسولاً، فمتى سأقرأ لك قصَّة جديدة؟

أنتبه لذاتي: «**فعلاً منذ مدَّة طويلة لم أكتب**». لذا أتحدَّى نفسي، وأجيبك:

- غداً تقرئين جديدي.

وبالفعل أفاجئك بقصَّتي المسوَّدة منذ زمن، لكن بلا إنجاز أخير.

- ما أحلاها!

تقول فينوس:

- بابا أريد أن أكتب مثلك.

أنوِّه: «من تحبُّني توحي لي بالأجمل، هكذا هو الحبُّ عطاء.»

تبتسم نصورتي في ضياء، فتلوِّح لي القصَّة بجدائلها النبيذيَّة.

- ملهمتــي لأكــن ما أكونــه ما دمت زوجتــي الرائعة تنتظرينني، لتعيدي ترتيــب نبضاتي على المستوى المطلوب، فليكن خصامنا غيمة صيف، ولنعد إلى بعضنا بحبٍّ أكبر!

بغتــة تفلت خيوط الحوادث مــن بين أصابعي، فأهجس: «لا يكتمل الفــن إلاّ بالخيال، ولا يكتمل الخيــال إلاَّ بالمــرأة، لتغــدو الهــدف المرتجــى، والطمــوح الأبعــد، حيــث تكــون أراهــا وســط عناقيد النجوم تلمع كلَّما نبض قلبي كلمات تتسـلق روحي وصـولاً إلى أصـابعي المدموغة بالحبر، فالورقة البيضاء».

❁ ❁ ❁

الشرفة

أيمن زيدان

«كل أوردة مدينتـي مليئة بالحب... دروبها شرايين تقودك إلى قلب مفعم بالحياة... يومك في دمشـق مليء بالأحبة والأصدقاء وقبل كل هذا غدك آمن.. في دمشق لا تعرف الخوف من الزمن الآتي... في دمشق تتعلم كيف تنسج من خيوط الوجع عباءات من البهجة والفرح.. تسير في أزقة مغمّسة ببدايات الحياة.. تعانقك النوافذ والأغاني وتلفّك حكايات الأجداد.. كل مرارات الهزائم وسنابك الانتصارات تتوارى وراء غد مشبع بالأمل.

لا أخفيكـم أنني كنت أحيانـاً أحسّ ببعض الضجر والتذمر لكنني بعـد أن أُرغمت على الرحيل منهـا أقولهـا اليوم بملء فمي... كم ظَلمتُ مدينتي يوماً حين كنت أتذمر وأشكو... صدق من قال لا نعرف قيمة الأوطان إلا حين نغادرها»...

تابع حواره اليومي بالقدر نفسه من الحماسة وإن شابه في الآونة الأخيرة فيض زائد من الشوق والتعـب.. «اسألـوا كل من زار بلدي كم هي رائعة...؟ كم كانت قادرة على أن تهب الحب لزوارها» ثم أعاد عرض كل شريط ذكرياته وصور بيته وعائلته وبعضاً من صور الدروب والساحات..

«ولـدتُ في حي دمشقي عريـق.. وبعثرتُ سنين طفولتي على سلالم بيتنا الرحب... ولكن سرعات مـا حملتني أيام الشباب إلى صخب المدينة وسحر زحمتها» ثـم استلَّ صورة شقته الجديدة.. «هذا

العمل الفني: الفنان ناصر زين الدين.



البيت المتواضع شيدته حجراً حجراً... جمعت تحويشة العمر لأبني عشّاً تسكنه أيامي المتبقية».

ثم في ليلة حالكة السواد بدأت حمّامات الدم تغمر مدينتي... لم تعد الحياة آمنة... تفجّرت براكين الجهل والحقد والوجع وخَسِرت المدينة سكينتها وأمنها وبدأت رحلتها الدامية مع الموت... في تلك الليلة المشؤومة سَرَقت بعض الخفافيش سكينة شيخوختي... حملوني إلى مكان لا يبعد كثيراً عن بيتي لكنَّ صوتي لم يسمعه أحد... لم أعد إلا بعد أن دفعت كل ما أملك... كانت المرة الأولى التي عرفت فيها كم أساوي.. «قال جملته الأخيرة ونفث دخان سيجارته بشفتين مرتجفتين» ما أقسى تلك اللحظة... في البداية كان الموت مبعث رعب وخوف شديدين ولكنه بعد ذلك صار شيئاً عادياً يشبه الحياة... عندما تتساوى الحياة مع الموت في وطن ما، يصبح الرحيل ولادة جديدة... رحلت ولملمت بقايا ذكرياتي وأشيائي الصغيرة وجئت إلى هنا... لكنها لم تكن ولادة بل موتاً آخر لا يقل بشاعة عن الموت هناك...

أن تموت أو تموت ذلك هو المصير «اغتصب بقايا ابتسامة وأوقف ثرثرته اليومية واستسلم للحظة شرود ساهمة».

كان الأصدقاء الجدد يتابعون نشيج حنينه بتعاطف لافت ويتغزلون بين الحين والآخر بسحر سفرته الدمشقية.

وحين أشرفت السهرة على نهايتها وبدأ الفجر يرمي بضوئه الخجول غادر أصدقاؤه الجدد بتثاقل شديد مخلّفين وراءهم سحب سجائرهم وصدى عبارات الشكر والامتنان.

ومثل كل ليالي غربته القسرية لملم ثروة ذكرياته وأعادها إلى ركنها المألوف ثم أطفأ النور وجلس على شرفة بيته الغريب واستسلم للبكاء..

❁ ❁ ❁

رجع الغياب

إيناس عزام

وإذا كان لا بدَّ أن نلتقي لابدَّ لمدينةٍ كرجعِ الغياب....

لابدَّ من أبيض كرائحةِ الحليب حتى يغري صغارَ الولادةِ بالحياة...

كلما طفقَ على بالي حضورِك.. ابتلَّت أشرعةُ هذا المساءِ بالرسائلِ الطارئةِ على بريدِ الحزن..

كم مدينةً عليَّ أن أتقمصَ حتى أزورِك يا مدينةَ القلب الخالدةِ خارجَ حدودِ وخرائطِ المكان.

عندما أحبكِ أبسط الأشياءِ تغريني، طالع الحظ والأفلاك، طلاء الأظفارِ، وتسريحات الشعر. في هذه أنتِ، وفي هذا حزنٌ يشبهُ الغائبَ في عينيكِ لحظةَ شرود.. كم أحبكِ..كم أشتهي حضوركِ المطعمِ بالفوضى..

مدنكِ الغارقةِ في العواصفِ تعدني بنبيذ لشتاءِ وحدتي الطويل..

مطرٌ على نوافذِ الروح.. الروحُ معلقةٌ على مشجبِ الانتظارِ كمعطف، ما زال مؤشر مذياعكِ الصغير يراقصُ أوردتي.. أشعلُ الموقدةَ. أتقفصُ من البردِ، ومع هذا أخلعُ كل الأشياءِ لأرتديكِ.

العمل الفني: الفنان ناصر زين الدين.

مـن قالَ إن نهايتي ستكون هنا في مدينةٍ لا تشبهكِ ولا تغري قطة أصلاً باللجوءِ إليها.. فالبحرُ كان آخرَ اهتماماتي. ملحهُ يذكرني بمزاجكِ الصعب المراس. لا شيءَ يشبهُ مزاجكِ...

لمَ البحر إذن؟ يجلسُ توفيق.

أكانَ لهذا السؤال وقع الجمرِ في ذاتكَ حتى تطردَ تلكَ الصحافية؟ لماذا يا توفيق لماذا..؟؟ أيُّ جنونٍ اعتراكَ ألم تستطعْ أن تقولَ لها: سطوةُ البحرِ، الرغبةُ في الاستجمامِ مثلاً....

هههههـه اضحكْ يـا توفيق اضحكْ.. فما زالَ الفقرُ يتسكعُ بـكَ على الرغم من كل الثرواتِ التـي جنيتهـا. أكنتَ تستطيعُ أن تقـولَ: استجمام وأنتَ مـا زلتَ تتسولُ لقمـةَ الحبِ من ثغرها المتشدقِ بالعلكة؟ أكنتَ ستقنعها بموجوداتكَ في هذه الغرفة بأنَّك تستجم..

سريـرٌ خشبـيٌّ، سجادةٌ مخرمـةٌ لكثرةِ ما وقعَ عليهـا جمرُ نرجيلتكَ الحمقـاء، موقدةٌ رقيقةُ المعـدنِ صدئة في بعضِ الجهات، كرسيكَ الهزاز ومذياعك الأحمر القديم بحجمِ الكف الذي سيصبحُ عادتكَ الأولى عند الاستيقاظ والأخيرة قبل النوم أن تديرَ مؤشره علها في هذه اللحظة تستمـعُ إلـى ما تسمع. كنتَ تظنُّ أن لقاءك بها سيكونُ قريباً لذا كنتَ تؤرخُ موعدَ كل أغنيةٍ حتى إذا التقيتهـا أو اتصلـتَ بهـا تثبتُ لها أنكَ في تلـكَ اللحظةِ كنتَ تستحضرهـا وإلى اليوم وبعد مضـيِّ عشريـنَ عاماً ما زلتَ تظـن أن موعدَ لقائكما قريب.لم يتغيرْ شـيء حبيبتي ما زلتُ كما غادرتنـي إلا أني لم أعدْ أؤرخُ موعدَ الأغاني بل صـرتُ مؤرخاً لأزماتِ الوطن. في جعبتي أربعة مؤلفـاتٍ وخمسونَ جائزة كلها تتحـدثُ عنكِ. تسلقتُ على ظهركِ عرشَ الأدبِ والثروة. مئاتُ الأمسياتِ والانتصارات وما زلتِ هزيمتي الكبرى..

لـمَ البحرُ؟ يعود توفيـق لهستريا السؤال، يديرُ مؤشرَ المذياعِ ويرقصُ زوربا، يتعرى حتى من سراويله. نقطةُ ماءٍ واحدة ستعيدُ للمكانِ ثباتهُ بعدَ دوران الجنون، يحضرُ صحناً وقطعةَ قماش يعاينُ مكانَ الدلفةِ ويستمتعُ بموسيقا التوترِ لامتلاءِ الصحن. يعيدُ تفاصيلَ الحوارِ الذي أجرتهُ الصحافيـة اليـوم لم يكن حواره الأول أو الأهم...؟ وهو من اعتـادَ الظهورَ في كبرى المحطاتِ والصحفِ كيف لصحافيةٍ مبتدئة في صحيفةٍ محلية أن تثيرَ هذه الزوبعةَ من الجنون، ومن أين لها هذا الحدس لتسألني عن علاقتي بالمدن...؟ كدتُ أتطايرُ حمماً من انفجارِ السؤال وقد مرَّ شريطُ الذاكرةِ المعقودِ بك..



من كان سيوقظُ حمصَ من غفوتها..

لولا مطرِك ذاك اليوم، من كان سيوقظني أنا؟ كلما لاحَ وجهك الماطرُ أرتديه لأحتضنَ بردكِ، أتدثرُ لأسترَ عورةَ الجسدِ المهزوم وأمارسَ عادتي تحت أغطية الشتاء. كم احتاجكِ الآن؟ آلافُ الأسئلة تطحنُ رغبتي.. كم أصبحَ وزنكِ؟ ألا يزالُ شعركِ أسودَ أم أن ألوانَ الطيورِ صبغتكِ بريشها؟ ووجهكِ المدور على حوافِ كفي حيثُ أعلن موتي المشتهى ما زال يمخرُ ذاكرتي.. حتى القططُ تذكرني بك مواؤها والتصاقها بي يعيدُ لي أبوةً لم أمارسها إلا معكِ.

السويداءُ اليوم حمص الأمس وجومٌ يعبرُ شوارعها ولا اسمَ لكِ على لائحةِ الموت، أنتِ لن تموتي، كل المدن لا تموت وأنت لا شيءَ يشبهكِ سوى المدن، ما زلتِ خارطةَ الحبِ.. كلما اشتقتك رحلت حسكتي إلى هزيمةٍ أخرى حتى أنتصرَ مغمضَ العينين بوحدتي وانفرادي مع ذاكرتي حيث ستغدو كل هزائمنا انتصارات وربما مؤلفات، من كان يدري؟!

منذُ الرحيلِ الأول وأنا استنبتكِ، أتناسلُ معكِ أرضاً أو على السرير، أعمدكِ وأركعُ تحت قدميكِ، يتهمونني بالانفصال وما دروا أن مع كل رحيل تكونين لي أكثر.

في دمشقَ كنتُ لا أستطيعُ تحملَ غيابكِ وحدي فكنتُ أعمدُ للإقامةِ في بيوتها القديمة مع نزلاء يتقاسمون معي حتى الذكرى.

سافرتُ بكِ خارجاً، حملتك جبالاً وغابات وصحارى، ووحده البحر كان خارجَ اهتماماتي، خارج متعتي، وربما كان شهوتي المؤجلة ووجعي الأخير.

فـي كلِ مدينـةٍ أزورهـا أشتري لـك زوجاً مـن الأحذيـةِ. وحده البحـر من يغريـكَ بالمشي حافياً...

آه يا توفيق آه، كنت تنتقي المدنَ تبعاً لأحذيتها ولهذا خرجَ البحرُ من اهتماماتك. كان يجب أن تسألـك لمَ الأحذية يا توفيـق وليس البحر؟ عن الرقصِ لا عن الأدب؟ عن الشتاءِ في العمر لا عن الربيع؟ عن أشرفِ الراقصات؟

وأنـتِ ماذا صنعتِ بخصـركِ النحيل وغنج الكتف؟ أمازلتِ تجيدين التـواءَ أحرفِ الأبجديةِ لتنصبي التواءَ العرب؟

هـان الوقتُ عليـكَ الآنَ يا توفيق. لو عادت تلك الصحافية غداً فلتحدثها عن قهرِ القلب. عن رجع الصوتِ في نداءات لا تنده إلا اسمها.... سعاااد يا وجع النايات يا وجعي..

أصبحـتُ كهلاً يا سعاد ولم تأتِ. ضاعَ العمرُ تحت وطأةِ الرحيل ولم أجدكِ. كم مدن مسحتُ عنهـا عرقَ الانتظارِ وفـي كل المشاويرِ أتنفسُ خيبة الصدفِ بالعثـورِ عليكِ فأكتب بك فصلاً، وفي نهاية أسفاري أخرج محمولاً على نعشي بين جلدتَي كتاب...

رميـت خلفـي كل ثرواتي التي أمضيـتُ العمرَ أجمعها وجئت بحـراً لا يشبهنا سوى بملحه. صـرتُ أشبهـكِ، ركلتُ كل الأمـوال بقدمي، ورقصتُ عاريـاً أجمعُ كرامتي. مـا عادَ الفحشُ يغرينـي ولا سيجارُ المظاهر ولا حفلاتُ توقيعِ الكتب والجوائزِ تعنيني. وحدهُ وجهكِ الأسمر وخـالٌ على عنقِ الصفـاءِ يبعثرني. كلما نهضـت تفاصيل هواكِ المتغلغلةُ بـي نهضَ الرحيلُ علـى أقدام من خشب.. ألملـمُ ذاتي، أرتدي ما خف من الثيابِ وأخـرج لا شيء يغري حمامَ الصـدرِ بالطيران.. هو وقت القططِ لا أكثر. مـاذا لو اشتريتُ لكِ شيئاً غيرَ الأحذيةِ لكن ما الـذي سيغري صغيرةً مثلكِ بالنـزوحِ إلى علبةِ سردين وقد اعتادت احتـلال موائدَ الكبرياءِ بالشوكات والسكاكين؟

فـي المدينةِ الغافيةِ علـى كتفِ البحر لا شيء أكثر من ثيابِ السباحـةِ ستغريكَ ألوانها بأنثى أشدُ ما تتمناه أن تتقاسمَ معك الماء.

الشـارعُ المرصـوفُ وسـطَ المدينةِ يغريكَ بالمشـي. مطرٌ يبللُ حتى سقـفَ الفمِ، تخرجُ من جيبكَ نقوداً حملتها على عجلٍ تريدُ أن تشتري لها ثيابَ سباحةٍ لصيفٍ مقبل..

يداك المبللتان وقميصكَ الأبيض الرقيق الذي التصقَ بكَ كبرقع سيجعلُ لجنونكَ نكهةَ أنك اليوم أنت وأنكَ ما رحلتَ يوماً إلا لتراها... وأن كل نظريات المَنطقِ ستسقطُ أمامَ نظريةِ المدن...أم أنك نسيت حين سألتها في آخرِ رسالةٍ بينكما هل سنلتقي يوماً؟ حينها قالت بحدس راقصةٍ تعرفُ موطنِ القدمِ وتتقنُ مسافةَ الدائرة ((طالما هناك مدن لا بد أن نلتقي..))

الشيءُ الوحيد الذي نسِيته أن الراقصةَ وإن كانت لا ترقص إلا بكعبٍ مرتفع كي تزيح نظر معجبيها من مواطنِ فتنتها إلى أسفلِ أرضها لن تكفَّ عن شراءِ ثيابٍ داخليةٍ مميزة..

احتضنها الآن يا توفيق... وقل للبحر طوبى، إذ إنه راقصَ مدينةً كرجعِ الغياب.

❁ ❁ ❁

غانم «الأوبيني»

بديع صقور

في تلك المدينة التي كان اسمها «كوكيمبو» التقينا، أول سؤال وجهه إليَّ:

- قادم من البلاد، كيف هي البلاد؟

وسقطت من عينيه دمعة.

- البلاد جميلة يا عم.

- اسمي غانم الأوبيني، تعرف «أوبين»؟

- أوبين؟

- نعــم أوبيــن.. «أوبين» الروح التي تنبض في القلب... مــن لا يعرف دروب «أوبين» المحفورة في الجسد.. تتعرج فيه تعرج الشرايين.

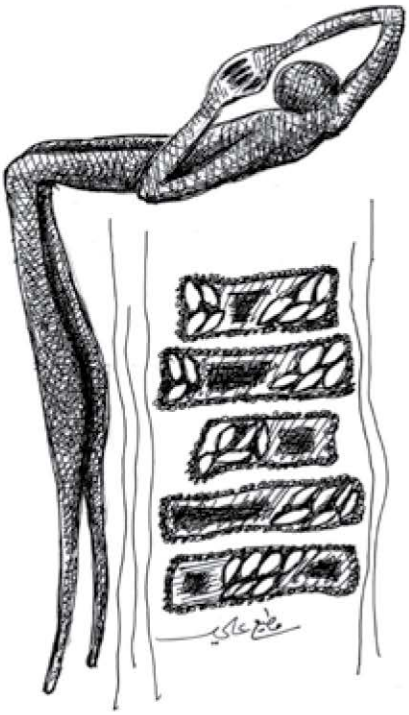
- منذ متى أتيت إلى هذه البلاد يا عم غانم؟

- منذ عشرات السنين، قبل أن تولد، بعد نهاية الحرب الأولى.. هل تتذكر الحرب الأولى؟

- قرأت عنها.

- الذي يقرأ ليس كالذي يعيش.. عشتها يوماً بيوم، لعن الله الحرب.. فقد هربتُ.

العمل الفني: الفنان مطيع علي.



- مِنَ الحرب؟

- مِنَ الحرب والجوع.

- لماذا هربت؟

- قلت لك الذي يعيش غير الذي يقرأ.. من منا لا يهرب من الموت؟

- الأرض؟

- تفرح بعودتنا إليها، لأنها بذلك الفرح تقضي على الخيلاء والحقد والشراسة والجشع فينا، ولو إلى حين.. والذي يقرأ ليس كالذي يعيش... علمتني الريح أن الأرض تبكي حين يهجرها الأبناء.. كلنا أبناء الأرض أليس كذلك؟

حين يسقط الفارس عن ظهر حصانه، من يتلقاه بين ذراعيه؟

- الأرض.

- الأرض أمّنا.

- لكننا جاحدون.

- ليس الذي يقرأ كالذي يعيش، تعلمت يا ولدي عندما هبطت «كوكيمبو»، وكنت آخر الهابطين، أنني وحيد فيها، جلست فوق الصخور، تأملت الأمواج وهي تصفع جبين سفينتنا التي حملتنا طويلاً ما بين الزرقة والزرقة.. كانت الزرقة في البداية لا متناهية.. الزرقة الأولى انتهت.. الزرقة التي فوقنا.. تأملها جيداً؟ ترى شيئاً؟ زرقة ونجوم قد تفوق شجر الأرض.

- تفوق شجر الأرض؟

- ربما كانت متساوية، غير أن الحرائق والحروب، وجور الإنسان حققا للنجوم سبقاً على الشجر..

- الشجر جميل.

- والنجـوم جميلة هــي الأخرى، كنت أتأملها وقت تضيق الأرض، ويشتعل الحنين في القلب إلى الوطن، وراء قضبـان هذه البلاد البعيدة.. انتظرتك يا قطار السفـر.. مشتتاً تحت شجر السنين، غربـة ما بيـن البحر والوطـن.. اشتقت إلى تلـك المواقد... إلـى الحجارة الزرقـاء بين شروخك المجعـدة يـا «أوبين»، متى أعود لأمرّغ وجهـي بعشب الطفولة الذي كان قد نبـت على السفوح ذات يوم؟

- السفوح زوارق أبناء الجبال.

- قـرب المرافـئ، وكلما اقتربت سفينة.. أو أبحرت سفينة، أتلهـف إلى معرفة وجوه القادمين.. كنت أشمُّ رائحة «أوبين» على حقائب السفر..

الذي يعيش ليس كالذي يقرأ..

- فـي محطـات الانتظـار يصير المسافـر حقيبة من الهمـوم والأحلام.. كنت أقـف بانتظار أن تحملنــي السفن إلــى حقول صدرها المغطاة بالندى، ورائحة البطـم المنتشر على الهضاب.. كنت أبحث عن مقعد صغير يحملني إليها..

- لماذا تأخرت؟

- في الزرقة نضطرب، نستعد دائماً لمواجهة القروش.. وبأيدينا المجاذيف.. نصحو معلقين ما بيـن الزرقة والزرقة.. نطارد الأحلام التي تصير طيـوراً بحرية هائمة، تبحث عن شاطئ أمان، أو عن جزيرة صغيرة تحطُّ عليها..

وتمتـد الزرقـة، وتمتد.. تموت فينا الأحلام، ويطبق الليل، بعد أن تذوب الشمس عند خط الزرقة الأخيـر، المشبع بحمرة قانية، فتختفي الطيور، ويبـدأ نشيج الموج الأبدي يصعد... تطبق الظلمة، ولا شـيء، سوى حفنة من النجـوم والشهب التي تندفع متقاطعة بين وقـت وآخر.. الشهب تتصارع كالبشر، كلٌّ يرغب في قتل الآخر.. لا يسمح بالبقاء لغيره.

- من قال لك إن الشهب كالبشر في حالة قتال دائم؟

- الــذي يعيش ليس كالذي يقرأ.. هل تعلم أن البحر في الليل أشد حزناً منه في النهار؟ في الليل يفتح البحر دفاتره، ويقرأ على ضوء النجوم، كل ليلة يطالع أسماء العصافير التي ماتت على سفوح الخنادق..

- وبعدها؟

- يطوي صفحات دفتره، ويسند ظهره إلى النجوم، ثم يصغي إلى غنائها الجميل الذي يبعث في روحه حزناً وشجواً، إلى أن يأفل القمر.

ويرفع غانم الأوبيني رأسه.. يتطلع إلى البحر..

كل مساء يعود إلى المرفأ، يجلس فوق صخرة ناتئة... أصبحا صديقين منذ سني الوصول.

صار غانم الأوبيني عجوزاً.

ظلت الصخرة الناتئة كما هي.

غانم الأوبيني يحصي عدد السفن القادمة.. عدد السفن المبحرة.. آلاف الحقائب تحمّلُ وتنزَّلُ.. وعشرات العيون تفتش جوفها بحذر وترقب، بحثاً عن الهدايا والقنابل والمخدرات والجواهر، يحملها العشاق والقتلة والمغامرون، والمهربون.

ومئات العيون تبحث بشوق عن وجوه أحبة قادمين. وغانم الأوبيني ما زال فوق صخرته الناتئة... وراء قضبان ذلك الشفق، يتذكر مواقد «أوبين» ورعاتها وتنانيرها، يتوهج وردة سفر فوق سياج المحيط..

أفاق على صوت الخادمة:

- «سنيور خوسيه» جاهز من فضلك وتوهجت وردة السفر.. أضرم الشفق ناره على زجاج النوافذ، ابتسم غانم الأوبيني، وهبط الليل، غمر المكان برائحة الوطن البعيد.

❁ ❁ ❁

دم اللقلق

بشار البطرس

- «دم اللقلق يا مولاي!!

حتى كبير عرّافي الملك رأسه بثقة زائدة، وفتح كبير أطبائه فمه على منتهاه!

- «ومن أين لنا بلقلق نسفح دمه؟»

- اللقلق طائر مهاجر يا مولاي، يَعبُر بلادنا طلباً للدفء جنوباً. لا يغريه سوى مظهر بهي لأنثى ثَيِّب في أول أيام قمرها..

- «ومن أين نأتي بهذه الأنثى؟»

- «مولاي.. كي يظل سرّك عصياً، فإني- بعد إذن جلالتكم- أقترح زوجكم، أفضل النساء، على تقدير الحاجة!».

غضب الملك قليلاً.. أَمَرَ العراف والطبيب بالانصراف، وانصرف بتفكيره..

❀❀❀

«دم اللقلق.. سيجعلكِ أماً، ترثين المملكة بولدك. ساعديني على تخليد نفسك ونفسي. لستِ عاقراً، وإن كنتُ.. سأشفى، عليك كتمان سرّك. سأرتب لك كل شيء بحذر وسرية كاملين..».

العمل الفني: الفنان مطيع علي.



ذرف الملك دمعة على وجنة زوجته ونام..

❁❁❁

«دم اللقلق يا مولاتي؟! إنه دواء لداء عجز الذكور، فليس بك من شيء يمنعك الإنجاب، حتى لو مسحتِ جسدكِ بقرمزيته.. اللقلق طائر حنون، له عينان في رأسه، وعين في قلبه، انظري إلى عينه الثالثة، ائسريه بها، فهو رؤوم جميل، يرى عن بعد ما لا تراه الصقور، كوني جميلة معه، لا تشحّي عليه، إن طلب قطرات دمك، أعطها، قد توفّرُ عليك دموع امرأة لن تصير أماً. لكن حذار أن تكون أنثى، عليك بلقلقٍ ذكرٍ قوي، دمه أقدر على شفاء مليكنا. لك التوفيق، حيضك يبدأ عند اكتمال القمر بدراً».

❁❁❁

بُنيت للملكة استراحة من حجر أحمر، فوق تلة تطل على عاصمة المملكة، عالية مكشوفة للريح من الجهات كلها. على سطح المخدع، زُيّن سرير خشب الصندل بالشموع الطويلة، وجرى الماء رقراقاً حوله. نُصبت غلالة من قماش مخرّم فوق أذرع السرير. هنا، قضت الملكة ليلتها الأولى، لا ترافقها سوى نجوم برّاقة، وبدر تلده السماء من دون استعجال.

❁❁❁

حوّمت اللقالق في السماء.

يتعرّج عمود دخان الشموع فيصل إلى عيونها. يتخلّف بعضها عن الطيران مستطلعاً اللوحة. يهمّ زعيمها بالتجاهل، ينظر إلى تحت بعد فضول، يخفض الجناح الأيسر ويدور. من تحت، تنقشع الغلالة عن جسد نصفه عار.

يحني رأسه، يلم جناحيه، يغطس في رائحة الشمع، يقترب..

بـدلال العذارى، يباعد البياض ساقيـه. تستفزّ لغة التمايل على وسائـد الحرير، أقصى ريشة في جناحي اللقلق، ينخفض، يتبعه قطيعه دونما استنكار، يحطّ على أفاريز السطح، تنطفئ بعض الشموع.

تفـكّ الملكة صدارها. الهواء طريّ، وبهيّ ذكر القطيع. يدفع الضوء عيون اللقلق بين النهدين، تزاوج العينان جمال ما يرى وما يحيط، فتسكر العين الثالثة. يقترب مصفقاً بجناحين مرتجفين، تتلوه اللقالق حاجبة بشيء من الخفر ضوء الشموع.

يواجهها اللقلـق بقفاه، يمسّـد دفءُ جسده نهديها مباعـداً ساقيه الطويلتين، فـارداً جناحيه يغطيـان السرير، يختال للأسفل ساحبـاً موجة ظلّه. يسكن طاوياً رقبته. يغمس منقاره بما يزيده احمـراراً على احمرار، يرتجف، فترتجف ذراعا عروس تلمّان الحيطة تحت جناحيه، تدغدغان ريشه المنثور، يقلصّ خوفه، يتكوّر، فتزداد الذراعان تكاسلاً فوق ظهره.

تتقافز إناث اللقالق تحت ذكورها. ليست في طقس تزاوجها!!!

تضـم الملكة ساقيها على لزوجتها الحـارة، ينفر رأس اللقلق المختبئ. لا يزال. هناك، ينفض ريشـه، يستدير، يواجه الملكة بعينين نائمتين، وعين تائهـة، يرخي جناحيه. تكوّر الملكة ساقيها باتجاه البطن، يحاول ستر ابتراد عرقها، هو الأسود، فتكاد لا تُرى في انطفاء أغلب الشموع.

تعانقه ما استطاعت، ضاغطة بطنه إلى بطنها، فتعود ذراعاها بالريش وخدر اللذّة.

ينتهز اللقلق أنينها وإغماضة عينيها، ويطير مطفئاً آخر شمعتين!

❁ ❁ ❁

حمحمةُ الدّموع

توفيقة خضور

لـم يوفـر وصفةً جـادت بها قريحة طبيبٍ، أو صديـقٍ عارفٍ، أو جاهل، أو ربمـا عابر جرحٍ، إلا وجرّبها على آفته التي تُكلّل جبينه ببراعم من نار..!

تشرب الآفة ما يُسكب عليها، تهدأ قليلاً، وكأنها تدخل حالة تأمّل للجديد الوافد، لكنها سرعان ما تفور لافظةً ما فُرض عليها، وتعود إلى سابق عهدها مُتورّدةً تنضح ناراً، دماً، ودموعاً..!

يُمسك بحزنٍ دام مرآته الخجلى، يراقب جرحه العتيق، ويخاطبه بقهر:

(ويـكَ ماذا عسايَ أفعـل لك، وأنت تبتلع ما أُلقمـك من أدوية، فتزداد شراهـةً..؟ شربتَ ماء حياتـي، قـوتَ أولادي، عرقـي، جهدي.. أكلـتَ ما يصلح من أثـاث بيتي للبيع، ولـم تقنع، ابتلعتَ الأدعيـة، التعويذات، والتمائم.. خاضت في مياهك سفـن الشرق والغرب، مخرتْ عبابك أصابع الملائكـة، والشياطين، ولم تبـرأ.. فماذا عساي أفعل لك..؟ ماذا لديّ بعدُ لأطعمك..؟ هل أرمي لـك بأجمـل بناتي أيها الإله الشبـق، أتُراك تشبع، وتكفّ عن لفظ السّمـوم في وجهي، أم ستبقى دماؤك تتساقط على عينيّ، تُلبسهما العماء.. فنبقى معاً قتيلين.. قتيلاً يجرّ قتيلاً..؟!).

تراقبـه طفلتـه ذات العاشرة بأسى، ثـم تدنو منه، تُطبطـب بيناعة الحبّ علـى كتفه.. ينتبه، ويحاول أن يبتسم لها، فتهمس بحياء:

العمل الفني: الفنان مطيع علي.



- أبـي سمعـت مـن رفيقـي فـي المدرسة حكايةً، قد تنفعك..

- ما هي يا بنتي..؟ قولي.

- قـال: إن ابن جيرانهـم قد نبتتْ في يـده شامة، راحـت تكبـر، وتكبر، ثم تقرّحت، وصارت تنزّ دماً، ولم يجدوا لها دواءً، وكان هذا الولد يُربّي خروفاً، ويعتنـي به، ويحبّه مثل أخيه، وعندما جـاء العيد، قـرّر والـده أن يذبح الخـروف، بكـى الطفـل بحرقه، ورجـاه ألّا يفعل، لكن الأب تجاهل توسلات ابنه، وصرخ في وجهه:

- تعـال وانظـر، كيـف سأذبحـه، ليقوى قلبك، وتصبح رجلاً..!

واقترب من الخـروف، والسكّين تبرق في يده، نظر الخروف في عيني صديقه بتوسّل، وذرف دمعتين كبيرتين، لحظة النّزع.. اندفع الطفل إلى خروفه بجنون، حضن عنقه الجريح، فسقطت دموع الخروف على يده المريضة، واختلط الدمع بالدم، هجم الأب على ابنه، وشلعه بقـوة عـن الجسد الذبيح، وطلب من أمّه أن تنظفه مما علق بـه، لكن الطفل رفض بشدّة إزالة آثـار الخروف عنـه.. وحبس نفسه في غرفته، حتى نال منه الجوع والعطش، وغاب عن الوعي، خلـع والده الباب المُقفل، ودخل عليه، سكب الماء فوق رأسه، فانتفض، وراحت عيناه تفتشان عن صديقه، وهو يثغو بقهر: أين أنت يا صديقي؟ تعال إلي.. أرجوك..

مسحت والدته دموعها، وحملته إلى الحمّام، وبعدما انتهت من إزالة آثار الدماء عنه، اكتشفت أن يده المريضة قد شُفيت تماماً.. شفتها دموع الخروف يا أبي..!

تهلّلت قسماته استبشاراً، وعلى وجه السّرعة تأبّط قارورةً، وطار بها إلى مسلخ المدينة، وهناك وجد حشوداً من البشر المنتظرين، يتدافعون، ويتلاسنون، وكلّهم يقبض بقوّةٍ على زجاجةٍ، تنتظر أن تُملأ بدموع الذبائح..!

ومن فُرجةٍ مُلطّخةٍ بالموت، خُيّل له، أنّه يرى سكّيناً عملاقةً مُشهرةً في وجه خروف، يرفع رأسه تحدّياً ـ على غير عادة الخرفان ـ رماه الخروف بسهم من عينيه المُكابرتين، ثم قرّب رأسه من رؤوس إخوانه المذعورين بحميمية، كأنه يُلقي في روعهم أمراً ما.. فجأةً رفعت الخرفان رؤوسها، وحدّقت بنزقٍ في الجموع التي تنتظر دموع فزعها.. علّق الخروف على وجوههم نظراته الأخيرة، وتنهّد بارتياح، وهو يدفعهم إلى الوراء.. حملق الرجل في عينيه مُستمطراً دمعةً تشفيه من علّته، لكنّ الخروف ثغا بقوةٍ مستعجلاً تنفيذ الحكم.. وكأنه على ثقةٍ أن مقتله سيُنقذ أبناء جنسه من فناء محتوم.. هوت السكين على عنقه، وفار الدّم نوافير، ثقبت سقف المسلخ، وتعالت لتُلطّخ وجه السماء، ثم تنهمر أمطاراً من نجيع، تُبلّل حشود المنتظرين، وقبل أن يفكر أيٌّ منهم بالهروب، تهاوت جدران المسلخ على عروشها تحت ضربات الخرفان الغاضبة، التي اندفعت، تُطارد بضراوةٍ حَمَلة القوارير..

❀ ❀ ❀

روبوت عضوي

حسام الدين خضور

«لا أشعر بأنني إنسان». حمل الأثير أيضاً شيئاً من الأسى، وشعوراً بالخواء.

«هل أنت منقوص الحقوق؟» لم تحمل كلمات سالم شيئاً آخر غير السؤال.

«أنا لاجئ»، وصلت العبارة إلى سالم مفعمة بالخنوع.

«أليس للاجئ حقوق؟» أخذ شيء من الاستغراب يتسرب إلى السؤال.

«بلى، أنا أمتلك كل حقوق اللاجئ». انقطعت المكالمة فجأة. واستغرب سالم أسباب القطع.

جلس سالم، وشغّل حاسوبه، وأخذ يبحث عن حال اللاجئين في البلد الذي لجأ إليه صديقه، حميد. تأكد من أنهم جميعاً يعيشون في بيوت، وأنهم جميعاً يحصلون على معونات تمكّنهم من العيش بشكل لائق، وأنهم جميعاً يتعلمون لغة البلد المضيف، ويأملون بالحصول على أعمال عندما يتعلمون اللغة.

ماذا يريد حميد؟ كان هنا، يشكو من انقطاع الماء والكهرباء والغاز والمازوت، ومن بيته المستأجر غير الصحي، وعدم كفاية دخله لدفع أجرته، ثم من انعدام الأمان أخيراً.

كان سالم وحميد يعملان في صحيفة محلية، في قسم التحقيقات. تحليا بروح الصحافة المتسائلة. كانا قلقين دائماً. علما كثيراً، وتألما كثيراً. وكانا مثار سخرية زملائهما، الذين صار

بعضهم كحولياً؛ وصار بعضهم الآخر يلهو بلعب الورق، وتدخين «الأركيلة». كانوا يصارحون سالم وحميد، من حين إلى آخر، وهو ما سماه حميد: من نوبة صحو إلى أخرى، بأنهم مثلهما يريدون أن تكون الصحافة سلطة رابعة، وتكون عين المجتمع التي ترى كل شيء وتتحرى كل شيء، وتتحقق من كل شيء، وتحمل آراء الناس في كل شيء. لكنهم يئسوا، لأنهم، كما يسوغون لأنفسهم، عرفوا أن المشكلة بنيوية وليست فردية؛ لا تتعلق بالكفاءات ولا بالمهارات.

لم يكن سالم وحميد يرفضان مسوغات زملائهما النظرية، بل يقولان، الصحافة في كل أنحاء العالم تعمل بمشيئة الأنظمة وتدافع عنها، ونحن من النظام ومن أحزاب النظام، لكننا لا نقبل بهذا التهميش لدور الصحافة الرقابي، وعند هذه النقطة كان النقاش ينتهي إلى هرج ومرج. يسمعان عبارة: «سيأتي يوم لن تحمل رقبتاكما رأسيكما. سيسقطان من دون قطع. أنا أراهن على ذلك!» كان أبو مخول، أقدم الصحفيين، من يكرر هذه العبارة، فيضحك الجميع، بمن فيهم سالم وحميد، وينتهي الجدل.

نجح سالم بالاتصال بحميد ثانية، بعد محاولات كثيرة. كان حريصاً على متابعة الحوار مع صديقه، الذي بدأ في الوطن واستمر حتى بعد أن خرج حميد لاجئاً. برز الحوار بين الصديقين حول موقفين. كان حميد يتمسك بالأول، الذي لخصه بعبارته: «الإنسان بيولوجيا ثم أيديولوجيا»، وكان يفسره بقوله: ينبغي أن تتوافر لنا أسباب العيش أولاً لنختار ثانياً. كان سالم يوافق على فكرة حميد مع أنه كان ينفر من كلمة أيديولوجيا بطريقة غير مسوغة أحياناً، وقال: «لا بأس إذا كانت تعني الاختيار». وبهذا المعنى صار للأيديولوجيا طعم آخر أحبه سالم.

ولدت فكرة حميد عندما أخذ يفكر بالهجرة. الإنسان كائن أخلاقي عقلاني لا يفوته أن يجد لكل فعل سبباً. وصار حميد يردد مقولته بمناسبة وغير مناسبة. وكان سالم يتفهم موقف زميله وصديقه، ويقول له من حقك أن تبحث عن ملاذ آمن. وضعك أسوأ من وضعي، مع أنني لا أنصح به عندما يكون الوطن في خطر. وكما دافع حميد عن موقفه بطريقة بارعة، دافع سالم عن موقفه بطريقة بارعة أيضاً: «عندما يكون الوطن في خطر، علينا أن نفكر بحلول، ليس بملاذات». كان حميد يقول: «لقد استفحلت الكارثة إلى درجة لا أمل بحل فيها. ثمة حرب عالمية على سورية، فإما أن تصمد، أو تنهار». وكان سالم يطرح عليه السؤال البديهي: «إذن إلى أين تذهب؟ ما معنى الوطن؟».

- أنا لست مقاتلاً. أنا صحفي. سأذهب إلى أوروبا وأكشف للرأي العام الأوروبي حقيقة المشكلة عندنا.

- لن يتاح لك أن تذهب بصفتك الصحفية الوطنية، إلا إذا خرجت معارضاً ورددت الاتهامات التي يسوقونها ضد النظام لتسويغ حربهم علينا.

- سالم، لم أعد قادراً على العيش هنا. كان لديّ بيت دمره الإرهابيون، كما تعرف.

وضعك صعب. أعرف ذلك. لكن الوطن في خطر.

- ماذا أفعل؟ نزح سكان الحي جميعاً. ومعظمهم وجد طريقه إلى اللجوء.

- سيندمون جميعاً. كان ينبغي أن يصمدوا ويدافعوا عن بيوتهم. أنت تعرف أن اللجوء كان أحد الأسلحة التي استخدمها المعتدون ضدنا.

- في الحقيقة، كان ثمة شيء آخر هو الذي دفع حميد إلى اللجوء. صار البقاء يعني له المخاطرة بأفراد أسرته. «هذه فرصة لتأمين الأولاد»، كان يقول في سره. فباع واستدان وجمع نفقات الرحلة ووصل إلى بلد اللجوء من دون صعوبات كبيرة. استرخى ونام طويلاً في الأيام الأولى، وشعر بالتعاطف الذي أبداه السكان المحليون للاجئين، ثم دخل في نفق العزلة بعد أن انتقل إلى العيش في بيت استأجره من نقود المعونة التي تقدمها الحكومة المضيفة للاجئين ريثما يتعلمون اللغة ويحصلون على عمل. ثم صار يشعر بالغربة: سحنته مختلفة، أخذ يشعر أن بعضهم ينظر إليه بارتياب، وبعضهم كأنه يعنفه.

كان يقرأ ويتفرج على صور القتل والدمار في بلده، ويتحدث مع صديقه، سالم، في فترات متقاربة ويشعر بالخجل. ثم أخذ الحنين إلى الوطن يعتمل في نفسه - العالم قرية صغيرة؛ لكن ثمة وطن. افتقد العمل الذي أحبَّه. افتقد المدينة التي عاش فيها. افتقد الأمكنة التي كان يرتادها. افتقد البشر الذين عرف أوضاعهم ومشكلاتهم وهمومهم وطموحاتهم - افتقد الوطن.

في ذات يوم، دقّ باب منزله رجل. عرض عليه أن يكتب في الصحف المهاجرة. شكر الرجل على عرضه، وأوضح له أنه يحب العمل في قسم التحقيقات، وطلب أن يحقق في مشكلات اللاجئين في أوروبا. وعده الرجل أنه سيدرس الأمر، وطلب منه أن يقدم شهادته بأوضاع بلده الكارثية التي دفعته إلى اللجوء، وألمح إلى أن الكتابة في الصحافة ستوفر له دخلاً جيداً.

كأنه يطلب مني أن أدين ممارسات حكومة بلدي. لم أغادر بلدي لأبحث عن منبر أنتقد منه الممارسات الخاطئة. كنت أفعل ذلك في بلدي. انتقدت الممارسات الخاطئة بصوت عالٍ في اللقاءات العامة، وأيدت بصوت عالٍ أيضاً ما رأيت أنه إجراءات ضرورية. انتقدت الفساد، وأيّدت المصالحات الوطنية، وشكرت الحكومة في أحد اللقاءات، وكثيرون سجلوا قولي: «في النزاعات الوطنية، نصف هزيمة خير من انتصار».

كتب المادة واتصل بالشخص الذي زاره، فجاء، وأخذها. وبحسه الصحفي أيضاً أسرع إلى نشرها على صفحته في الفيسبوك. وفوجئ بأن صفحته اختفت. ولم يتمكن من استعادتها سريعاً، مجموعة كبيرة بلّغت عنه. والرجل الذي زاره لم يعد إلى زيارته أبداً.

كان حميد، عندما نجح سالم في الاتصال به، نهباً لشعوره بالغربة في المكان. المكان بالشروط الصحية أفضل لكنه، بالنسبة لحميد، يخلو من الروح التي ألفها في بلده.

اعتذر حميد عن عدم محاولة الاتصال لأنه ظنّ أن القطع حدث بسبب انقطاع الكهرباء الذي يعرف أنه مألوف في بلده.

- إي، خير، ما الجديد؟
- لا شيء. أشعر بأنني محبط فحسب، قلق، نادم. كان يجب أن نفعل شيئاً.
- احرق مراكبك، يا حميد. اضطررت إلى أن تهاجر، افعل شيئاً هناك.
- هذا ما يعذبني. أشعر بأنني غير قادر على الفعل. أخسر عمري.
- هذه هي حال الغريب. ستبني علاقات جديدة. كأنك تولد من جديد.
- في بيئة لا أعرفها؟
- هذا هو التحدي. اصنع شيئاً. لديك فرصة.
- فرصتي أن أكون قادراً على العمل حتى الرمق الأخير. أتعلمه خطوة خطوة.
- هل تقول لي إنك غير قادر على المبادرة؟
- أشعر أنهم يبرمجونني لأداء وظيفة مرسومة بدقة.

وكأن شيئاً حدث. سمع سالم صوت بكاء، وأيقن أنه لحميد.

❀ ❀ ❀

السلال!

حسن حميد

بلى،

هاهنا، وفي هذا المكان.. واعدتُ رجوة!

سألتها مرات ومرات إن كانت تعرف المكان!

فقالت لي: أعرفه تماماً.

قلت: المكان حيّ ولطيف، وصغير مثل عش، كلُّ ما فيه مشتق من النباتات، الطاولات والمقاعد والصواني والأكواب.. حتى القهوة التي تُقدَّم فيه.. هي كائنات نباتية!

تعالي يا رجوة، ولو لدقيقة واحدة، كي أراك!

قالت بثقة: أنا قادمة، انتظرني!

***

ما كنتُ أعرف رجوة، وما كانت تعرفني!

الهاتف هو من كان صلة الوصل بيننا، ولا أدري من أين جاءت برقم هاتفي، كما لا أدري بالضبط لماذا هاتفتني في المرة الأولى.

قالت لي: أنا أعرفك، رأيتك مرة واحدة في معرض الرسم، فغصّ قلبي!، رأيت الناس يحيطون بك، ويدورون حول لوحات ثلاث متجاورات لك، ربما كانت لوحاتك زينة المعرض.

لم أتكلم معك، رحتُ أراقب اللوحات، وأنظر إليك، وكم وجدت أنك تشبهها، وأنها تشبهك، ومن دون أن أدري السبب أحسست أنك شخص تهمني، وأن روحي انشدت إليك!

وقالت: أصارحك.. أنه لولا الحياء، وكثرة الناس، والعيون التي تحدق إليك لاقتربت منك وكلمتك، وربما صافحتك، بل ربما تجاسرت أكثر وأخذتك بين ذراعيَّ في شوط أنثوي لا يدانى! صحيح أنني لم آخذكَ بين ذراعيَّ، لكنني أخذتُ دليل لوحات المعرض، وقرأت نبذة صغيرة عن سيرتك الذاتية، وعرفت عمرك، وقرأت سطوراً عن أهمية لوحاتك، وقبل أن أغادر المعرض، وقفت أمام لوحاتك الثلاث الجميلة لمرة أخيرة راجية الله أن يطبعها نقوشاً في صدري، ونظرت إليك، فرأيتُ! أتدري ماذا رأيتُ؟! رأيتُ أنك اللوحةُ الرابعةُ والأهمُّ في المعرض!

وحين عدت إلى البيت رحتُ أطاردك في المواقع الإلكترونية لأعرفك أكثر!

قلتُ: وماذا وجدتِ! قالت: الكثير! ثم صمتت في تلك المكالمة! لم تبح لي بشيء عنها سوى اسمها!

❀❀❀

أذكر أنني، في المرة الأولى، ومع المهاتفة الأولى: قلت لها: وماذا ستعرفين عني.. يا رجوة!؟ المدن الشائخة غير جديرة بالمعرفة! قالت: أنت زينة الشباب! قلت: ماذا؟! قالت: لقد رأيتك! وأغلقت هاتفها!

أعترف بأن قولتها يومذاك، هزّتني، لذلك دفعت خطاي نحو مرآة البيت الكبيرة ووافقتها، ولم أغادرها إلا عندما قلت لنفسي: ما أحلى البنات الكذّابات، إنهن قصب مصّ حين تذهب الأنفاس! فأنا أدلف إلى سنواتي الستين، والشيب يفضحني، ونحولتي رفيقتي مثل أنفاسي، لا شيء فيَّ سوى هذا الطول الذي لم يغو فاتنةً من الجميلات الفاتنات اللواتي مررن بيَّ، فظللت أعزب الدهر الذي لم يطابق وجهه وجهاً كي يتوحّد فيه! وكانت رجوة، كما أخبرتني فيما بعد، تخطو نحو سنواتها الأربعين، وقد طلبت من الحياة الكثير الكثير، لكنها صدّت عنها، فلم تفتَكّ منها عنوةً سوى شهادة طبابة الأسنان، ثم هجرتها الحياة، وأغلقت وراءها الباب. قلت لرجوة التي تمنيت ألا تستجيب إلي، أن تأتي.. لأراها. لكنها تخذلني وتواعدني، وتقول: إنها قادمة، لكنها لم تأت! ولم تتب عن مكالمتي، مثلما لم أتب عن مواعدتها وانتظارها!

الآن، وفي هذه المرة، وبعد هذه المهاتفة الفائتة، أشعر للمرة الأولى أنها قادمة فعلاً، فقد أحسست أن في صوتها اندفاعة ما عرفتها من قبل، وفي كلماتها حرارة لم أشعر بها أيضاً، وقد

كلّمتها مئات المرات. روحي الآن، تقول لي: إنها قادمة! كنتُ أريد ملهوفاً أن أضع حدّاً لهذا التعب العاطفي الذي راح يساهرني كل ليلة، مثلما تساهرني الألوان، وأن أبعد طيفها الذي تصورته لها وهو يراقصني أمام الشموع في كل ليلة، والألوان تجول بي مثل نحل طريد!

كنت أريد أن أُخرج رأسي من كتاب الاعتذارات الكثيرة التي كنت اختلقها لها بعد كل مواعدة حين لا تأتي، ولَكَم درّبت نفسي طويلاً لكي أغضب منها وعليها حين تكلمني في الهاتف، ولكنني أخفقتُ، لم أقو على ذلك، ولو في مرة واحدة. كانت، وما إن تقول لي: (مرحبا). ممطوطة، حتى أنسى غضبي، وأغفر لها كل شيء! وحين تتحدث، أتركها تتحدث كي أصير طائراً محوّماً في الفضاء، فلا تستعيدني إلا عندما تقول لي: أين أنت؟! فأقول على عجل: أنا في السماء! فتضحك! وعندئذٍ أشعر بهبوط الأنهار من منابعها جرياً نحو مصباتها، وقد أحاطت بها الضفاف قرىً، وغاباتٍ، وأجمات قصب، وأسيجة توت، وأشجار طيون، وأسراب إوَزّ وبط، وقطعان ماشية، وشجو نايات، وصبايا يرمين الهموم والأماني والأغاني إلى هدرة الماء الصخّابة في النهر الطويل.

ثم تسألني راجية، وقد بُحّ صوتها ورقَّ: سآتيك، ولكن إلى أين؟! فأقول لها وأنا بين جفون اليقظة والنوم: عند مقهى البنت سعدية! فتقول فرحةً: فرصة، كي أعرف سعدية أيضاً!

❀❀❀

قبل ساعات فحسب، أقسمتْ رجوة الأيمان الغليظة، يميناً تتلوه يمين، بأنها قادمة لتمحو كل زلاتها السابقة، ولتقول لي قولتها التي هزّتني منذ هاتفتني في الأيام الأولى: أحبك يا مجنون!

لهذا.. هأنذا.. أهفو إلى موعدها مثل طائر حجل يكرج نحو حافة غدير، كي أراها، فلا أصل إلى مقهى سعدية، ولا مقهى سعدية يبين، لكأنني لم أمش بعد، أو لكأن الطريق لم يأخذني إليه، أو لكأن قلبي يقول لي: إن موعد رجوة بعد ساعات! لكنني هأنذا هنا، وسط الشارع، وبين البيوت، أمشي وراء خطاي، ولا موسيقا تحفُّ بي سوى دقات قلبي، ومن فوقي وحولي شرفات تطلُّ عليَّ وقد امتلأت بالخلق، وروائح القهوة، والنباتات، والضحكات، والأحاديث المتداخلة، ومحال شرّعت أبوابها، وأبدت زينتها، وجدران تتقدم وتتأخر، تمرُّ بي وتوازيني، وتنظر إليَّ!

يا إلهي، لكأن كل ما هو حولي يعرف موعدي مع رجوة ويباركني! أمشي مثل طريد، فلا أقف إلا أمام سعدية، التي تسقي نباتاتها، وحين تراني تبتسم! أجمل شيء في سعدية ابتسامتها البيضاء الواسعة. حين أرى ابتسامتها ألعن الظروف وقسوتها، والصدود وساعاته، إذ كيف لابتسامة مثل

ابتسامة سعدية لم تشد إليها عشرات الرجال؟ كيف مضى الزمن كلّه ولم تتزوج سعدية؟ صحيح هي بنت سمراء، وناحلة، ولكن طولها زينة، وابتسامتها تساوي طيور الدنيا كلّها، وروحها شوط من الشوق... وأبعد!

حين رأتني سعدية ابتسمت، وهي تستعيد انحناءة جسدها إليها، وهممت بخفوت: رجوة!

فتمتمتُ، وجسدي يرجّ بي: رجوة!

قالت ممازحةً: ألا تتوب وقد دمرتك الأيام! قلت: من يؤوب لا يتوب يا سعدية! ترامشت عيناها، ثم دلقت رأسها نحو صدرها! يا لهذه السعدية.. حمامة! بل حمام! وسمعتها تسألني: قهوة! فأقول: قهوة! وتسألني: واحد! فأقول: اثنان. عندئذٍ، شعّت ابتسامتها وأضاءت أكثر.

سعدية تعرفني، فكلما واعدت رجوة عندها، طلبت فنجاني قهوة، الأول لها، والثاني لي، فلا أغادر، إلا بعد أن أشرب فنجاني القهوة في دور أول وثانٍ وثالث انتظاراً لرجوة التي.. لا تأتي.

حين عادت سعدية إليَّ، بالقهوة والماء، سألتني إن كان مجيء رجوة هذه المرة مؤكداً، لا سيما وأنني آتيها اليوم مبكراً، قلت: مؤكد بالطبع، هي التي طلبت الموعد! قالت بحزن: قلبي يرجف منذ سنوات.. كي أراها! قلت: اليوم، وبعد قليل، سيدق قلبك فرحاً لمرآها! قالت: أرجوك.. دعني أعرفها بنفسي، لكن ساعدني، قل لي كيف هي؟!

قلت: وقد هزّني سؤالها: هودج ورد، سرب من السنونو، بلاد.. تغني! قالت وهي تخفي عني شحوب وجهها: سأعرفها من النظرة الأولى! واستدارتْ! واستدرتُ عنها لأرى قربي رجلاً ممتلئاً، يحمل عشرات السلال في يديه، وعلى كتفيه، وفوق ظهره.. حتى ليظنه المرء، وقد غطّته السلال، رجلاً يمشي في (كرنفال). حطّ الرجل وسلاله قربي. فرأيت ما فيها، إنها ملأى بالزبيب الأشقر، وحين نظر إليَّ نظرتُ إليه بغضب شديد، وصرخت به: أنت حطّاب الدوالي! فبهت الرجل، وصرخ هو أيضاً بارتباك واضح: حطاب، دوالي.. ماذا تقول؟! ولا أدري كيف قفزت من فوق الطاولة، ومن فوق فناجين القهوة وكاسات الماء، ومن فوق السياج النباتي الذي يحيط بطاولات مقهى سعدية، وأطبقت على الرجل بذراعيَّ، وصوتي يتعالى: حطاب حطاب..، فما كان من الرجل الممتلئ، إلا أن احتواني بذراعين من صخر أو حديد، ودوّرني حول جسده دورة أو أقل وطرحني على الأرض، فشعرت بجسدي يتفكك، وبعظامي تتقصف مثل أغصان الشجر، وسمعت أصواتاً تتعالى، وضجيجاً يتراكم حولي مثل الغيوم، ثم ما عدت أحس بشيء لكأن غيبوبة افتكّتني مما أنا فيه. وحين أفقت، عرفت أنني في المشفى، وأن الرجل الجالس إلى جواري هو رجل السلال الذي

فكك جسدي، وكسَّر عظامي، وهو لم يغادرني منذ جئت إلى هنا. ابتسم لي حين رآني أنظر إليه، وهمهم: أنت بخير، لا تقلق! قلت: والموعد، ورجوة!

قال، وقد انشقّت شفتاه عن ابتسامة ما رأيت مثلها قط: جاءت رجوة، وسألت عنك، وتعرفتْ إلى سعدية وعانقتها، وسعدية أكرمتها بدورين من القهوة!

لحظتئذ، شعرت أن رضا الله يمطر في قلبي يمطر.. يمطر يمطر، وأن غيوماً تشيل بي، فهممتُ أن أنهضَ لكي أقبّل رجل السلال الطويل الممتلئ.. لأنه أول كائن بشري يصدق أن لي حبيبة اسمها رجوة، وقد جاءت إليَّ على موعدها إلى مقهى سعدية، وأن سعدية التي تلعن الرجال ألف مرة في اليوم.. أكرمتها بدورين من قهوتها العسل، بعد أن عانقتها عناقاً طوله ألف عام.

وحين عجزتُ عن النهوض، لأن يدَي رجل السلال حالتا دون أن أنهض أو أستدير نحوه تماماً، قلت: وأين هي رجوة الآن؟!

قال: تركتها عند سعدية!

قلتُ: وسعدية؟!

قال: تحكي لها عنك!

قلت: وأنت؟!

قال: جئتُ بك إلى هنا!

لأنكَ نمت على الكرسي، كعادتك، وحين غفوت تماماً، صرخت فجأة وناديت: رجوة، رجوة، ثم سقطت على الأرض، على ذراعك اليسرى.. فكسرتها. كنت بجوارك كعادتي أيضاً، وقد فرغنا من الحديث عن أصناف الزبيب وشقرته الراهجة!

قلتُ: والسلال!

قال: السلال تركتها لـ رجوة!

قلت: أهي قادمة إلى هنا؟!

قال: قادمة!

قلت: متى تصل؟!

قال: بعد أن تملأ السلال بالماء.. من نبعة الطاحون!

❀ ❀ ❀

عالم صغير

حسني هلال

ساعة..

مسبحة..

وسيجارة..

ثلاثة باتت أركاناً أساسية في حياة «الخيّال». بل نستطيع الزعم، أنها صارت تشكّل معظم عالمه، إن لم نقل عالمه كلّه!

-٢-

لمّا كان أهل القرية، بمن فيهم زوار «أبو يامن الخيّال» اليوم، يعرفون ما يتحلّى به من أناة وطول بـال، ويكنّه من احترام ومحبة، لأهل قريته، ولا سيما الأطفال منهم. فقد تسمروا الآن في أماكنهم (أقصد الزوار) مدهوشين، لما تركته الواقعة من تأثير على «الخيّال» تجلّى في انتفاضة سائر أعضاء جسده. خاصة انتفاخ أوداج رقبته، وما ضجّت به تقاسيم وجهه ونظراته، من معانٍ تقف دونها عاجزة الألفاظ..

لا يفيها حقها التوصيف..

ولا تصلها قوارب التعبير..

-٣-

- ولـد بلا عقـل.. استحلـى المسبحة، شدها (بَـدّو ياخذهـا)، (فصار اللي صـار).. قال أحد الحضـور محاولاً تلطيف الجوّ وتهدئة «الخيّال» الـذي اعتلى أقوى ما في حظيرة صبره من أفراس، وما برح قاب نفختين أو أدنى من انفجار غضبه:

-شـو يعنـي إذا الولد قطع خيط المسبحـة، ووقّع الساعة عن الطربيزة، وكـبّ كاسة الشاي على بكيت الدخان -سيدي- وكسرها.. انكسر الشر (عقّب آخر).

- يجعلها أكبر المصايب؟ (قال ثالث).

-أنت عاقل وفهمان يابو يامن، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خيرٌ لكم.. (أضاف رابع).

-٤-

ساعة..

مسبحة..

وسيجارة..

الأولى: يحمّل على أرقامها مواعيد تناول أكله، وشربه، ودوائه..

ويعلّـق على عقاربها آماله وربما أوهامه، فـي أن يساعد الله سورية على التخلص من «دواعشها» الذين يفتحون معاملهم ومزارعهم وبيوتهم وذرائعهم، لدواعش العالم!

الثانيـة: مـع دفعه حَبَّاتهـا، يدفع عن نفسه غول الملـل واليأس، الذي بات يتهـدده، منذ أضربت رجلاه عن الحركة، إثر إصابته بطلق ناري طائش، من أحد الإرهابيين..

والثالثـة: يمتطي مع نفث دخانها، جيـاداً خارجة على المألوف، ويحيـا لحظات خارقة للإعاقة.

يرى فيهما ذاته، كسائر خلق الله من صغار وكبار..

فقراء وأغنياء..

الأصحّاء منهم والمرضى!

❁ ❁ ❁

أما بعد

حنان غنوم

علـى نافذة الانتظار شردت بدمـوع عينيها التي شاخت تبحث عنه، بالأمس كان هنا يجلس إلى المائـدة وتمتزج ضحكاتهم بأصوات الأواني، ورائحة شهية تفوح من أطباق أعدتها له... بالأمس كان وجـوده هنـا يمـلأ المكان فرحـاً... ترى هل سيعـود الأمس يومـاً أم أن العمـر سينتهي قبل عودته.

فـي هـدوء الليل، والعتمة تغلّف المكان، وقفت سهاد أمام نافذتها ورفعت أكفها بالدعاء «يا رب عوضني عن الأيام الكئيبة، عن التنهيدات التي استعرت في صدري، عن الأيدي التي خذلتني، عن سقف توقعاتي العالي، عن أملي الكبير المنقطع»...

طالـت في هذه الليلة مناجاتها وبوحها لخالقها وذرفت دموعـاً كادت تفطر فؤادها، فغداً تحلّ الذكـرى الثالثة لرحيل كمال، على الرغم من الظروف الصعبة والتضحيات الكبيرة التي عاشتها معه إلا أنها عندما تذكر أيامها معه لا تفكر إلا باللحظات السعيدة التي مرت عليهما.

رأيته لأول مرة في قاعة المحاضرات في المكتبة العامة، كانت محاضرة عن شاعري المفضل «نـزار قباني»، كنت فـي العشرين من عمري وكان هو في الثانية والأربعيـن... رجلاً كبيراً، قوياً، طويـلاً، وقوراً، عيناه حادتان وترتسم على شفتيه ابتسامة ساحرة... سلبتني عقلي وتركيزي. لم

العمل الفني: الفنان مطيع علي.



أسمع كلمة مما قيل، كنت أتابع حركاته بعيني.

في المحاضرة التالية رأيته أيضاً، وتهت في هواه بعيداً عن كل ما يجول حولي... وتكررت المحاضرات وتكررت اللقاءات.. في الاستراحة كان ينفث دخان غليونه، فأحلّق معه، كنت أقترب منه وأتنفس دخانه لكنني لم أتجرأ يوماً على محادثته.

وفي يوم حدث أن رأيته برفقة سيدة تقاربه في العمر وشعرت بنار الغيرة تلسعني... كيف يمكن أن أشعر بذلك على الرغم من أنه ليس لي، لم أكلمه يوماً. وحانت لحظة الفرج حين رأيت صديقاً لي يتحدث إليه واقتربت منهم، يدفعني شوقي للتعرف إليه والاقتراب منه. عرفت يومها أنه كاتب السيناريو كمال، شخصية مبهرة، واثق من نفسه، معتد برأيه، يتحدث والابتسامة لا تفارق شفتيه، من خلال الأحاديث المتبادلة عرفت أن السيدة كانت مخرجة عمله الأخير الذي عرضته شاشة التلفاز في رمضان الماضي.

أقحمت نفسي في الحديث عندما حانت لي الفرصة وبدأت أكيل المديح من كل حدب وصوب على هذا العمل الرائع والمتميز بكل تفاصيله وعرضه لواقع يعيشه شبابنا. كنت أريد لفت انتباهه والتحاور معه، لكنه اكتفى بإيماءة من رأسه وتمتم عبارات شكر مقتضبة وسريعة، واعتذر مغادراً المكتبة.

في الأيام التالية قرأت كل ما وقعت يدي عليه عن كمال وكونت عنه فكرة بسيطة لا تتعدى كونه كاتب سيناريو معروف بقراءته للواقع ونقله بصدق وشفافية للمشاهد، لقاءاته مع الإعلام قليلة إن لم تكن نادرة، وحضرت كل المحاضرات الثقافية في كل مكتبة وناد على أمل اللقاء به، إلى أن شاءت الأقدار وجمعتنا في ذلك اليوم. لمحته منتظراً خارج القاعة. تقدمت منه بخطوات خجولة، هل سيذكرني من لقائنا السابق أم...؟ ولمحت طيف ابتسامته المحببة مرحبة بي، اقتربت أستنشق دخان غليونه، مد يده مصافحاً، تحادثنا قليلاً عن أعماله ومقاربته لواقعنا

وحياتنــا، ونجحــت في لفت انتباهه إلــى أنني أتابع أعماله وكتاباته، لم نــدرك إلا بعد وقت طويل بأننــا أضعنا قسماً كبيراً من المحاضرة.. فكان رأي كمــال أنه من غير اللائق الدخول متأخرين بعد هذه المدة، وكان لسان حالي يقول من غير اللائق أن نقطع حوار القلوب والعيون.

منــذ ذلك اليوم لم تعــد لقاءاتنا حكراً على المحاضرات، كنا نلتقــي كل يوم ونتحاور ونضحك ونسير في شوارع المدينة متشابكي الأيدي، قال لي يوماً: كان علينا أن نلتقي منذ وقت طويل، وأن نكـون معــاً منذ أمدٍ بعيد، وأن أحبك منذ عمر مديد، فما تبقى من عمري قليل، وكل ما كان قبلك مضيعة للعمر!

وفــي بوح فريد قال لي: قبل أن أعرفــك، تعودت أن أكتم مشاعري وأتركها تذبل وتموت داخلي، ولكــن منذ أن عرفتك أصبحت أشعر بأنني أسبح في بحر عميق، لا أعرف متى وكيف قفزت إليه، واكتشفت داخله حباً كبيراً ومشاعراً فيَّاضة لإنسانة تضج بحيويتها وحبها الكبير لي. كنت حائراً بيــن قلبي وعقلــي، ضعيفاً أمام حبي وعاطفتــي! هل أتزوجها على الرغم من فــارق السن الكبير بيننا؟ على الرغم من الفوارق الاجتماعية بيننا؟ لو ارتبطت في عمر الزواج لكانت ابنتي تقاربك في السن الآن، لكنه الحب!!!

تزوجنــا على الرغم مــن معارضة الأهل، وعشنا أيامــاً لا يمكنني أن أصفهــا إلا بأنها السعادة الحقيقيــة التي كنت أحلم بها، كنت أقرأ كل ما يكتبه حرفاً حرفاً وكلمة كلمة. نتناقش ونتحاور... نفرح لنجاحنا ونحزن إذا ما فشلنا، رافقتُه في كل نبضة من قلبه وكان لي رفيق درب وحياة.

منــذ أن اتخذنــا القرار بالــزواج اشترط علي أمراً غريباً قال لي في ذلــك اليوم: «نصادف في حياتنــا أشخاصــاً يعنــون لأرواحنا كثيراً، يتركــون في قلوبنا بصمــات لن ننساها يومــاً، يزينون حياتنــا بأجمل اللحظات، ويتركون لنا أروع الذكريات، ويبقون بالنسبة لنا أبطال رواية أسميناها الحيــاة... سهاد أنت بالنسبة لي الحياة والــروح ولا أريد أن يشاركني فيك أي إنسان.. أريدك لي وحدي طول العمر».

سحرتني كلماته كما كانت تفعل بي على الدوام ووافقته، وقبلت أن أضحي بغريزة الأمومة التي كانــت تدمي قلبي كلما مرّ بي طفــل أو طفلة، كنت أقول لنفسي: كمال قادر على أن يعوّضني بحبه وحنانــه عــن كل المشاعر التي تتخبــط في داخلي. ومــرت أيامي معه نتنقل من دولــة إلى أخرى لمتابعة أعماله ولكنه بقي بعيداً عن الأضواء. نادراً ما كان يوافق على إجراء مقابلات أو حوارات صحفية أو تلفازية.

استيقظت في يوم عيد ميلادي التاسع والأربعين منتظرة مفاجأة كمال كما اعتدت خلال السنوات الماضية، لكن ذلك اليوم كان بالنسبة لكمال كأي يوم آخر، ترددت في تذكيره وفكرت أنه لا بد يعدّ أمراً ما للمساء. وأتى المساء ومضى اليوم كله دون أي إشارة منه، لم تكن تلك المرة الأولى، فمنذ فترة بدأت ألاحظ على كمال أنه ينسى أموراً حصلت معه مؤخراً، أو ينسى تواريخ وأحداثاً مهمة بأكملها دون أن يتذكر أي شيء منها. أصبح متقلب المزاج وعصبياً، أهمل كتابته وابتعد عن الموسيقا التي كان يحبها. أما الأمر الذي أثار جنوني فهو أنه بدأ يشكك في تصرفاتي ويباغتني أحياناً عندما أتحدث بالهاتف ليسترق السمع، ثم يبتعد وهو يومئ برأسه وكأنه يقول: لا فائدة، لا يمكن الوثوق بها.

حاولت إقناعه بمراجعة طبيب لنطمئن على حالته لكنه رفض وبشدة، وكان رده أنني أشكك في سلامة عقله؛ لأنه اكتشف أنني لست مخلصة له، لذلك قمت بدعوة صديقه الدكتور تامر لزيارتنا بعد أن أوضحت له الغرض من الزيارة. حاول تامر أن يفتح حديثاً مع كمال في مواضيع مختلفة إلا أن كمال تعامل معه كأنه شخص غريب. أخبرني الدكتور تامر يومها بأن كمال يعاني من مرض «الزهايمر» وبأن حالته تتدهور بسرعة كبيرة. تُرى هل يعقل بأن الطب على الرغم من كل تقدمه لا يزال حتى اليوم يقف عاجزاً أمام هذا المرض، الذي يترك مرضاه في حالة من التيه والضياع منفصلين عن واقعهم وهاجرين لكل ذكرياتهم.

في الفترة التالية أصبح كمال يردد الجمل نفسها والكلمات نفسها ويكثر من أسئلة لا معنى لها ويكررها أيضاً، وما أحزنني أنه كان يخطئ في نطق الكلمات وتغيرت طريقة كلامه وأصبح من الصعب فهمه والتعامل معه؛ مما يؤدي إلى ارتباكه وإحساسه بالضياع؛ لذلك لازمته وقمت بكل شؤونه، كنت أهتم بصحته ونظافته ومأكله ومشربه، كنت أخفي عنه دموعي وحزني على ما صار إليه حاله.

بتّ أرافقه في كل تحركاته وتنقلاته، أصبحت ذاكرته أحفظ عنه وأتابع أموره ولا أدعه يغيب عن عيني، ما أحزنني أنه يشرد أحياناً في الأفق البعيد فأشعر به بعيداً عني وعن كل ما حوله. تدهورت حالته أكثر وأكثر وتوقفنا عن الخروج من المنزل، كنت أطلب كل مستلزماتنا إلى المنزل.

في ذلك اليوم المشؤوم كنت أعد له طعام الغداء وكان كمال مستسلماً للنوم عندما قرع جرس الباب وأتى صبي المحل لإيصال ما طلبته من المحل، دخلت لإيصال الأغراض إلى

المطبخ وإحضار النقود له. عندما عدت كان الصبي يقف مستغرباً متلفتاً حوله وقال لي: سيدتي، قد خرج زوجك من المنزل مسرعاً يرتدي قميصه الداخلي، وحافي القدمين، والجو في الخارج ماطر، أسرعت إلى غرفته لم أجده. فتشت عنه في كل مكان في البيت.

أسرعت إلى الشارع ومع خطواتي الأخيرة سمعت صوت الارتطام. طار كمال في الهواء وسقط مغشياً عليه. يا لحسرتي! كمال... كمال، ناديته، رفعت رأسه عن الأرض لأرى طيف ابتسامته التي أسرت قلبي ذات يوم.

فارق كمال الحياة بين ذراعي. شعرت بأنني أضم وليدي في أحضاني وها أنا أفقده ويضيع معه حتى ذلك الحلم الذي كنت أعيشه ففي أيامه الأخيرة كان لي الابن الذي لم أرزق به، أرعاه وأعيش له ومعه وبه. وعلي الآن أن أقلب الصفحة الأخيرة من فصول حياتي معه التي كان له فيها دور البطولة متفرداً.

أمسكت قلمه وأوراقه عسى أن تلهمها شيئاً من فكره المبدع وسطرت...

أما بعد...

فأنا أرى طيفك في كل مكان... أبحث عنك بلهفة وشوق في كل الاتجاهات.

أكتب لأناجيك عسى كلماتي تراك بين حروفي... فتتناثر الحروف باكية على أوراقي

سأبحر أنا وكلماتي باحثة عنك بين حروف تاهت روابطها من فيض دموعي

أوجعتني حينما خلفتني وحيدة! ألملم شتات تساؤلاتي وأبحث عن رغيف فرح،

تتشبع به مشاعري الذابلة بعد فقدك

تسألني عنك الأماكن والمقاعد!

تحدثني عن جنونك تلك الوسائد،

ترقب ملامحي كل تلك الوجوه، كلما توارد اسمك!

❁ ❁ ❁

رحم

ديمه داوودي

عنـد باب المسجـد الموازي لقضبان المشفـى التي تعبق بالذكريات..مفتـرق طرق ضيقة من ساحة تكتظ بمارة لا يعرفون بعضهم.. اعتادوا استجداء ابتسامة أو دعوة بلا مقابل.

القضبان خرساء تحاول محاورتها بضع أغصان يحزنها وقع الأوراق الخضر الشاردة منها قبل الأوان.

الطفل عبر النافذة يشير إلينا بالصعود ويرمي لنا أوراقاً مطوية بعناية.

هناك حملتني ذاكرتي ورائحة روح غادرتني قبل أن تصل إلى النافذة نفسها..

صوتٌ شابٌ يقطع لحظة شرودٍ لمحاولة عابثة للهرب من الفقد

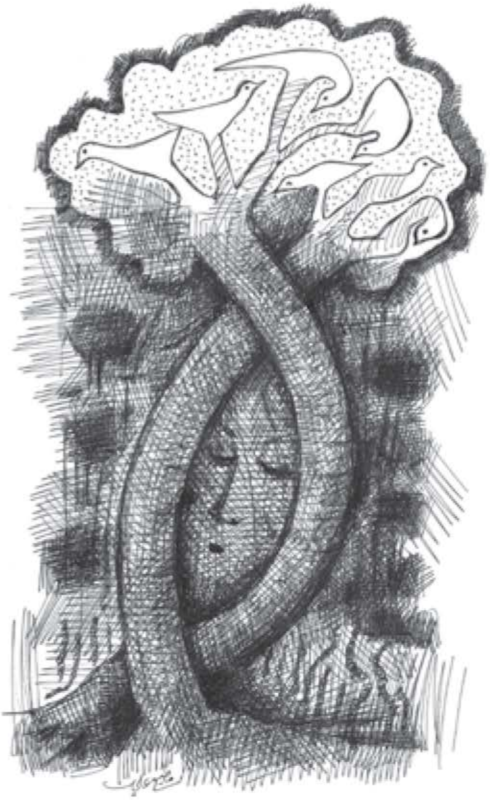
يمـد يـده بإصرار حاملاً طاقة من ورود حمر يرجوني أن أقبلها.. يؤكد أنه لا يعرفني ولن نلتقي مجدداً يقول: عدِّيها من السماء ولن تريني مجدداً.

بذهول يدور حوار سريع بيني وبين صديقتي من دون كلام.

أي قصة تحكيها الوردات الحمر؟

بعـد رفض، أستجمع نفسـي، أتناول طاقة الورد، أحتضنها، وقبل أن أشكره أجده بدأ بالتلاشي من دون التفات إليَّ، ولا أذكر منه إلا قميصاً أخضر وحكاية اختصرتها حركة أصابعه، طارداً من عينيه دموعاً انسلت غصباً عنه ريثما ابتعد..

العمل الفني: الفنان مطيع علي.



أي فجائع تحملها أيها الشارع!!

يشير إلـي الطفل من النـافذة.. لقد رحل..
أتابـع وصديقتـي المسيـر محتضنـة الباقة لنصل دوماً إلى وجع مشترك!

يبسـت الـورود الست فـي غرفتـي بعد أن غادرها احمرارها إلى شبـه سواد، وأوراقها الخضر مازالت تشبه جناحي طير!

وحـده الرصيف يـدرك وقـع الخطـا كلما قبلته، وكم يوجعه نقصانها!

أراقب الطفل في الشارع نفسه ما زال يتمتع بابتسامتـه الذابلـة ويشير إلـيَّ أن اصعدي.. ويرمـي بيديـه الصغيرتيـن أوراقـه المطوية بعناية

تخبرنـي الممرضـة: لا نعـرف عائلته لكن حسابـه يسدد دورياً كل شهـر.. هو لم يغادر المشفى مذ دخلها قبل سنوات!

في غرفة الطفل يستقبلني ماداً ذراعيه، مستعداً لعناق كنت أخشاه!!

البياض في كل شبر وسرير المرافق خال من أي دفء.

لم يكن يرغب في اللعب. ينظر إلي ويبتسم فحسب، متشاغلاً بسر أوراقه المطوية!

حضن صغير فحسب عند اللقاء، وآخر كبير عند الوداع.

تدريجياً بتُّ المرافق للطفل.. أنتظر ما ستنطق شفتاه..

يثير ريبتي ورقة ملتصقة بدفتر لم يُسمح لي بالاقتراب منه.. كُتب عليه بخط اليد.. لا أحد يستحق!!

العبارة نفسها التي قالها الشاب قبل اختفائه.. أي رابط بينهما؟

كثـرت القمصان الخضر فـي الشـارع، لكن الشاب لم يعد، والمئذنة تـكاد تنحني كل يوم بينما ترفع أسماء من تمسكوا بحبالهم في السماء، والطفل يدعوني لدس الياسمين المجفف في أوراق يقتطعها عشوائياً من الدفتر ويرميها بفرح عبر النافذة.

ربما هو ينثر وريقات أحلامه.

نادر.. اسم يتكرر في الصفحات الممزقة المكتوبة بخط رديء.. لا شيء مفهوم، فالخط مرتعب مكتـوب على عجل، ونـادر يشبه الطفل في الوصف لكنه غير مكتمـل النضوج الحركي والحسي.. يحتاج إلى رعاية والديه وإخوته على الرغم من سنواته الثلاثين!!

الطفل يبتسم حين أناديه: نادر.

الصفحات تخبرني بما بقي منها أن الطفل ونادر أخوان لأسرة عاشت في منطقة ساخنة لكنهم استطاعـوا الهـرب متخلين عن نـادر لإعاقته الحركية فالوقـت لا يتسع لإنقـاذه وسائق الدراجة النارية يرفض الانتظار!!

لم تردعهم صرخته المبحوحة ويده التي خيل إليه أنها استطالت تلامس ثوب أمه، يقطف بعض رائحتها، يرجوها أنْ برحمك ادفنيني، لا أطيق رحم الأرض!

إلا أن صـورة الأم تتماهى بغبار عجلات الدراجة وصوتها يسكن المسام: رحم الأرض أحن من الجميـع. هي الطريق الأقرب إلى السماء. وحدهـا لا تتشرب الدماء مهما بلغ بها العطش.. تذكر كم تشبه سمرتها وجهي!

ثلاث حيوات مقبلة أخرى.. نجاتهم مقابل موته!

هـي الأخت الصغرى فـي عائلة تعفَّنت جثتا والديها أمامها، ونادر هـو من تركته بين الجدران ينتظر عودتها التي وعدته، إلى أن رأوا صوره هيكلاً عظمياً شبه متفحم! لا أحد يدري أيهما فتك بشبابه أولاً الجوع أم الحرب.. الخذلان أم النـار!

(لقـد طلـب زيارة أخي في المشفـى.. احتضنه وبكى كثيـراً).. تلك هي الجملـة الأخيرة التي تمكنت من قراءتها.. لأجد بين الصفحات..

أسميتـه نـادراً.. بات يضحك لذكـر اسمه.. لغيابك خذلان لن تعرفيـه.. لا عيب فيه سوى أنك شاركته دمه، لا أدري أي جنون يجعلني في التاريخ نفسه أجوب الشوارع بوردات بعمر نادر الجديد أبحث عنك!

❁ ❁ ❁

صباح يختلف قليلاً

رباب هلال

فـي أثنـاء نزولهـا درج البنايـة، سمعت الآنسة نجـاة صوت شجـار قريب. بات الأمـر عاديّاً. الشجارات تحدث في الحارة، بشكل يوميّ تقريباً، وفي المواقيت كلّها. في الطابق الأرضيّ للبناء المقابـل، لقيت جارتيها أم فارس، وأخرى لا تعرف اسمها، تتشاجران بسبب شطف الدرج. كان صوت الجارة الأخرى أقلّ حدّة وأخفض. نازحة جديدة. هربت من دير الزور.

كان من الصعب أن تصلهما تحيّة الصباح. فتابعت طريقها لشراء مستلزمات البيت وحاجيّاته. مثل كلّ صباح.

كانـت الآنسة نجاة نازحة هـي الأخرى. هربت وعائلتها من قريتها فـي الغوطة الشرقيّة، منذ ثلاثـة أعـوام. غير أنّ ثلاثة أعوام لم تتكفّل بردم الهوّة التي انحفرت في روحها مثل قبر مفتوح. هـوّة تتناسل يبابـاً، وتتكاثر مثل ديدان الموتـى. ثلاثة أعوام لم يكفّ حنينهـا عن ضرب القلب والذاكرة. شيء وحيد تتوّجع لفقدانه في بيتها هناك، المكتبة. الكتب. لكن ما يعزّيها أنّ عائلتها الصغيرة ظلّت بخير، وأنّ نزوحاً أقبح وأقسى لم يضطرّها لمغادرة البلد، كما تردّد.

قالـت فـي نفسهـا: «نفرّ من معـارك قاتلة إلى أخـرى سخيفـة منغّصة». وكانـت تقصد تلك الشجـارات التي تدور في الحارة مـن أجل شطف أدراج الأبنية، شجـار الأولاد الذي يتحوّل إلى

العمل الفني: الفنان مطيع علي.

شجار بيــن الأهالي، احتكار الأماكن لركن السيّارات، القمامة الملقاة كيفما اتفق، وعلوّ أصوات المسجّلات أو (التلفزيونات) ليل نهار. وغير ذلك من المسبّبات الأخرى التافهة، قياساً لأهوال الحرب. مثل هذه الشجارات كانت تنشب أيضاً قبل الحرب، لكنّها اليوم كثرت وانفلتت.

«يـا ربّي، كـم يضيق العيش!» تأفّف صدرها وهي تنعطف إلى يسار البناية، متّجهة صوب دكّان الخضار والفواكه المعروف بأسعاره المعتدلة، قياساً لجشع غيره من الدكاكين واستغلالها.

فـي الدكّان، جالت ببصرهــا على صناديق الخضــار والفواكه المصفوفة. ومـا تزال شاردة، وغصّـة تغضّن جبينهـا: «الحياة في القرية أكثـر بساطة وطيبة وسلاماً، تشبـه الغوطة. وكأنّما السـكّان يشبهـون المكان!» لكنّ قسمات وجههـا استرخت حين انتبهـت ورأت الخضار والفواكه الطازجة بألوانها المغرية. فأردفت: «وما يزال خير كثير في هذه الأرض المحروقة».

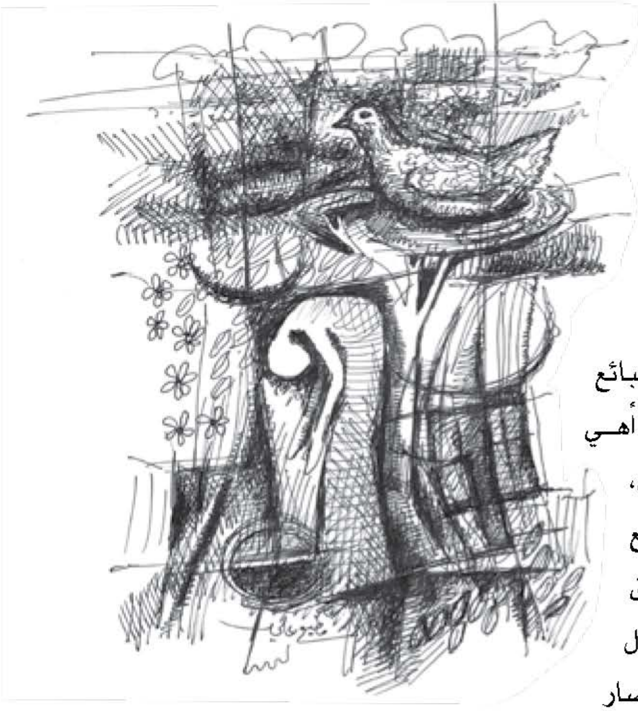
صباح الخير! قالت للبائع. لم يسمعها. ثمّة زبائن.

عــدم ثبات الأسعــار، واختفاء بطاقاتها عن السلع، فرض عليهــا أن تسأل عن سعر كلّ صنف. كان عليها أن تشتري بحساب دقيق.

عندما رآها البائع، قال: «أهلاً بك، آنسة نجاة!».

على عكس نساء الحارة المتزوّجات اللواتي يندر أن تُعرف أسماؤهن الشخصيّة، فهنّ أمّ فلان، أو زوجـة علّان. فإنّ اسم «الآنســة نجاة» ظلّت تُنادى به، مثلما يناديهــا تلامذتها في المدرسة، وبعض أوليائهم من أهالي الحي. وكما يناديها تلاميذ آخرون تعطيهم دروساً خاصّة. تلك الدروس الخصوصيّة لطالما كانت الآنسة نجاة تنبذها بشدّة، وتعدّها وصمة عار تربويّة وبلادة مجتمعيّة. كان ذلـك قبل سقوطها فــي دوّامات الحاجة والعوز. وكثيراً ما تتســاءل برعب عن المبادئ التي تحوّلهــا الحرب إلى وجهات نظر، وعن تركها قيد رهان المستجــدّات والاحتمالات والقدرة على المقاومة.

وضعت أكياسها القليلة على الطاولة قرب الميزان. كان عليها أن تتريّث قليلاً. سمعت الزبونة الأخـرى تقول للبائع، وهي تجمع مشترياتها: «وهل أصبح باستطاعتكم العودة إلى حلب؟» تابعت الآنسة نجاة بنظراتها خطوط السخرية المحزنة وهي تنزلق في خطوط وجه الرجل الحلبيّ. قال: «صحيـح أنّ المنطقة صارت أكثر أماناً، إنّما البيت حطام. يلزمه كثير من المال». قالت الزبونة بصوت دامع: «الله المعين». واستدركت وهي تحمل أكياسها، تسأل البائع: «نسيت أن أسألك إن كنـت جرّبت الباميا؟» أجاب مظهراً إعجابه، وهو يحكّ رأسه بقلم المحاسبة: «بالفعل الباميا



ممتازة، انخفض السكّر عندي.
إي والله، تمام!» قالت المرأة وهي تنسحب: «عظيم! معافى، إن شاء الله».

أشارت الآنسة نجاة بإبهامها إلى الخلف، تقصد المرأة التي خرجت، وباليد الأخرى تضع كيساً على الميزان. وسألت البائع المشغول بتسجيل الحساب: «أهي نازحة أيضاً؟»، أجابها: «نعم، نزحت من..». اندلع رصاص قطع الكلام. كأنّما اندلع في الزقاق نفسه. رصاص صعق الآذان وأجفل الأبدان. علّقت الآنسة نجاة: «صار أصغر الزعران يحمل بمبكشن». وأردفت وهي تنظر إلى شاشة الميزان الحمراء: «لا، لا، أريد كيلو واحداً فحسب، لو سمحت». فالزيادة تعني لها خلخلة في الميزانيّة. الوقت أواخر الشهر. ولا دروس خصوصيّة في الصيف. هي معلّمة ابتدائي. صدمها سعر الباذنجان، فأنقصت حبتين منه، وهمّت تقول شيئاً، لكنّ الرصاص عاد. أسكتها. ثمّ توقّف. فتابعت: «وهل البامياء تنفع مرضى السكريّ؟» سألت وهي تلمّ أكياسها. لم يجب البائع وهو يعيد إليها باقي المبلغ، منشغلاً بزبون آخر. ومن جديد اندلع الرصاص. تمنّت في سرّها لو حدّثها البائع كيف أن البامياء تعالج سكّر الدم. فالضمان الصحيّ لا يؤمّن لها الأنسولين دائماً، وإن توافر في الصيدليّات فثمنه باهظ. وماذا عن الضغط؟ مرضان يفتكان بها إثر النزوح. رصاص. «صرنا لا نميّز لمَ يطلق الرصاص». همست لنفسها. تذكّرت أنّه ليس لديها بهارات. لا بأس، ليكن الطعام اليوم بلا بهارات. رصاص. رصاص. رصاص. ارتجفت. إذن ثمّة تشييع شهيد جديد.

«يلعن». قالتها مفردة وحيدة مسموعة. لم تخصّ أيّ أحد أو جهة بقذف لعنتها.

حيـن استعـرت الحرب كانت تتبع هذه الـ(يلعن) كلمات عدّة مثـل: «يلعن كل شيء». «يلعن أبو العالـم». «يلعـن من كان السبـب». وغيرها من كلمات تلزم لمواجهة بائسة. ثـمّ تحوّلت إلى أداة لقنص حفنة هواء لا أكثر. ولأنّ تلك الإضافات لم تُجد نفعاً، والواقع كاد يبتلع الهواء كلّه، بأحداثه العنيفة المذلّة، المتراكضة خارج حدود المنطق، والاستيعاب، والرحمة، تطوّرت تلك الـ(يلعن) إلـى التكثيف والتفرّد. هكذا بدا الأمر ظاهريّاً. صارت أكثر سعة، وأعمق. تكثيف لتأريخ يوميّات الخراب. (يلعن) هذه تجرّدت من أيّ ستر. فضيحة وتعرّت. ومثل شرر النار لا تني تتطاير، عبر أسـلاك الهواتف الأرضيّـة، والخلويَّة. على صفحات التواصل الاجتماعـيّ. في الشوارع والأزقّة. على الشرفات. في غرف النوم. في وسائل المواصلات. بمحاذاة أطفال يتوسّدون الأرصفة. في الدكاكيـن والمتاجر الكبيرة. في المؤسّسات والشركات. في المدارس والجامعات. في المشافي والمقابـر. مـع قهـوة الصباح. علـى الموائد الشحيحـة. في الكوابيـس. فـي الأرق. وكأنّما تلك الـ(يلعن) أضحت أيقونة أو تعويذة.

(يلعـن) المفـردة المتفرّدة، تُطلق كأنّما متبوعـة بنقطة النهاية، حاسمـة وجازمة في بؤسها وهزالتها. نقطة نهاية تعني أن انتهى الأمر، فلا شيء من هذا الخراب يُراد له أن يزول، في مدىً مقـدّر. (يلعن) هذه تنطلـق مع زفير الجميع وتتخفّى مع شهيقهم، تؤجج في صدورهم تهديداً لا يهـدأ سعيـره. و«الجميع»، هم أولئك المجرّدون من كلّ شيء حتّى مـن حقيقة وجودهم. وكأنّهم ظلال، أشباح. أولئك الـ: من يأبه بهم؟! إنّما ما الذي بوسع هؤلاء «الجميع» فعله، والحياة لم تكفّ بعـد عـن الدبّيب فيهم، وهم لا ينفكّون يدبّون فوق هذه الأرضـ. (يلعن) التي تخصّهم وحدهم، مجـرّد سلاح كرتونيّ يصنعه أطفال الجوع، يطلقون عبـره رصاصاً شفويّاً لقتل آكلهم المنتصر منذ أوّل التاريخ. (يلعن) هذه تفهمها الآنسة نجاة تماماً. تعرفها. عايشت تحوّلاتها المخزية.

الرصاص لا يتوقّف. يلعلع كثيفاً، صلباً، حديديّاً، حـادّاً، يشطر الأنفاس. وفي بعض الأحيان، مزّق أجساداً.

فجـأة، انطلقـت منها (يلعن) تختلف. انفلتـت بأقسى ما يمكن للعنة فيهـا أن تنفلت. «يلعن». ساخطة مقهورة، أطلقتها الآنسة نجاة لحظة شاهدت أمامها طفلة لا تتعدّى عشرة أعوام، تروح وتجـيء في أقلّ من متر مربّع. تتقدّم. تتراجع. تركض. تدور كمحور هائج في دائرة من حرائق. تبكـي. تصـرخ. أيّ صـوت للنحيب والصراخ لـم يكن يُسمـع. رصاص. رصاص. هلـع. صراخ. إيماءات.

صبيّ صغير يركض نحو الطفلة، يحاول الإمساك بها وتهدئتها، أحد العابرين يُهرع لنجدتها. الطفلة ما تزال في دورانها الجنونيّ. في إيماءاتها الذبيحة. والآنسة نجاة لا تصل إليها. تبغي احتضانها. ارتمت الأكياس حولها. لا تتقدّم. و«يلعن». الأخيرة تلك حسبتها صرخة سيضيق بها الفضاء. غير أنّ لعنتها تلك، علِقتْ على طرف لسانها، مثل ناب وحشيّ. غاص في الحلق. ثمّ انزلق نحو القلب وفيه انغرز بشراسة. كيف لهذه الـ(يلعن) ألّا تخرج هائجة كعاصفة. تزيح هذا الرعب النازف. تبتلعه. لا تزال تفتح ذراعيها للطفلة. الطفلة تتلوّى بشدّة بين ذراعي الرجل العابر. رصاص. رصاص. صراخ مكتوم الصوت. تراه بأمّ عينيها. فأيّ جبّار بإمكانه أن يسمع هذا اللّا صوت؟

لم يكن الرجل تمكّن بعدُ من تهدئة الطفلة، وما زال يحملها، تتحرّك شفتاه. إنّه يكلّمها. ولم يبرح الصبيّ يدور حوله، ذراعاه لا تهدأان أو تكلّان. لا يستسلم في محاولاته العبثيّة للإمساك بقدمي الطفلة أو بيديها. فمه مفتوح على شكل الصرخة. أصابعه تمسح عينيه. إنّه يبكي. إيماءات هلعة تتخبّط وسط هذه الجهنّم، وعلى مرأى من الآنسة نجاة. وتلك الـ(يلعن) الأخيرة لم تنطلق من صدرها إلى أيّ مكان. بل أقعت في قلبها مثل كلب هرم واهن يختم حياته الذابلة وشجاعته الآفلة باستسلام مقيت. ثقل قلبها. رفعه الذهول الصلب إلى أعالي قمم الضغط والسكّريّ. كانت تشعر به ينفلش. يتشتّت مثل تشتت محتويات أكياسها حولها وانفلاشها، بين أقدام العابرين.

انبثق صوت هلع آخر يطلق: «يلعن». صوت قريب جداً منها. صوت غريب عنها. اخترق أذنيها. توقّف الرصاص. «يلعن» هذه سمِعتْها. كأنّما قيلت من أجلها هي. سمعتها فيما تدور، وتدور، ثمّ تسقط.

❁ ❁ ❁

صفرتها

زهير جبور

عـادةً يفيق الطفل على صفير القطار المغادر ومن قبـل يكون في حلمه، وهي منشغلة بتحضير قهـوة المعلم الـذي يرتدي ثيابه على عجل، وفرحها يزهر وهجاً انعكس أملاً يعلو ملامح وجهها المشع في البيت الصغير.

قبَّلها.. وغادر.. لوحت بيدها.. وعادت إلى النوم من جديد.

يسيـرون بعد صلاة الصبـح، فالشارع خالٍ من المارة وهم يطلقـون كثيراً من الكلام المتصل ببعضه، وكان قد عرفهم جيداً.

أحدهم يبصق قائلاً:

- باعونا.. لعنة الله عليهم.

يسأله آخر:

- ماذا سميت تصرفاتهم؟

- اسمها سيناريو (يا حجي).

-هذا ما رغبت في قوله، لكن اللفظة خانتني فنسيتها، اعذرني.

يضحكون...

يلقي عليهم تحيـة الصباح.. يردّون جميعهم ببشاشة، وهو يجتازهم بخُطا سريعة، فثمة قطار سوف يصفر ليقطع حلم صغيره في البيت ويوقظه، يسألهم وهو يدير وجهه صوبهم:

- ما هي الأخبار؟

يردّ الحاج:

- وضيعة يا معلم. زفت. باعونا. جعلونا صفقة.

يضحكون...

قـال الطفل الـذي كان يحلم «قبل أن يخرج المعلـم من البيت ويقبِّل أمه التـي أحبته وتزوجها محققاً فيه وفيها حلمه السعيد»:

- يا ربي كل يوم يسافر البابا

أجابت وهي متحفزة لسماع الصفرة:

- اغسل وجهك لتتناول فطورك.

- يا ربي كل يوم إفطار.

- من أجل صحتك. وليراك البابا جميلاً باستمرار.

منـذ سنـوات يلتقيهم بعد صلاة الفجر. لا تبدل في حديثهـم، وفي المحطة سيتوقف عند باعة الكعك، التبغ، العلكة، أوراق اليانصيب، وسوف يشتمون، وسيجدها مكتوبة على وجوه المسافرين، وزملاء العمل، والشرطة، يقول عجوز القهوة المرة وهو يضرب بالفناجين مُصدراً صوتاً خاصاً:

(خود هالشفة وادعيلي

وعن الظلم لا تحكيلي

وإذا إنت ما بكيت

ليش عند هالصبح لتبكيني)

يتناول الشفة.. ويمضي ضاحكاً

صفر القطار...

صرخ الطفل:

- هذا بابا... هذا قطار بابا..

دوت الصفرة الطويلة ذات النغمة الخاصة، ابتسم خلف مقوده، ابتهجت لأنها صفرتها الخاصة، منذ أن أحبها قدّمها هدية ذات موسيقا تفضلها عن أيّ موسيقا عرفتها، كانت تسمعها على سرير (عزوبيتها)، وخطوبتها، وزواجها، وبعد إنجابها، وهي توقظ بداخلها شعوراً لا يوصف، لأنها تعني

كثيراً لحياتها، وقد اعتادها سكان المدينة وضواحيها، لكنهم لا يعرفون سرها، هي الوحيدة التي تطرب لها، إنها صفرتها الأسطورية، نورها الداخلي، تتلاشى في الفضاء، يغيب صداها، ليظل متردداً طيلة النهار إلى المساء، حين تتكرر... تسرع لتحضر المائدة، قائلة للطفل:

- عاد أبوك. انتظره قرب الباب.

سيحضر عامل القطار حاملاً كأس شاي و(سندويشة) البيض مع اللبنة، سيقرب المنضدة الصغيرة، ويرمي أعقاب لفائف التبغ المتبقية من رحلة عودة يوم أمس، وسوف يشتم ويستمع إليه للمرة الألف، وبعد ثوان ستذاع الأنباء كما هي. الموت. الإرهاب. الاحتلال. شخصيات ربطات العنق الذين يشاهدهم مساء على شاشة التلفاز يصرخون. يحللون. إنه (السيناريو) اللفظة التي خانت الحاج ونسيها، تدق (بيغ بن) يدخل عامل الخدمة بسحنته المعهودة، وبؤسه الزمني، وخيبة عيشه الكونية.

لم يتمكن من احتساء الشاي، ولا أكل (السندويشة) ولن يفسح المجال للآخر كي يشتم أو ينطق، والصندوق الأسود لم يسجل تفاصيل ما حدث، والانفجار أودى بحياة ركاب القطار، وكان أسرع من الزمن و(بيغ بن)، سموها فاجعة إرهابية.

صرخت زوجته:

- يا أمي.. يا أمي... دخيلك.

مزقت ثوبها، نتفت شعرها، ويترقب الطفل الصغير الصفرة واقفاً أمام الباب، وهي تصرخ بجنون، أو تصمت بموت.

بعد الصلاة قال الحاج:

- بالأمس صبّح علينا.. وسأل عن الأخبار.

ثم راح يشتم... وقد شيعت الصفرة.

❀ ❀ ❀

ذكريات عالقة

سامر أنور الشمالي

- ظننت الأمر انتهى في حينه، وأنه مجرد نزوة عبرت وانقضت. ودون انتظار عاد ما جرى إلى مخيلتي. وحاولت النسيان من جديد.. لكنني لم أستطع.

قال بصوت أرهقه التعب والأرق. فسأله فريد:

- هل حدث شيء في حياتك أيقظ ذكرياتك المنسية؟!

- مضى أكثر من أربع سنوات.. والأحوال تغيرت.

قال وكأنه يدفع عن نفسه تهمة خطيرة. وأعاد فريد طرح السؤال بطريقة أخرى:

- ما أهم عمل قمت به في المدة الأخيرة؟

صمـتَ، وكأنه يحتاج إلى قليل من الوقت ليعرف الجواب الصحيح، ثم لفظ كلمة واحدة، وكأنه يبصق شيئاً يابساً علق بحنجرته:

- تزوجتُ..

ثم استدرك مسرعاً في الكلام، حتى إن شاربه الكبير اهتز أكثر من المعتاد:

- لكن زوجتي لا علاقة لها بالأمر.. ولا تعرف عنه شيئاً.

- ربما خشيت فشل علاقتك بزوجتك نتيجة خدعة ما.. أو أنك لا تثق بها.

العمل الفني: الفنان عبد الوهاب حمزة.

تعمد فريد إطلاق تعليقات استفزازية لتحريض أدهم على البوح بما يحرص على كتمانه. ولكنه كان حذراً، وسريع الغضب أيضاً، فكاد يصرخ وهو يقول:

- لو لم أثق بها ما تزوجتها.. وهي تحبني.. تحبني جداً.

- هل علاقتك بزوجتك جيدة؟

حدق أدهم في الفراغ، ثم أجاب فريداً بصوت منكسر:

- بدأت أفقد الرغبة فيها على الرغم من أنني أحبها. لاشك في أنها تعاني، ولكنها لم تحدثني بالأمر حتى الآن. ولكن هذا لا يعني أنها ستصمت إلى الأبد.

وأردف بحرج:

- فشل الطبيب المختص في علاجي، ونصحني بمراجعة طبيب نفسي لاعتقاده بأن مشكلتي ليست عضوية؟!

تأمل فريد في ملامح وجه أدهم الذي زاد التجهم من غلاظتها وحدتها، ثم قال بنبرة لم تتغير منذ بداية الحديث:

- هذه مشكلتك الحقيقية.. تريد الإثبات لزوجتك أنك رجل حقيقي. فلم تحدثني عن رغبتك في المتعة، أو عن ضرورة إحساسك بالسعادة.

- لا فرق.. المشكلة هي نفسها.

قال أدهم بيأس، وعقب فريد:

- الذكريات التي تريد الهروب منها تطاردك حتى السرير.

هز أدهم رأسه، وتكلم ببطء:

- أتذكر تلك المرأة التي كانت تصرخ في وجهي وأنا أمزق ثيابها، يومها كنت أضحك لأنني وجدت الأمر مضحكاً بالفعل. ولكن الأمر اختلف وأنا أرى زوجتي تتعرى بمفردها.

- هل تلك المرأة تشبه زوجتك؟

سأل فريد. فطوح أدهم بيده أمام وجهه وكأنه يبعد بعوضة مزعجة، وقال باستخفاف:

- كل النساء يتشابهن.. ربما تشبهها.. وهذا لم أتعمده.. تلك المرأة كانت زوجة مروان.. كنت أراه في الحانة.. ونشأت بيننا صداقة مميزة، فشارب الخمر بحاجة إلى نديم.. وعندما قدم لي

مفاتيح منزله وطلب إليّ الاختباء إلى حين عودة زوجته.. ثم يدخل ليضبطها مع رجل غريب في منزله.. وبذلك يستطيع تطليقها دون أي التزام مادي أو معنوي.. ولكنني أتيت قبل الموعد.. فاجأتها وتمكنت من اغتصابها.. لم أتفق مع مروان على ذلك.. وعندما اعترض قلت له: أنت ستطلقها على أي حال فما يضرك إذا استمتعت بها مرّة واحدة كأجر أو كمكافأة..

نخر أدهم، وتابع كلامه:

- شتمني، فضربته، وكدت أقتله لولا تدخل روّاد الحانة. ومن يومها لم أعد أذهب إلى تلك الحانة، وربما هو فعل الأمر نفسه.

صمت أدهم طويلاً، وكأنه فقد الرغبة في الكلام، فسأل فريد:

- ماذا تحب في زوجتك؟

تقلصت شفتا أدهم للمرة الأولى، وكشفتا عن أسنان مدببة صفراء، ثم تحدث بهدوء:

- جمالها من النوع الغريب والمحبب.. نادر أن ترى امرأة سمراء بعينين زرقاوين.. وشعر أسود طويل ناعم.

ارتجفت يد فريد الممسكة بالقلم، وسقط الدفتر الصغير الذي يدون فيه الملاحظات، وخرج صوته من بين شفتيه:

- ما اسمها؟

التفت أدهم مستنكراً، وحدق في وجه فريد الذي دارى ارتباكه بقوله:

- ردَّدت في حديثك اسم امرأة، وأردت معرفة إذا كانت المرأة نفسها. هذا مهم لمعرفة جَلِيَّة الأمر.

لم يذكر أدهم أنّه أورد اسم أي امرأة، وعلى الرغم من ذلك قال بلا مبالاة:

- يارا.. اسمها يارا..

حيلة فريد نجحت، وتأكد له أن يارا لم تخبره بالقصة كاملة. وتذكَّر بدقة وجهها الحزين، ودموعها الغزيرة، وصوتها الرقيق: (لم يتمكن من النيل مني وتحقيق مأربه.. كنت أريد قتله.. كنت أستطيع ذلك.. لكنه أسرع بالفرار.. دخل مروان فجأة.. تفقد الأبواب والنوافذ فلم يجد أي أثر لكسر أو خلع.. اتهمني أنني على موعد مع الرجل الغريب على سريره.. رفض الاقتناع أنه مجرد لص يستطيع التسلل إلى أي بيت ومعالجة الأقفال.. ربما نسيت إغلاق الباب أو النافذة عند خروجي.. ثم طلب إجراء الطلاق في المحكمة بهدوء حرصاً

علـى سمعتي.. كان رجلاً نبيلاً حتى في طريقة إنهاء علاقتنا.. هو معذور في شكوكه.. ضع نفسك مكانه).



حينها رغب فريد بشتى الطرق في أن يضع نفسه مكان مروان الذي لم يعرفه عن قرب. وأراد أن يبدو في نظرها أكثر نبلاً منه، فقال:

- أنا أصدقكِ.. أنت امرأة رقيقة لا تجيدين الخداع والكذب.

ورآها تبتسم برضا، وحينها لم يعرف إذا أحبته بالفعل لشخصه؟! أم وافقت على الزواج منه لأنه صدقها؟! بل هو نفسه لم يعرف هل أحبها لشخصيتها المميزة؟! أم لأنه فشل في علاجها بالكلام والمهدئات؟!

حينها كان حديث التخرج في كلية الطب النفسي، وظن نفسه سيشفي العالم من كل عُقَده النفسية.

- اسمها نادر أيضاً.. أليس كذلك؟!

قال أدهم دون اكتراث.

لم يعد فريد ينتبه إلى حديث مريضه، كان يفكر في أنه بحاجة إلى قرار سريع، وكانت تتنازعه الهواجس: هل يسمح لأدهم برؤية يارا ليعتذر منها كي يشفى من عقدة الذنب التي يعاني منها.. وهذا دوره كطبيب؟! أم يتركه يتعذب لأنه يستحق.. فهو من عذَّب يارا أولاً؟! هل يدع يارا تستمع لأدهم لتعرف أن مروان لم يكن نبيلاً.. كما ظنت؟! أم أن التحدث في الموضوع من جديد سيجدد ذكرياتها.. وستفكر بمروان؟! هل ينتقم منه لإساءته إلى المرأة البريئة التي يحب.. ويعالجه بطريقة تُفقده صوابه؟!

وبعدما طال الصمت وجَّه أدهم سؤاله الأول:

- دكتور.. هل انتهت الجلسة؟

- أجل..

وأردف، وقد حسم أمره:

- سأسافر خارج البلد في بعثة طبية لمدة أربع سنوات.. وسأعطيك عنوان طبيب نفسي.

- كان يودِّي المتابعة معك. ارتحت إلى الحديث معك.

قال أدهم وعلى شفتيه شبح ابتسامة باهتة سرعان ما لمَّها، فلم ينظر إليه فريد، وشغل نفسه بكتابة كلمات قليلة على ورقة صغيرة ناولها لمريضه دون النظر إلى وجهه لأنه أراد نسيانه إلى الأبد.

خرج أدهم من غرفة الطبيب، مثقلاً بالمزيد من الخيبة، وكان يفكر إذا كان ثمة ضرورة للذهاب إلى طبيب نفسي آخر، أو مراجعة طبيب مختص بالأمراض العضوية.

(٢)

عادت الممرضة من الخارج، وجلست خلف طاولتها، ورأت المريض لأقل من دقيقة وهو يغادر العيادة، وعلى الرغم من ذلك أحست نحوه بشعور غير مريح. ثم قالت للدكتور:

- لا أذكر أين رأيت هذا الرجل.

هز فريد رأسه، وقال متصنِّعاً لهجةً لا مبالية:

- الإنسان قد يرى شخصاً لأول مرة ويظن رؤيته من قبل لأنه يذكِّره بمن يعرفه. على أي حال هذه أول مرة وآخر مرة يدخل العيادة فلا تأبهي لأمره. أخبرني أنه مهاجر خارج البلاد ولن يعود.

قال فريد منهياً موضوع الزائر الغريب. وقالت الممرضة وهي تخلع نظارتها السوداء:

- شكله مخيف. عندما رأيته سرت رعدة في جسمي.

- جائع اليوم. سنذهب إلى المطعم حالاً..

قال فريد وهو يتأمل عينيها الزرقاوين اللتين يحب لونهما وبريقهما، وأردف وهو يتخلل بأصابعه شعرها القصير المصبوغ بالأصفر الذهبي. أما قبل زفافها بيوم واحد فكانت ذات شعر طويل أسود، ولكنها أرادت أن تبدأ حياتها الجديدة بشكل جديد أيضاً:

- سأقدم لك هدية هذا المساء.

كان فريد يريد تشتيت انتباه يارا وإشغالها بعدة أشياء لتنمحي من ذاكرتها صورة الرجل الغريب الذي رأته منذ قليل. وتساءلت يارا:

- ما المناسبة يا عزيزي؟

- التعبير عن الحب لا يحتاج إلى مناسبة.

قبلته بامتنان، وهي تتناول وشاحها، وقالت وعلى شفتيها ابتسامة عذبة:

- كم أنت لطيف هذا المساء!

ابتسم فريد في وجهها الأسمر، على الرغم من الغصة التي أحسها في حلقه، فقد شعر أن يارا خذلته عندما كذبت عليه، ثم لم تعترف له بأنها خدعته، مرجِّحاً أنها لا تثق به كما ظن.

(٣)

وهي تغلق باب المنزل خلفها شهقت وكأن أحدهم ألقى بها في بحيرة من الماء البارد، فأمسكها فريد من يدها وسألها بقلق وهو يقودها إلى مقعد حجرة الجلوس:

- ما بك؟

- مأكولات المطاعم لا تناسبني.

لم تخبره أن ذاكرتها نشطت فجأة، وأنها تذكرت أنها رأت الرجل الغريب للمرة الأولى في السرير الذي كان يجمعها مع زوجها السابق. وبحركة لا شعورية قبضت بقوة على المفاتيح التي كانت في يدها.

كانت قبل الزواج قد طلبت من فريد أن يضع أقفالاً إضافية للأبواب، وشبكاً حديدياً للنوافذ. وقالت له حينها: إنها تخشى اللصوص. ولم يحاول فريد ثنيها عن رأيها لمعرفته أنها تعاني خوف الاغتصاب للمرة الثانية.

❀❀❀

قالت في نفسها وهي تفتح صنبور الماء.

- لو تذكرته حينها لمزقت وجهه بأظافري.. جيد أنه لن يعود مرة ثانية إلى العيادة.. أنا امرأة سيئة الحظ.

ظنــت أنها نسيتــه إلى الأبد، ولكن تلك الذكريات عادت إلى مخيلتها وكأن ما جرى منذ سنوات وقــع بالأمــس، وهذا ما جعلها تشعر بالقــرف من كل شيء، حتى إنها تقيــأت الطعام في الحمام، وفركت جسدها بالماء والصابون مراراً.

❀❀❀

استلقت على السرير لتريح جسدها المتعب من قسوة الذكريات، لهذا اعتذرت من زوجها الذي عبّــر لها بقبلة على جيدها عــن رغبته في قضاء ليلة حب جميلة، لأنه شعر بأن زوجته بحاجة إلى المزيد من الحب. لكنها لم تستطع النوم، وظلت عيناها تبرقان في العتمة كنجمتين زرقاوين.

أما فريد فاستغرق في النوم لأنه لم يكن لديه ذكريات تسهده طوال الليل، وأطلق شخيره الذي اعتادت عليه يارا. ولكن تلك الليلة شعرت بأنه سبب أرقها.

❀❀❀

فجأة هبَّ فريد من نومه، متأثراً بالكابوس المريع.

خُيِّــل إليــه أن المريض الــذي زاره في العيادة صباح اليوم يختبئ تحــت السرير منتظراً الوقت المناسب ليخرج ويغتصب يارا مرة أخرى!!!

❀ ❀ ❀

الساعة الملعونة

سهيل الشعار

تك... تك... تك..

أسمعهـا (تتكٌّ) داخل رأسي وبين ضلوعي.. وأسمـع كل شيء يتك من حولي (تكّات) متواصلة غير منقطعة..

حتى بائع البطاطا في الشارع الطويل (يتكٌّ) بدلاً من أن ينادي:

بطاطا... بطاطا...

وبائع البندورة يتك.. وعربة البطيخ تتك.. والسيارات.. وزبائن المقهى وإشارات المرور ورجال الشرطة، ودور السينما تصدر الصوت نفسه والنغمة نفسها:

تك... تك... تك...

هـذه السـاعـة الشيطانية المعلقة فوق سريـري، تتك بداخلي، وإذا استمـرّت هكذا فلن أتوقّف لحظة واحدة عن سحقها تحت قدمي..

ستصرخ أمي في وجهي:

ماذا فعلت يا مجنون؟

العمل الفني: الفنان عبد الوهاب حمزة.



وسيتأخّـر أخي عن الدوام، أو سيذهب باكراً، ولست أدري ماذا أفعـل؟ أحطّمها؟ لا.. نعـم.. لا.. وحيرة وتـردد وقلق، كلّها تسيطر وترفرف فوق رأسي..

أعرف أن عقابي سيكون شديداً لو فعلت وحطّمتها، سيطردنـي أخي من المنزل - كمـا فعل في المرة الأولى- فقد حدث ذات يوم وحطمت ساعة كبيرة كانت معلّقة على الجـدار، تناولتها ورميتها من النافذة إلى الشارع الطويل، فاصطدمت برأس بائع البطيخ، أُسعـف على إثرها إلـى المشفى... ولمدة شهر لم أعـد أسمع صوت البائع، كما أن بقية الباعة غادروا الشارع إلى شوارع أخرى..

وبعـد التحقيق، سُجِّلت القضية ضد مجهول، وعدت إلى البيت بعد ثلاثة أيام، فوجدت أخي قد أحضر ساعة أكبر من الساعة السابقة، ولها صوت أقوى وأشدّ.

حذّرني قائلاً:

هــذه المــرة أسقِطها على رأس بائع البطاطا أو بائع البنــدورة، لا فرق. أخي، المهم أن تصيب رأساً ما.

وصمت لحظة ثم تابع:

هل رأيت يا عفريت،

بائع البطيخ لا يزال في المشفى!

-٢-

تك... تك... تك...

وكل مـا حولي يتك، الكتاب، الدفتر، الأقلام، الشـارع الطويل، والمارة وأمي وإخوتي والجيران جميعهم..

لعن الله الساعات، لماذا لا يصنع الإنسان ساعة تسير عقاربها بصمت؟!

طلبت من أخي أن يبيع ساعته الشيطانية، لكنه اشترط وهو يضحك من كلامي:

أبيعها أخي بشرط أن أعلّقك مكانها، موافق؟

فكرت في كلامه، تصورّت نفسي معلقاً على الجدار، شيء مضحك، يطلب مني أن أكون مكانها، وأنا لا أطيقها ولا أتحمّل تكاتها، قال يعلقني مكانها قال؟!

وزاد على ذلك:

وأن تتك أيضاً، فما نفعك إذا كنت أخرس؟!

أنا معلّق على الجدار، وأتكّ أيضاً، (يا سلام سلّم).

تك... تك... تك...

ولم يبعها، ظلت تتك في داخلي وفي رأسي، ومع كل تكة، كانت نهاية صبري تقترب، لم أستكن، ولن أستسلم، فلا بدّ وأن يأتي يومكِ أيتها الساعة الملعونة!

-٣-

ذات صباح، نفد صبري، لم أستطع تحمّلها أكثر، تكت بشكل جنوني، نهضت عن الفراش وأسرعت نحوها، كان أخي وأمي في الغرفة المعلّق على جدرانها تلك الساعة، دخلت دون أن ألقي تحية الصباح، قفزتُ كالمجنون تناولتها بأصابع قاسية:

تعالي يا حبيبة عمري، تعالي.. أنا أحبك جداً، سأعلّمك فن التكتكة.. فقد جاء دوري لأتك بدلاً منكِ، وضعتها تحت قدمي، وأمام نظرات أخي وأمي واندهاشهما بدأت أسحق الساعة مُصدِراً مع كل ضربة فوقها صيحة انتقامية:

تك... وتك... وتك...

❀ ❀ ❀

بواحدة أبعُ…

سوزان الصعبي

يمكن للطوق أن يكون من ذهب أو ورد أو يدين عاشقتين.

مازحتْه وهي ترتب ياقة قميصه: في المرة المقبلة ستأخذني معكَ وإلا كسرتُ لك الكاميرا..

لفّ يده حول خصرها، شدّ شعرها المربوط كذيل حصان.

وقف يطمئن على أناقته قبالة المرآة، وجهه لا تبدو عليه آثار التعب على الرغم من أنه لم ينم سوى أربعين دقيقة، واليوم لديه رحلة إلى بلد آخر، وقد سبقه إليه اسمه، ولن يكون بصحبته سوى طيفها، تلك التي ينتظرها كي تتأبط ذراعه ويتأبط قلبها. وهل تحب امرأة رجلاً بعين واحدة؟

يمكن أن يكون الطوق جنوداً..

الوقت يعلك نفسه ببطء، أنين جدته يزداد ويسود، لا يقطعه سوى طلقات رصاص يتسلى بها أولئك الذين أحاطوا بالحيِّ وتغلغلوا في كل حاراته منذ الصباح الباكر.

لا باب يفتح في كل الحي، لا خطوات مألوفة.

الأرض والهواء والشمس التي بدأت بالمغيب صارت حصّة الجنود، وجدّته تحاملت على آلامها ببعض الشكوى، ثم بالصمت، ثم بالأنين الخافت، ثم بالنداء، ثم بالصلاة، وبالصمت الدامع غزيراً، وبالعويل، وبالصمت.

الكل في البيت يبحث عن حبة أخرى من دوائها، ربما تكون محفوظة في أحد الأدراج أو الحقائب أو تحت السرير.

وحده واظب على مراقبة الشارع من النافذة بانتظار اللحظة المناسبة..

يحدث أن يكون الطوق أضواء..

حيـن دخـل إل الفندق استقبلـه بعض الأصدقـاء من منظمي الحفـل، سيستمـر عرض الأفلام المشاركـة مـن عدة بلدان ثلاثة أيـام، يلتقي خلالها بمخرجيـن. عرف منذ أول فيلـم أخرجه أنه سيجلس وإياهم إلى مائدة واحدة.

تجـوّل في جناحه المطل على جنّة، كاد يضحك بهستيريـة، بعين واحدة قبض على نور، وبالعين نفسها التقط بيوتاً مترهلة وأزقّة معتمة، وأطفالاً بثياب اكتفت من الرتق. هل يمكن لعين واحدة أن تقبض على الجمر؟

حانت اللحظة المناسبة، المدى أسود، وهو صغير وسريع وسيفعلها.

تأكـد من انشغال الجميع بالجـدّة، وبحركة خاطفة فتح الباب فاستـدارت الرؤوس إليه، صاحت أمــه بــه أن ارجع، أشار برأسه: لا، وضع قدمه الأولى خارج الباب ثم الثانية، شدّته أمه نحو الداخل فتشبث بعمود الباب.. سأحضر الدواء لجدّتي..

لـم تعـرف ماذا تفعل، أمها ستموت من الوجع، وابنها يترصـده في الخارج طوق أمني يحرّم على أي كان الخروج، دخلت لتنادي زوجها فيما تأكد الصغير من أنها اللحظة..

أمتـار قليلة سيعبرها ركضاً باتجاه أفقي مقابل البيت تمامـاً، هناك بيت الصيدلاني، وسيُحضر الدواء خلال لحظات.

على يمين الحارة كان يقف جنود، أما الآن فلا أحد.

طـار بخفة الأمل، قلبه يخفق أن تماسكي يا جدّتـي، يده تطرق باب الصيدلاني بخفوت، يستقبله الرجل متوجّساً، يناوله الدواء.

في المنتصف، بين أربعة جنود تعلّم قليلاً من لغتهم العبرية وقف ابن السادسة يتلقى السخرية، قامته لا تصل سوى إلى ربع قاماتهم، والبيوت القريبة بعيدة جداً، بعيدة وصامتة.

جسمه يرتجف، لا من البرد فحسب، بل خوفاً على الدواء.

أربــع بــدلات عسكرية تحيط به، ثمانية أيدٍ تضرب على رأســه ووجهه وبطنه، ثمانية أحذية ثقيلة تركله، وهو صامت ويشتمهم، الدواء لكِ يا جدتي انتظري.. الضرب يستعر، صمته يستفزهم، أربع بنادق تتناوب صفعه، أربع فوهات مفتوحة عليه!

صرخ مرة واحدة: أريد أن أذهب إلى البيت.. انفجر بالبكاء، أوقعوه أرضاً، النوافذ فتحت، الناس يصرخــون في وجوه الجنود، لهاث الجــدّة يقترب، علبة الدواء تسقط مــن جيبه ويخطفها جندي، يمســك الدواء حبة فحبة، يفتتهــا أمام مرأى الصغير، الفوهة تضرب عينه اليمنى بقوة، العين كما أيدي النساء الخارجة من النوافذ تنزف.

أربعــون دقيقة منذ أن قرر الخروج من البيت إلــى أن عاد ممزق الثياب والأعضاء، أربعون دقيقة وعين واحدة باتت تقضم الحياة بطرقاتها التي لا أثر عليها سوى عجلات دبابات العدو.

صالــة السينما امتلأت بالمخرجين والممثلين، الجميع يتبادلــون التحيات ويضحكون أحياناً بلا سبب، جلس في الصف الأول يسأل نفسه: هل أرى حقاً كل شيء بعين واحدة؟

تصفيق حارّ وطويل أعقب فيلمه.

جدّته شاخت وفقدت معظم حواسها لكنها تشاهد الحفل وتبكي.

من قال: إنَّ طفلاً في السادسة ينسى؟

❁ ❁ ❁

آخر شتاء دافئ

طارق سلمان

عَبَــقُ رائحتهــا كان يفجّر دواخل صدره بعواصــفَ تُعيد للصدى أنيناً قديمــاً، ولبعده اللامرئي حكايــة حبّه الأثيــرة لكتاب (تاريخ الأمم)، لأحــداث مرّت، وحكايات بدأت ولمــّا تنته، بل تزداد إثارة مع تقادم الأيّام.

العِطرُ هو قِصّة واحدةٌ لرائحتها المخطوفة، كلون آخر فنجان قرفة شربته، تفاصيلها المجزّأة كانــت حُلمه، صِغَرُ قدميها، وضآلة السطح الأملس الذي يَحُدُّ عينيها عند مفرق شعرها المتمرّد، لــم يتجرأ مــرة على فضّ سيرة أحلامه أمام نفسها الناريّــة والمتوثّبة لأي هجوم مباغت، كان له الحــقُّ في أنْ يُمْسِكَ بمعطفها الجلديّ الصغير فحسب، فيحضنه كما يحضن وسادته التي ضمّت جدّتــه فيهــا حنانها، ووهبته تفاصيــل ريشيّة خطّت في وجهه أخاديدَ مــا زالت تتحركُ في صدره ألحاناً لأغانٍ قديمة.

شتــاءُ هــذا العام كان قاسياً ككلِّ شتاء مرّ في الأعــوام المنصرمة، بردٌ قارسٌ بلا مطرٍ، شمس تتصلّب في السّماء، وتَنْسلُّ بين شقوق غيم، امتنَعَ منذ زمنٍ طويلٍ عن الحبِّ.

رَائِحتهــا السحريّــة اللّعينــة التي كلّما نَظــر إلى جوفه اجترّهـــا، كهواء فاسدٍ كَرِهَــهُ، لكنّه بقي يسترجعــه، فقــد اعتاد عليه ونسي غَرابتــه، وغدا جزءاً من نفسه التي امتــلأت برغائب ماضية،

العمل الفني: الفنانة منى المقداد.



وتفاصيل لحياة تتلاعب بجسده، وتَنسج قصصاً لما بعد النسيان.

هو... تنفسه... هي بعد الليل، وبعد كلّ نهار... يدان اشتبكتا بدايةً، والتهمت الأصابعُ كلَّ التفاصيل الأخرى.

عبثاً حاول تذكّر تفاصيل أصابعها، الرعشة المتجسّدة في كل ظلٍّ صغير يتحركُ، ذاكرته مشوشةٌ بهذا الخصوص، فحتّى صُورة وجهها تشابكت مع مئات الوجوه.

بُهِتَ برائحة تسلّلت عبر الرواق المؤدي إلى مكتبه على الرغم من ثِقَلِ الزّكام الذي أدمع عينيه، وأغبش رؤيتهما، كان منشغلاً بمئات الأرقام، وهي تَحيك دفتر حساباته الأسود خرائطَ وطرقاً لا تؤدي إلا لمزيد من الخسائر، رآها تبحث عن ضالة ما بين التماثيل والتّحف المرتبة على رفوف محلّه، التقط وشاحها الأسود بطرف عينيه، وأطراف أصابعها وهي تبحث عن مفقود ما بين تفاصيل التماثيل، وكأنّما ملّت الانتظار، أو أنَّ يديها تعبتا من العبث بالنتوءات الحجريّة، فارتحلت تبحث لذاتها عن مكان، وأمسكت تلابيبَ البابِ، لتدفعه نحو الخارج.

انسلّت ريح مُسرعة عَبَرَت ثوبها المخرّم، لتنشر رائحة نبّهت أعمقَ نقطةٍ احترقَ وجوده فيها، أسرع نحوها، وهو يصرخ:

- انتظري من فضلك.

كانت كلماتُه في زمن الأمنيات تحفّز ابتسامات لا تُمحَى، لكنّها هنا رَسمت دهشةً، لامرأة ما كانت تتوقّع أنه يمكن لشيء أن يرفع ذلك الرأس الضخم عن دفتر الحسابات. أغلقت الباب،

وانتظرت ملتفتةً نحوه.

غرق جسده بعرق بارد. ابتسمت وهتفت:

- آسفة ظننتك مشغولاً.

- أعتذر منكِ. لم أنتبه.

ردّت بهدوء:

- لا بأس، لا شيء لفت انتباهي.

- انتظري من فضلك. هناك كثيرٌ مما لم تره عيناك.

التحمت أصابعها في مقبض الباب من جديد، وهمست:

- ربّما في مرة أخرى.

- أرجوكِ ابقي لدقائق أخرى.

عبارةُ اعتذارٍ مفاجئة، أذهلت المرأة الأربعينية، ومثّلت بجسده في صَلْبٍ موجع. وافترت شفتاه عن ابتسامة أمل قبل أن يسأل: ما اسم العطر الذي تضعينه؟

ضِحْكَةٌ مرتابةٌ ارتسمت على شفتيها، وهي تطلق نظرة غِوايةٍ نَسيت أنّها تمتلكها بعد فسحة العمر الماضية، وكأنَّه شَعَرَ أنَّ عبارتَهُ قد خَرَجَتْ عن معناها إلى حيِّز آخر، فالتفّ بعباءة رجل خضرمت السنون شعره، وألبسته ثوباً جديداً، ونظر بعينين صافيتين إلى من تَكبرهُ بسنين، وتتسرّب من بين حدقتيه وردة تتهادى إلى ذبول متوقّع.

عَبِقَ رأسُه بذكرى قديمة، وراحت الصور تتوارد من جديد. مدخل البيت القديم، يدان متشابكتان، وعيون غائمة. الصّمت أرجع صدى كلماتها:

- أستطيعُ انتظارك، لن أملَّ أبداً.

لم يعتقد أنه سَمِعَ الكلمات بل توهّمها، هو يذكر علبة العطر التي كانت تترنّح في جيب قميصه، وأصابعه القابضة على معطفها، وفِكْرَته التي تحوَّلت... فِعْلاً؛ عندما التقطت أصابعه علبة عطره من جيبه وراح يفضّها على كل زوايا معطفها، ندّت عنها صرخة خائفة:

- ماذا تفعل؟ أتريد أنْ تفضحني؟ ماذا سأقول لأمّي إذا شمّت رائحة عِطْرِكَ على ملابسي؟!

- هذا لكي تتذكريني دائماً، وتتذكري رائحتي.

اغرورقت عيناها بدموع ساخنة، وهتفتْ:

- لِمَ تريد أن أتذكرَ رائحتكَ. إذا كنت ستتركني؟

لم يعرف بماذا يجيبها. لم يملكْ إجابةً أبداً، كل ما فَعَلَه أنْ فَتَحَ فمَهُ وأغلقه، وهو يودِّعها بابتسامة مواربة، ونظرة سريعة. تركها مع رائحته التي اعتقدَ أنّها ستطغى على كل روائحها.

استيقظ فجأة على صوت السيدة الأربعينية:

- (جوزفين) اسم العطر.

هتفت بصوت غَنِج، تذكَّر ما قرأه في كتاب التاريخ: ((عندما ترك نابليون (جوزفين) أغرقت ملابسه برائحة عطرها، لكي لا ينساها)). حاول أن يتذكَّر اسم زجاجة العطر التي أفرغها على معطفها الجلدي، لكن لا حدود للنسيان ولا للصمت، عَبَقٌ ينساب من بين تلافيف رأسه، يُدغدغ آخر ما تبقّى من أخيلته، عن ذلك اليوم الشتائي الدافئ.

❁ ❁ ❁

سُوءُ فَهم

عبد الباقي يوسف

عشـرة أيام متتالية من مـرارة قلق الانتظار مضت على مكينة وهي تقـف على قدميها في هذا الموقـف دون أن تفقـد أملها في رؤيـة ذاك الشيخ الجليل التي غدت معـه حديث الساعة في هذه المدينة التي تتناقل فيها حتى الوقائع الصغيرة بين غالبية السكان بعد ساعة من وقوعها.

شيخ في ثمانينيات العمر تلقَّى في باص النقل الداخلي صفعة من فتاة في عمر حفيدته.

تقـع الأقاويل على سمعها كشرارات نارية في الباص، وفي الطريق، فتحرص كل الحرص أن لا يعرف أحد أنها صاحبة الصفعة.

تصعـد منـذ عشرة أيـام متتالية باص حي النبع علـى الرغم من أنها من حـي آخر، وتنزل في الموقـف نفسه الذي ينزل فيه الشيخ، تنتظر على قدميها من الثامنة صباحاً وحتى الثانية ظهراً، ثم ترجع، تأخذ قسطاً من راحة وتعود إلى المكان نفسه لتقف من الرابعة عصراً إلى الثامنة ليلاً علها تلمح الشيخ ولو بطرفة عين.

تنـزوي في ركن من الموقف وهي تمدّ أنظارها إلـى الجهة الأخرى حيث الموقف المقابل الذي يـؤدي إلى سوق المدينة علّه يظهر ليصعد الباص، وعندما يقف الباص القادم من المدينة تنظر إلى النازلين علّه يكون أحدهم.

حفظت ذاكرتها جيداً أنَّه نزل في هذا الموقف في ذاك الصباح الذي لن تنساه.

كانت خارجة من البيت لتذهب إلى بيت أختها يقطينة المتزوجة منذ سنتين في حي النبع التي أنجبت ولداً في الشهر الماضي حتى تقضي معها بضعة أيام تعينها في أمور البيت.

بعد نحو عشر دقائق من وقوفها وقف الباص ليهرع إليه بعض الركاب، وعلى الرغم من تيقُّنها من عدم وجود مقعد فارغ تقدّمت نحو الباب لتصعد مع الواقفين إلى فسحة الباص متمسكة بيدها بالعمود المعدني المنصوب في الوسط.

بعد قليل نهض شاب من رتل المقاعد الفردية منادياً إياها: تفضلي.. اقعدي.

سرت قشعريرة حرج في أوصالها وهي تتقدم جالسة في المقعد وتوجه شكرها إلى الشاب.

وضعت الحقيبة المتوسطة الحجم جوارها على الأرضية تاركة كفها على الممسك بحزم وهي تذكر كيف أنها ملأت علبة من الجبن لتأخذه إلى أختها، ورأت أمها تملأ علبة من الخس المخلل وتدسها في الحقيبة، ثم أمام الباب نادتها: انتظري يا مكينة.

هرعت بسرعة لتملأ علبة من مربى القرع وتناولتها، فقالت مكينة: ما دام قد ثقل الحمل.. ثم تقدمت إلى البراد وأفرغت صحناً من الشامبورك، وعندئذ نادت أمها: انتظري يا بنتي، خذي معك بعض بزر الجبس المسلوق حتى تتسلى أختك به.

بغتة أحست أن (دشاً) من الماء المصقع تسلط على جسدها من الأعلى، أخفضت رأسها وهي تغالب نُوَب الارتعاش البدني والروحي، لكن (الدش) ما زال يتكاثف بدفق هائل مزمهراً أنفاسها. كم رغبت في أن يكون ذلك وهماً، وأن ما يحدث ما هو إلا إحساس كاذب منها، فكيف لشخص أن يتجرأ ويمد يده من أسفل المقعد ليداعب جسد فتاة في وضح النهار في باص النقل الداخلي، بيد أن الأصابع التي ما زالت مشتعلة على تنورتها من القفا أزاحت احتمال كل وهم، وأكدت لها الحقيقة المرة.

غدا قلبها يهبط وكأنه على وشك أن يقفز من صدرها، اصطكت ركبتاها بشدة، علاها اصفرار حاد، وغدا جسدها كله يرتعد كريشة علقت بواجهة عاصفة، ولا تدري كيف استرجعت مشهد صعودها الباص ودعوة الشاب لها لتجلس مكانه، لا تدري كيف التقطت ذاكرتها وجه شيخ مسن في نحو الثمانين من عمره كان يجلس في مقعده المفرد خلف الشاب.

هل يعقل أن ذاك الشيخ الوديع هو الذي يقوم بهذا الاعتداء اللاأخلاقي السافر بحق فتاة كحفيدته في حافلة عامة كهذه، مستغلاً تدفق الناس في الممر وامتلاء الباص حتى الكظة. فجأة

تناولتها نوبة قيء حادة وهي ما تزال تصر على مقاومة حالة الاستفزاز اللاأخلاقي التي تتعرض لها بالكتمان، فهي تعي ما الذي يمكن أن تجلبه شائعة كهذه في هذا المجتمع المحافظ على فتاة في الخامسة والعشرين من عمرها، يمكن في أي لحظة أن يطرق شاب بابها ليطلبها إلى الزواج وتصبح سيدة بيت، ويكون لها كيان اجتماعي مستقل كأمها وخالاتها وعماتها.

أرادت أن تقطع الشك باليقين فاستدارت بمشقة لتقع عيناها على وجه الشيخ الذي ما لبث أن تجنّب التقاء نظرته بنظرتها.

تسربت نظراتها إلى لحيته الكثيفة المسدلة والشديدة البياض، وما يزال يتجنب النظر إليها بشكل متقن.

تحولت اللحية أمام ناظريها إلى ذقن مراهق أزعر، وانقلب وقار الوجه العجوز إلى زندقة، وما زادها سخرية واشمئزازاً وهي تنظر إليه أن الأصابع ما تزال تشتعل في قفاها وتزيد حالة الانهيار النفسي والبدني في أعماقها، وكأن الرجل يجلس في مقهى على الرصيف يتسلى بحبات مسبحة.

لأول مرة شعرت بأن سكوتها على هذا التمادي هو إذعان ورضا منها بما يحدث، وما دامت تقبل وترضى إلى هذه المرحلة، فسوف تبقى في حالة تنازل إلى أن تقبل بما هو أبعد وهي صامتة في أماكن أخرى.

نسيت في تلك اللحظة أنها فتاة في الخامسة والعشرين على أبواب الزواج، نسيت أن الفتاة في هذا المجتمع المحافظ هي بيت من زجاج يقيم فيه أهلها.

في هنيهات خاطفة خططت للرد السريع والحاسم، ورفعت يدها بكل ما تملك من خفة وقوة وألقت بظاهر كفها صفعة على وجه الشيخ الذي انتفض من مجلسه وكأن صاعقة مباغتة وقعت عليه.

حدث ذلك بخفية تامة دون أن يتحرك ساكن بسبب امتلاء الممر بالأجساد والضجيج، لولا أن رجلاً رأى ذلك وأشار إلى مجاوره الذي بدوره أشار إلى مجاوره حتى سمع الركاب جميعاً ما حدث، بينما أخرج الشيخ منديلاً قماشياً كبيراً من جيب سترته وغدا يجفف الدماء الغزيرة التي تدفقت بقوة على اللحية لتحيلها إلى قطعة حمراء.

يجفف الدماء وهو يصوّب نظرات قاسية إلى الفتاة، ويبدو عليه أنه يستخدم كل ما لديه من إمكانات حتى يلبث كاظماً غيظه وقد جمدت دموع فياضة في عينيه.

فــي تلك اللحظات لا تدري كيف لفتت حركة من أسفل المقعد نظراتها فانتبهت لتقع على يدي طفلة.

مالت برأسها إلى حيث مقعد الشيخ، وإذ بطفلة لا تكاد تقف على قدميها في حضن الشيخ وهي ماتزال تعبث بأصابعها في الموضع نفسه.

هالهــا ما رأت، وأدركــت أنها لم تعد قادرة على أن تصحح الموقف بــرد مباشر كما فعلت أول الأمر، والشيخ ما يزال يحدجها بنظرات قاسية ويلصق المنديل على فمه.

أمعنت مكينة النظر في الطفلة حتى يصل الإيماء إلى الشيخ عن حجم سوء الفهم الذي وقع.

فــي تلــك الهنيهة تدخل رجل في الخمسين من عمره ليوجه توبيخاً إلى الفتاة التي ارتكبت هذا الاعتداء، بيد أن الشيخ رفع كفه مانعاً إياه من لفظ عبارة واحدة بحقها.

جمدت مكينة واقفة دون أن تجسر على قول كلمة، أو حتى الاعتذار بالإشارة إلى أن نزل الشيخ فــي موقــف منزله وهو يحمل الطفلة بيد، ويخفي فمه ولحيته بقطعــة القماش باليد الأخرى، نزل دون أن يلفظ بكلمة واحدة.

❁ ❁ ❁

وادي الرعب

عزيز اسمندر

خرجت أم (شحيدي) من بيتها الطيني عند الضحى وهامت في البرية بين أدغال الصخور الموحشة.

وكلما صادفها أحد من أبناء قريتها كان يستوقفها متسائلاً: عجباً! أيتها الجارة الطيبة! إلى أين تمضين؟ وهل في هذه البرية من نساء تدعوك إحداهن لتوليدها؟ وبعضٌ ممن رآها خمّن سراً وقال: ربما تذكّرت ولدها (شحيدي) الذي افتقدته، وهو صغير فخرجت تبحث عنه.

عودي. عودي. فليس فيها إلا الخواء. ويلحُّ عليها أن تعود، محذِّراً إياها من الاقتراب من الوادي، الذي يسمى بوادي الرعب.

ولكنها كانت تكتفي بإيماءة من رأسها المقمّع بقمطة منديلها الحريري المخرّج. وفي عينيها يروغ تصميم على المضي إلى غايتها، دون أن تبوح لأحد بالحلم الذي رأته.

في ليالي القرية كانت تدور الحكايات عن هذا الوادي المسكون بعفاريت الجن وبمخلوقات مشوَّهة، نصفها حيواني ونصفها الآخر بشري، تخضع لها وحوش الوادي، ومن تجرّه خطاه إلى ذلك الوادي يختفي ولا يعود.

أشجع شبّان القرية «حمدان» خرج إليه ليلاً، ولم يعد. إذ كان – ذات ليلة – في سهرة له مع شبان القرية في بيت (الحياك)، ناجي موسى، وكان في السهرة بعض صبايا القرية ومعهن «لميعة» ابنة (الحياك) عشيقته. وراح الشبان يتبارون متفاخرين بالشجاعة والقوة، ولأن حمدان كان يعتزُّ بشجاعته متباهياً، كما يعتزُّ بحبّه للميعة، تحدوهُ قائلين: إن كنتَ يا حمدان شجاعاً، كما تدّعي. وتحبُّ لميعة حقاً، فدلّل على ذلك. وخذْ «بوتية» الماء هذه واجلب لنا ملأها ماءً من «عين أم جراد»، لأن ماءها، كما يروون، هو ماء الحياة. ومن شرب منه تعافى من مرضه، وازداد صحة، كما ازداد حباً لمن يحبه. ونحو «لميعة» توجهوا قائلين: ها! يا لميعة! كلنا يعرف مدى حبك لحمدان ومدى حبه لك، وأنك لا تشكين في صدقه. وليبرهن حمدان على ذلك.

ألقى العاشق المحب نظرة حب على وجه معشوقته «لميعة». فتضرّج خداها برهجة اعتزاز، وأشرقت في عينيها إيماءة فرح، أحسّ بها وكأنها تومئ له بإثبات حبه لها، فما كان منه إلا أن بادر والتقف «بوتية» الماء من يد أحدهم، وانطلق بها كالسهم في عتمة الليل إلى (عين أم جراد).

ومضت السهرة و«بوتية» الماء لم تعد، ولم يعد ذلك العاشق الشجاع حمدان، ممّا ولّد رعباً، راح يكبر يوماً بعد يوم حتى خيّم على أجواء القرية وفي نفوس ساكنيها.

وبعد مضيّ وقت اختفى شابٌّ آخر، لا يقلُّ شجاعة عن «حمدان». إذ خرج ليلاً يبحث عن بقرته التي لم تعد مع القطيع. ومثلما اختفى حمدان واختفى ذلك الشاب اختفى آخرون من شبان القرية، كما اختفت كحيلة ابنة تاجر القرية الثري «سمعان داغر» والتي هي أجمل فتاة في القرية، حيث خرجت إلى البرية – ذات صباح – واقتربت من ذلك الوادي، وهي تقطّف الزهور من بين شجيرات دغل الصخور لتجعل منها إكليلاً لرأسها في فرحة عرسها، عشية اليوم التالي. ولم تفلح أموال أبيها التاجر الثري في العثور عليها، وقد أنفق الكثير، كما أن خطيبها المفجوع بفقدها «همام رامز» هامَ خلفها يبحث عنها، وحتى الآن لم يعد.

ومثلما اختفت كحيلة اختفت هنيدة وفتحية وأم خال ورمحة. فقيّد الخوف أهليهنَّ، فتسمروا، هلعين، وهم ينظرون نحو ذلك الوادي بأعين بائسة حزينة مرعوبة.

وكانت أم (شحيدي) قد وعتْ بذاكرتها كل هذه الحكايات، ولكنها رأت حلماً، لا تبوح به لأحد، كي لا يفسد الحلم. وقد حاولت جارتها أم سليم معها كي تخبرها بما رأته، لكنها مانعت في ذكر حلمها. كما حاولت خالتها أم ريمة. والعديد العديد من نسوة القرية تزلّفن لها لتقصّ عليهن ما رأته، وظلّت تحتفظ به لنفسها. حتى إن إحداهن لمزت قائلة: خرجت أم (شحيدي) إلى البرية، وكأني بها لتولّد

الصخور أحجاراً. وعندما خرجت عند الضحى من ذلك النهار لن تخبر زوجها الجريح قعيد الفراش بما عزمت عليه. وكانت قد أعدّت له ما يتوجبُ عليها نحوه فترة غيابها عنه.

❀❀❀

فجرَتها خطاها إلى حرج الوعر، إذ تراءت لها الصخور وحوشاً والأشجار أشباحاً، وامتلأ سمعها بزعيق لم تعتد سماعه.

توقّفتْ بين صخرتين عاليتين مخرّشتين، تحدق بهما من كل جانب تصورات الحكايات التي استنفرتها ذاكرتها الحيّة الطريّة، فاصطخبت بحيرة نفسها، وتموجت أمامها الرؤى المخيفة. أسندت ظهرها إلى جوف إحدى الصخرتين، وفكّرت بالرجوع، معلّلة نفسها بأن زوجها الجريح يناديها، أو أن هناك جارتها «أم قاسم» في حالة وضع، وقد فاجأها الطلق، فأرسلت بطلبها، وفي أذنيها طنين استغاثة ما: ليس لنا غيرك يا أم (شحيدي)، كل أطفال قريتنا وأطفال القرى المجاورة أنت يا أمّنا الرحيمة. من ولّدتهم وأشرفت على الرعاية بهم لدى تنسّمهم دفقة الحياة الأولى. وحاورت نفسها قائلة: على ما يبدو أن هناك امرأة ما تدعوني لأولدها، وهذا واجبي. منذ أن ماتت أمي أورثتني مهنتها هذه... ولن أخذل أمي، وسأواصل مهنتها، وسيبقى ذكرها حياً بفعالها الحميدة. وصمّمت قائلة: أنا أم (شحيدي) وأنا لن أتوانى عن تلبية أي استغاثة مهما كان مصدرها: أقريباً كان أم بعيداً. هذا واجبي وهذا قدري وبكلّ رضا أنصاعُ إليه وأتقبّله.

عودي أم (شحيدي) إلى بيتك.

عودي إلى قريتك.

النساء الحوامل لا معين لهن في شدّتهن سواكِ...

وساعة الولادة قد تأتي في جوف الليل، في الهزيع الأخير منه. وفي أقصى بيت وفي أفقره...

وأصاخت السمع من جديد.

نداء الاستغاثة آتٍ من بعيد خافت كالأنين.

غشيتها ملاءة إغفاءة فعاودها الحلم ثانية فشدت عزيمتها وتابعت خطاها بعد أن شَكَلَتْ ردن فستانها المشجّر بالألوان بمنتصف زُنّار خصرها الحريري الداخن. وتحسست بيدها متلمّسة ذلك الجراب المخبوء تحته، تتفقد ما يحتويه. وتابعت خطواتها باتجاه الوادي، وهي تلحق بما تتوّهمه، بأنه نداء استغاثة لامرأة في حالة وضع، آتٍ من هناك من حنايا الوادي المتلفّع

بالضباب والأبخرة، والـذي على حفافيه تتزاحم الصخور التي تلقي بظلالها المخيفة المشوَّهة فـوق مجراه المائـي المتغلغل بيـن الحشائش والأعشـاب، وسويقات القصب البـري، ومسلات السعـد البطر، وعبـر (دواريخ) العلِّيق الشائكـة والشجيرات المائية الداغلـة فيما بينها، فجّت الـدرب الضيق المنحدر إليه بجرجرة قدميهـا، وفوق مائه (الزردي) الأخضر انحنت واغترفت منـه ملء حفنتيها ماءً، رشرشت بـه وجهها ومقدمة جبينها، فاستعـادت حيويتها ونشاطها. ثم أمعنت النظر فيما حولها، تتقفّى أشكال الرعب المنبعث من سرير هذا الوادي. بسكونه المدوّي، بضبابه الموّار، بأبخرته المتصاعـدة المتلونة وبصخوره المشوَّهة. فتعاورتها من جديد أصداء أصوات خفية:

عـودي أم (شحيـدي) إلى بيتـك، إلى زوجك الجريـح. النساء في القرية فـي مواسم الوضع. جارتك «أم قاسـم» تصرخ، تتأوه تتعصّر، وهي تنادي: ساعديني، ساعديني أمَّ (شحيدي)! أكاد أمـوت. عـودي. لا أحد انزلق إلى هذا الـوادي وعاد. خيرة شبّان القريـة ابتلعتهم خوافيه. أجمل فتياتها غصنَ هناك ولم يعدن.

زحزحـت (قمطـة) رأسها وشدّت من حـزام خصرها التبغـي، ثم نفضت ما علـق في فردتي حذائهـا مـن حصى وتراب وأشواك، وتابعـت سيرها الضبابي الحالم، يقـود خطاها ما رأته في ذلك الحلم...

❁❁❁

الضبـاب يمور متموّجاً بمساحبه يخفي شبحها المنفرد الهائم، وكأنها علقت به، وقد شخصت أمامهـا عرمة من الصخور سدّت عليها مسلكهـا. دارت حولها، مزمعة الاهتداء لتلك النأمة التي ترنُّ في أذنيها، منسابة من هنـاك من الضفة الثانية، وكأنها استغاثة.

تشجّعت وأزمعت عبور مخاضة الماء الأخضر، شمرت عن ساقيها النحيلتين وفوق مخنق ضيق تقحّصـت من صخرة لأخرى، قافزة إلـى الحافة الثانية. اغتصبتها ارتجافة من السكون المدوي حولها، فاقتعدت تستريح فوق جلد صخرة محششة. فخالجت مشاعرها أطياف ذاكرتها الطرية. وكأنها أحست بأنها جرّتْ خطاها إلى ما لا تحمد عقباه، وفجأة انسابت في مرآها إيماءات خيوط حلمهـا الموحيـة. فهدأت نفسها واطمأنـت، وراحت تقلّبُ النظر فيما حولهـا بحثاً عن تلك العين المسحورة (عين أم جراد).

وبينما هي في سرحتها وقع في سمعها من جديد صوت تلك النأمة الشاكية، فنهضت وراحت تتمشى بحذر بين الصخور وبين جذوع الأشجار الحراجية المتشابكة، وهي تصغي لجهة مصدر ذلك الصوت. وفي منحنى بين صخور ثلاث أشبه بكهف تردّد صداه: اقتربي، اقتربي مني أيتها المرأة القادمة، أيّاً تكونين اقتربي، أكاد أشتمُّ فيك رائحة أمي، رائحة (الداية) الرحيمة، أم (شحيدي). آه، آه. أين أنت أم (شحيدي)! أنتِ. أنتِ، من ولَّدتِ أمي حتى جئتُ وأبصرتُ النور. ليتك! ليتك! أنا هناً. أنا هنا. خلف تلك الصخور المنحنية: أنا كحيلة ابنة التاجر «سمعان داغر» أنا ابنة قرية «السماقة» فساعديني أيتها المرأة القادمة أيّاً تكونين!

خفق قلب أم (شحيدي) خفقاناً شديداً وتوترت أعصابها واندفعت ناحية الصوت. وفوق مرجة صغيرة في حنية بين صخرتين، كانت كحيلة تتعصّرُ من ألمها. فانحنت فوقها واحتضنتها تغمرها بقبلاتها الحارة ودموعها السخية. وبها عبقت رائحة كل أهالي قرية «السماقة» حيث ضلّت ذلك اليوم البعيد الدرب، وهي في غمرة فرحها ليوم عرسها - غداة اليوم التالي - وتاهت في ذلك الوادي أياماً، ولم تهتد إلى درب العودة، فانتابها الرعب، وفقدت ميزة حواسها وصارت تتخفى بين الأدغال كجنية. وذات يوم، وهي في انكماش ذاكرتها وسرحة غيبوبتها من الجوع والخوف والضياع باغتها ما توهّمته شبح عفريت داعر. أو طيف مقاوم ثائر، وفعل فعلته...

وعندما عادت إليها ذاكرتها بعد مدة من فقدها، وعاينت ما ألمّ بها، استبدّ بها الجزع، وسطا عليها الشعور بالذل. فعاندت ظهورها بين الناس، كما عاندت عودتها إلى ديارها. وظلتْ تهيم على وجهها في منحنيات الوادي وبين كهوف صخوره ومغاوره، وهي تتخفى، وقد ألبست رأسها وجسدها غلائل خضراء ملونة، صنعتها من أغصان الأشجار ومن نباتات الوادي ومن أزاهيره، وفي نفسها يعتلج ما كانت ترغب فيه، ذلك النهار البعيد، حيث كانت تقطف الأزاهير والورد من أرض الوعر لتجعل منها إكليل عرسها.

كما حكت لها: كيف تقضم الأعشاب والحشائش تتغذى بها وبتلك الثمار التي تلتقطها متساقطة عند جذوع الأشجار. وأدهشها أن صارت ترى صُرَّةً من القماش فيها خبز وبعض المعلّبات مدسوسة في حنية كهف جوار صخور (عين أم جراد)، تتجدد كل مدة من الزمن، وحارت في أمرها، وهي لم تصادف أحداً مرّ من هنا. غير أنه كان يتراءى لها خيالات أشباح، ما تلبث أن تختفي خلف ذلك الجبل المطلّ على الوادي. وفي الليل تسمع همهمات أصوات قادمة من هناك، تحملها أجنحة الريح.

رقّت نظرات أم (شحيدي)، فانحنت فوقها تضمها إلى صدرها داعية إياها أن تنهض، وأن تتمشى ولو بعسر متوكئة عليها، حيث عاودها ذلك الحلم. فاشتدت همة أم (شحيدي)، كما اشتدت همة كحيلة، وراحتا تجرجران خطواتهما في ذلك المنحدر الضيق المحجّر، وهما يفجّان الجفان الشائكة والأغصان الداغلة، وبعد لأي طالعتهما تلك الصخور الدهرية العالية المزركشة بالنباتات والشجيرات العطرة. وانحنت كحيلة تتعكز على خواصر تلك الصخور وهي تحبو جاهدة للوصول إلى مقدمة انحناءاتها. حيث يتراءى ذلك النفق الراهج بخلجات مياه (عين أم جراد) المنبجسة المزمزمة في جريانها عبر مسيل جدولها الغارق بالقصب البري وشجيرات الدفلى المزهرة - والمتسارع نحو مجرى الوادي في طريقه نحو مصبه في عرض البحر غير البعيد.

فانحنت أم (شحيدي) فوق العين تغُبُّ الماء من جرنها الصخري المرمل وملء حفنتيها ماء حملته إلى كحيلة تسقيها وتسفع به وجهها وشعرها. وعادت ثانية منكبّةً فوق ذلك الجرن تغُبُّ، ثم ترشُّ الماء على شعرها ووجهها وهي تحمد الله على رضاه وعلى نعمائه.

وبعد أن أخذتا قسطاً من الراحة، وهما تتناجيان بحب وحزن، أُطلقت كحيلة صرختها الأولى فالثانية، وهي تنحني متوجّعة متكئة على كتفي أم (شحيدي). فأسندتها هذه وراحت تعالجها بخبرتها الشغوف وتشجعها.

ومع الصرخة الثالثة كان بكاء الوليد يمتزج مع تلك الصرخة. فسارعت أم (شحيدي) وفكّكت زرد جراب حزامها ترحب فرحة بمقدم ذلك الوليد. وأغدقت بما معها على العناية به. وبرأس إصبع باهمها المبلول بماء العين مسحت به ثغر الوليد كما أسقت أمه بلعتين من مائها ممزوجتين بعصير الزنجبيل واليانسون البري. فاستراحت تلك الأم متكئة على كتفيها، وفي حضنها كان الوليد قد أنهى رحلة بكائه وغرق في النوم. ومن حولهما كان الدفء يفرش بساطه، والجو رائق والشمس في رابعة النهار، فأخذتهما معاً إغفاءة من التعب. فراودها ذلك الحلم.

مدّي يدك إلى جوارك، واقطفي غصناً من الشجرة الشائكة المباركة، ففي نسغه شفاء لجراح زوجك، وفي حفيف أوراقه نداء. وبدهشة فتحت عينيها على اتساعهما، واحتضنت تلك الشجرة الفارعة في كعب الصخرة. وما إنْ مدّت يدها إلى غصنٍ منها لتقطفه، حتى تناغمت أصوات عديدة، صدحت من ألسنة شتى، تتراصُّ في جسد الصخرة. وتتساوق مع نداء الأوراق. فارتجفت هلعة أم (شحيدي)، كما ارتجفت «كحيلة» ومثلهما ارتجف بدن الصخرة، وراحت ترتجُّ مهتزة

زاحــرة. فافترّ وجهها الدهــري المجعّد عن تَفَسُّخَات أُطِّرتْ ملمح وجه شيخ مهيب وقور ذي لحية بيضاء يشع نوراً. فبهتت المرأتان وركعتا في مرمى قدسية ما رأتاه.

ثم ما لبثت تلك الصخرة أن تبعّجت في حنية من خاصرتها. وإثر صرخة كصرخة وليد. انبثق منها حجر صغير موسوم على شاكلة ما تأطر في واجهتها من ملمح. التقطته أم (شحيدي) بكلتا يديهــا، وراحت تتبرّك بــه وتتشممه بخشوع، ثم دقّقت النظر في رســوم خطوطه الدقيقة. لكأنها سمعته يهتف لها... أنا. أنا. على موعد معك أم (شحيدي)! عودي، إلى زوجك، إلى قريتك ومعك كحيلة ووليدها المسمى «وعد».

مــع الغروب من ذلك النهار، كان سيد المقاومة سماحة السيد (حسن نصر الله) يشير قائلاً: إنــه الوعــد الصــادق. انظــروا.... انظروا... ها هــي بارجة العــدو تغرق، تغرق. هــا هي تحترق تحتــرق... وعــمّ الفضاء ضياء الفــرح وتعالت الزغاريد والهتافات في أرجــاء الوادي. ومن خلف ذلــك الجبــل كان المقاتلون المقاومون الشجعــان يقيمون أعراس النصر. ونحــو الوادي تدافعت جموعهم حاملين راياته. ومع الزغاريد والفرح كانت أم (شحيدي) وكحيلة والمقاتلون الشجعان فــي موكب بديع، عائدين إلى قرية «السماقة» تحت رايات ولّى زمن الرعب وتلاشت وديانه، وعلى حضــن كحيلة أجمل فتيات القرية وليدها المنــوّر الصبوح «وعد». وكان كلُّ من رآه، وأمعن النظر فيه أحسَّ وكأنه يرى غائبه المفقود، وقد عاد إليه.

وفــي ساحــة القرية أقيمت أفراح النصر أفراح العودة إلى الديار بلا رعب. وبخط عريض كتب صبية القرية فوق يافطة عريضة صفراء...

أهلاً. أهلاً بالمباركة. أمّنا. أمَ (شحيدي). مولّدة البشر. مولدة الحجر...

❁ ❁ ❁

شجرة

علي الراعي



على مبدأ نصيحة جدّه «عمّرْ في كلِّ بلدٍ بيتاً يا ولدي» مشى، فأكثرَ من الأصدقاء!

لأنه بالأصدقاء -وكما قال جدّه- تكبرُ شجرةُ العائلة، لكن -وحسبَ نصيحةِ جدّه أيضاً- لا بدَّ من قطعِ الأغصان اليابسة كلَّ مدة!

بعد زمنٍ

وجد أن الشجرة فقدت كلَّ أغصانها،

و.. لم يبقَ غير جذعها اليابس، فأحرقها..!!

العمل الفني: الفنان ناصر زين الدين.

أهل الكهف

تمـرّدَ ثلاثةٌ مـن الفتيةِ، على جور السلطـان الطاغية، قال بعضهم: أربعة فتيـة، وآخرون قالوا سبعـة، و.. بغضّ النظر عن العـدد، فقد علم سلطان البـلاد بأمر تمردهـم، فأرسل لهم عسس المدينة يبحثون عنهم في الزواريب كلها.

فما كان من الفتية غير أن فروا صوب الجبال، يتبعهم كلبهم، و.. قد أخذ الرعبُ مجامعَ قلوبهم، و.. فـي حضن الجبل انفتـح لهم بابُ الكهف دافئاً شتاءً، ومبرداً بسـلام طوال أيام الصيف، و.. هناك ناموا بثباتٍ ثلاثمئة سنة.

عندمـا انتشـرت قصتهم، وعلم بها القـومُ المتحمسون للتغيير، والتمرد علـى جور السلاطين وظلمهـم، صار «القـوم» يحلمون بنومٍ عميـقٍ جداً فحسب، نـومٌ عميق، و.. «مُكيّـف» صيفاً شتاءً يستمرُّ ثلاثمئة سنة.

الأعمى

«رأيـتُ المنـايا خبـطَ عشـواء مـن تصب
تـمتـهُ، ومـن تُـخـطـئ يُـعـمَّـرْ فـيـهـرمِ»

ذلك.. كان ما تأثر به لشاعر قديم، قرأ له ذات حين، و.. ذلك هو ما كانَ تخيّله عن شكل الموت وسلوكـه، و.. لأنّ المـوت كائنٌ أعمـى، صار يخشى أن يبقى وحيداً يسهـل الاستفراد به، فالتصق بالناس، و.. أصبح يبقى طول النهارات يحتمي ضمن الحشود، عسى أن يختارَ الموتُ غيرَه خطأً، حتى إذا ما هجمَ الليلُ عليه منفرداً، يُمسي يتعامل مع النوم كما يُلاعب القطّ فأراً..!!

فـي أحد الصباحات عندمـا رأى قاربَ المهاجرين غير الشرعيين يستعـدُّ للرحيل، اندفع بين الجموع، و.. في وسط البحر، كان ثمة أعمى يختارُ الجميع..!!

فزاعة

على الأسطحة، و.. في الحقول،
تهترئُ فزاعة الطيور، بوحشة وحدتها،

و.. على وقع المرارة، والخذلان؛
كانت سخرية الآخرين تأكل وجهها.
اليومَ فحسب
تأكدت أنها خُدعت بـ«جودة» العود الذي يلبس..!

مواسم الريح

في مواسم الريح، و.. على همس قريةٍ سطا عليها النعاس كانت تتنازعه مشاعر باتجاهين، أن يُبقي أحد طرفيه بين أصابع صبي وبنت ينشغلان بأمر تطيير طائرة ورقية، و.. تأمين حرارةً ليدين تشغفان للتلامس.. فيما قلب خيط الصوف الذي جدلته أم الصبي من كنزةٍ عتيقة معلقاً بأذيال طائرة ورقية يخشى عليها الضياع في مهب الريح.

يتوتر حيناً، ينقبض طوراً، و.. أخيراً ينسلُّ ملموم الذيل من أصابع انشغلت بحرارة التوق مشدوداً مع الريح خلف طائرة أتعبها الخوف من فضاء مهيب، هناك صارا يراقبان نهارات لا تكلّ عن الدوران على الأرض الهرمة..

مقعد

لأيام طويلة وحيداً في وجه الريح، و.. المطر.
لأيامٍ طويلةٍ، كاد يتشقق في لهيب الهواجر البعيدة.
كلّ ذلك كان يتحمله.

غير أنّ مكابداته الأقسى، كانت باختلاط عشرات المشاعر على جنباته، مشاعر تنوس بين قُبَلٍ مسروقةٍ، أو لمس أطراف الأصابع، و.. بين رغبات ملهبة للأجساد، واستحالة التصدي لاجتياح اللوعة، مشاهد أيادٍ تتجرأ لفك الأزرار، فتتقور الصدور، وتحتدم الشفاه بشراهة لترتوي من شفاه.

سنين طويلة، وقلب المقعد في الحديقة، يتحامل كي لا ينفرط، أو يقع في شرك الحب.

❁ ❁ ❁

تغطية صحفية

عماد الدين إبراهيم

«الأستاذ... نتشرف بدعوتكم لحضور المهرجان الشعري العربي الذي يقام في مدينة... لمدة أسبوع بدءاً من... ولغاية... بحضور عدد كبير من الشعراء والكتّاب السوريين والعرب، آملين حضوركم للمشاركة والتغطية الإعلامية».

كنت أقلّب بطاقة الدعوة المرفقة ببرنامج المهرجان ومواعيد النشاطات والمشاركين فيها بين يدي، أقرؤها بين الحين والآخر. لفت نظري اسم شاعر عربي لم أسمع به من قبل، نسبه يشير إلى أنه من إحدى الأسر الحاكمة في الخليج، فقلت في نفسي سأسمع شعره لعله يكتب شعراً حقيقياً جميلاً بعكس ما نعرفه عن الأمراء. الشعراء الذين ينطبق عليهم قول: «وما علَّمناهُ الشعرَ.. ولكنْ»، وإذا كان شعره جميلاً فسأُجري معه حواراً صحفياً، هكذا كنت أفكّر لتمضية الدقائق الأخيرة قبل الوصول إلى تلك المدينة النائية عن العاصمة، القابعة على ضفة الفرات، والمحاطة بالبادية المترامية الجرداء التي تسرح فيها الرياح والغبار.

كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة ليلاً، فقد انطلقنا من العاصمة الساعة السابعة مساء، أرغب في السفر نهاراً، هذه عادتي حتى أتأمل المناظر الطبيعية على جانبي الطريق، ولكن هذه السفرة لم أندم لأنها تمت في الليل، فقد خَبِرت الطريق في سفرات سابقة، طريق أعجف تحيط

به الأراضي الصحراوية العارية، لا مناظر ولا من يفرحون، وبين الساعة والأخرى ربما ترى واحة صغيـرة من أشجار النخيل معزولة بهذا الخلاء الصحراوي اللامتناهي، لذلك ما إن خرجنا من العاصمة حتى استرسلت في النوم على الرغم من كرهي له في السفر، أمضيت معظم الوقت إما نائماً أو متناوماً حتى لا أشعر بطول المسافة.

عندما وصلنا مشارف المدينة باغتتنا رائحة الغبار، أخذ «البولمان» يتمهّل ويخفف من سرعته، علامات التساؤل بدأت تظهر على الوجوه فقد كان «البولمان» مليئاً بعدد كبير من الإعلاميين من مختلـف وسائل الإعلام: صحف، إذاعـة، تلفزيون، وبعض الضيوف الآخريـن، فالمهرجان مهم وتشـارك فيه أسماء مشهورة ومعروفة من الأدباء والشعـراء والنقّاد على مستوى الوطن العربي، لـم تطـل تساؤلاتنا الصامتة فقد جاءت الإجابة من ممثـل إدارة المهرجان؛ الذي أوضح لنا عبر (ميكرفـون البولمان) أن المدينة شهدت خلال الأيام الثلاثـة الماضية عاصفة غبارية يسمونها (الطـوز) وهي عبارة عن ريـاح جنوبية- شرقية قادمة من الصحراء مليئة بالغبار الأحمر اللون، ونحن في نهايات هذه العاصفة الغبارية، فقلت في نفسي:

- يـا سلام.. لـم يكن ينقصني إلا الطوز، فأنـا أعاني من ضيق في التنفس وبقايا ربو طفولي، وتزعجني جداً هذه الأجواء.

بعـد دقائـق قليلة وصلنا إلـى الفندق، تم توزيعنا علـى الغرف المحجوزة لنـا، كل شيء مرتب ومنظـم، أبلغونـا أن العشـاء جاهـز لمن يريـد، وأعطونا مهلة ربـع ساعة لوضـعِ أمتعتنا وتبديل ملابسنا، والتوجه إلى قاعة المطعم في الطابق العُلوي من بناء الفندق.

دخلـتُ الغرفة، رائحـةُ الغبارِ تملؤها، رغبتُ في أن آخذَ حماماً سريعـاً لإزالة آثار التعرق والتعب، ولعلنـي (أصحصح) قليلاً، حتـى الحمام مغطّى بذرات الغبار الحمراء علـى الرغم من عدم وجود أي نافـذة فيه سوى مَنْوَر صغير للتهوية، عجبت كيف يستطيع أهالي هذه المدينة العيشَ وتحملَ هذه العاصفة التي تبقى عدة أيام، حتى خزانة الملابس وصل إليها الغبار، دعوتُ راجياً أن تنتهيَ العاصفة غداً صباحاً كما أبلغونا، أخذتُ حماماً سريعاً، لبستُ ثيابَ الراحة وتوجهتُ إلى قاعة المطعم.

***

مضت ثلاثة أيام من المهرجان، نشاطات كثيرة في مركز المدينة وفي بلدات تابعة لها، حضور لافـت من الناس، إنـه احتفالية ثقافية حقيقية تعجـز الجهات الثقافية فـي العاصمة عن تنظيم

مثلهــا، دعــوات من بعض الأعيان لولائم تقــام على شرف الضيوف، رحــلات اطلاعية إلى بعض الأماكــن الأثرية في المحافظة، كل شيء مرتّب ومنظّم وكل ساعة في النهار محسوبة لنشاط ما، هنــاك نحو ساعتين ظهراً للغــداء والاستراحة، أما بعد الساعة التاسعة ليلاً فهو وقت حر نمضيه كمــا نشاء. خلال تلك الأيام لم أنسَ ذاك الشاعرَ الذي قرأتُ اسمَه في برنامج المهرجان، وكنتُ أحــاول التعرفَ إليه بطريقٍ غيــرِ مباشر من خلال الأحاديث، فلا بدّ أن تلعــبَ المصادفةُ دورَها ونجلسَ علــى طاولةٍ واحــدة، أو نلتقيَ عَرَضاً في إحــدى الأمسيات، لكن ذلك لــم يحدث، فقلتُ: حسناً.. لا بأس.. لا بدَّ أن أراه خلال الأمسية التي سيُلقي فيها شعره.

كنا جالسين في قاعة المطعم الكبيرة التي اختاروا لها مكاناً جميلاً هو الطابق العلوي، تطل على المدينة من كل الجوانب، نرى من إحدى النوافذ سطح مياه نهر الفرات تنعكس عليه أشعة القمر الفضي المكتمل، نحن في أواسط شهر أيار، وهذه المدينة حارقة في النهار لكن طقسها فــي الليل فــي مثل هذه الأيام لطيــف وجميل، توزّعنا علــى الطاولات هنا وهنــاك، مجموعاتٍ مجموعات، تدور الأحاديث للتعارف والتثاقف والتسلية، شخصيات من سورية ولبنان، المغرب، مصر، ليبيا، قطر، السعودية... من أغلب الدول العربية، ما بين شاعر وناقد وإعلامي، والكل منهمــك فــي الحديث في كل شيء وعن كل شيء، وللحق كانت تلــك الجلسات من أجمل ما في المهرجــان، تتناوب فيها أحاديث الفكــر والثقافة والطرائف والترفيه، ولا سيّما إذا علمنا كرم الضيافــة، و حفاوة الاستقبال، الطعام على أنواعــه، المشروبات كذلك، وهذا أمر غير مألوفٍ فــي مثــل هذه المهرجانات، لا سيّمــا وأننا في مدينة تعدُّ محافِظةً فــي عاداتها وتقاليدهــا، في البدايــة كنا على شيء مــن الحذر والتردد في طلب المشروب، شــاي، قهوة، (زهورات)، مياه غازيــة، فحسب، ولكــنْ حين كشف لنا منظــمُ المهرجان أن من يرغب في تنــاول المشروبات الروحيــة فالأمر متــاح، عندئذ انهمك كثيرون بطلبها واحتساء كميــات كبيرة منها، وقد أودى ذلــك بآخــر رمق من الخَفَر والحذر والتحفظ بين المدعوين، فانطلقوا في جوٍّ من المرح الذي صار رقصاً وطرباً.

لفت نظري بين الموجودين شخص رقيع المنظر، رث الثياب، متهالك الجسد يجلس في زاوية نائيــة ومظلمة مع رفيــق له، تأملته ملياً كان يتحــدث بطريقة متعَبة، وحــركاتُ يديه تتأرجح غيرَ

متناسقة مع كلامه، استغربتُ حالته وقد اعتزل الجميع منفرداً بذلك الشخص، سألتُ عنه جُلسائي على الطاولة فلم يعرفه أحد، مما زاد فضولي للتعرف إليه، بعد قليل انضم إلينا أحد المشرفين على تنظيم المهرجان، حاملاً كأسه بيده، راسماً ابتسامة واسعة على وجهه، متنقلاً من طاولة إلى أخرى، مرحِّباً بالضيوف للمرة الألف، سألته عن ذاك الشخص، فقال لي بلهجة مبطنة ومحيرة، ما بين التعريف والسخرية:

- هذا ضيف مشارك في المهرجان وهو الأمير الشاعر...

ونظر إلي نظرةً ذاتَ مغزى، ثم شعر باستغرابي ودهشتي وقد ظهرتْ علائمُها على وجهي، فأراحني من السؤال وبادر مضيفاً:

- لا تندهش يا أستاذ هو هكذا دائماً.

يا للمصادفة.. إنه الشاعر الذي أفتش عنه للتعرف إليه، ولكن لم أتوقع أن يكون مظهره مزرياً إلى هذا الحد. سألتُ محدثي:

- ماذا تقصد بقولك هو هكذا دائماً؟ هل هو مريض؟

أجاب: لا.. أبداً، ما شاء الله عليه يحتسي لتراً من (الويسكي) في السهرة، فهو كما تراه، هذه حالته... سكران.

قلت ملمحاً إلى مظهره المزري: ولكنَّ شكلَه لا ينمُّ عن أنه من أسرةٍ حاكمة ومعروفة بثرائها.

أجابني: هذا الشخص الذي تراه هو من الجناح المستبعَد عن المال والسلطة في تلك العائلة.

صمتُّ قليلاً، نظرتُ إلى ذلك الشاعر المنطفئ بسكرته، وعلاماتُ الدهشة على وجهي، وشعورُ الخيبة في نفسي، للمفارقة الكبيرة بين الاسم والشكل، أكمل محدّثي قائلاً:

. يا أستاذ هذا الشاعر يدعونه كل عام للمشاركة في المهرجان، ولا أدري لماذا، هو يأكل ويشرب (الويسكي) بنهم مفرط، وحين يجيء موعد الأمسية التي يُفترض أن يُلقيَ فيها شعرَه، يكون قد انطفأ تماماً من السكر، فيتم الاعتذار من الحضور.

قلتُ: بما أن الأمورَ تجري هكذا لماذا تدعونه وتتحملون نفقات إقامته وسفره وسكره أيضاً؟

فزمَّ شفتيه، وقلب يديه معترفاً دون كلام أنه يجهل السبب، وأضاف غامزاً بي وبعملي الإعلامي:

- هل تريدُ أن تجريَ معه حواراً صحفياً؟

قلت: كنتُ أنوي ذلك.

سألني: والآن؟

التزمتُ الصمتَ، فأجابني بكل هدوء:

- لا داعي للجواب لكن إذا تسنَّى لك ذلك فافعل، ولا أظنك ستفعل، فهو كما تراه:

كُلَّما استيقظ مِنْ سَكْرَتِه
جَذَبَ الزِّقَّ إليه واتَّكا

كاسَك يا أستاذ، نخبُ الشعر الحديث والقديم، نخبُ المهرجانات الأدبية وغير الأدبية، بصحتِكَ. بصحتكم جميعاً.

رفع الكأسَ إلى شفتيه، عبَّه دفعةً واحدةً، ثم أطلق ضحكة مجلجلة، غيرَ مكترث بأنْ لا كأسَ أمامي وأنَّ تساؤلاً عميقاً وُلِدَ في داخلي:

- تُرى هل يضحك مني؟ أم من ذاك الشاعر؟ أم منا جميعاً؟

علَتِ الموسيقا، نهضَ أحدُ النقادِ الأكاديميين المشهورين حاملاً كأسَه بيده عازماً على (الدبكة)، داعياً الآخرين إلى مشاركته، فلم يتوانوا عنه، وضجَّت القاعة بالغناء و(الدبكة) والصخب.

❁ ❁ ❁

الترابُ الأحمرُ

غالب خلايلي

كانَ الطفلُ الصغيرُ «وسامٌ»، ابنُ السبعةِ أعوام، يلعبُ في حديقةِ منزلِه الغنّاءَ، بين عرائشِ الياسَمين، ومساكبِ النعنعِ والبقدونس، وشتلاتِ البندورةِ والباذنجانِ، وقد أدهشتْهُ روعةُ الألوانِ، الأحمرِ والأخضرِ والأسودِ والأبيض، مثلما أدهشَهُ لونُ الأرضِ، ذلك اللونُ المشرَّبُ بالحُمْرة، وبقي السؤالُ يداعبُ خيالَهُ الصغيرَ: لماذا لونُ التربةِ في حديقةِ البيتِ والبساتينِ المجاورةِ أحمرُ، فيما هو شاحبٌ أو أصفرُ في الأراضي البعيدة؟

سألَ وسامٌ أمَّهُ «الخنساءَ» التي كانت تحيكُ كنزةً من الصوفِ لأبيهِ الضابطِ الذي لم يأتِ إلى البيتِ منذُ ستةِ أشهر: لماذا لونُ التربةِ في حديقتِنا أحمرُ؟

تراءى للأمِّ زوجُها «أدونيس» وهي تحدِّقُ في وجهِ ابنِها الجميلِ ذي الوجنتينِ المُحمرَّتينِ، فراحتْ تقبِّلُهُ بشغفٍ شديد. لقد اشتاقتْ كثيراً إلى الأبِ الغائبِ الذي يهتفُ إليها بين الحينِ والحينِ، وهو بعيدٌ يذودُ الأعداءَ عن الدّيارِ، ويحمي الذِّمارَ من المعتدين الآثمين. كانتْ تخشى عليهِ كثيراً وهي تسمعُ عن تلكَ الحوادثِ التي تروِّعُ الناسَ الآمنينَ، أو تسمعُ عن كثيرينَ راحوا ضحايا الغدرِ والعدوانِ بسببِ قذائفَ عمياء، ولكنّها -بعدما أرهقَها التفكيرُ- سلّمتْ أمرَها إلى الله.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.



شـردتِ الأمُّ، وذهبتْ فـي حُلُمٍ طويلٍ مَـرَّ فيه شريطُ الذكريـاتِ الجميلةِ:
أيـامُ الخطوبةِ مـن ذلكَ الضابـطِ الوسيمِ الحنونِ، ثم أيامُ شهرِ العسلِ في ربوعِ الزبداني وبلـودان ووادي النضارة، وغابـاتِ كسـبَ وصلنفـةَ. ومـع أن أدونيسَ عسكريٌّ حـازمٌ، إلا أنّه مولعٌ بالآثارِ، فلم يترك مكاناً أثريّاً ثريّاً لم يزرْهُ وعروسهُ، من حلبَ وقلعتِها الشهيرةِ، إلى قلعةِ جعبـرَ في حوضِ الفـراتِ، فقلعتيّ المرقـبِ، والحصـنِ، فآثـارِ شيـزرَ، وإيبـلا، وتدمـرَ، ومعلـولا، وانتهاءً بالمُتحَـفِ الوطنيّ، فقصرِ العظمِ.
كانَ أدونيس نقيباً في سلاح المشاةِ فـي ذلك الحين، وما لبـثَ أن رُفِّعَ إلى رتبةِ رائدٍ بعدَ ولادةِ مولودِهِ الأولِ الذي سمّاهُ «وسام».
أمسـكَ «وسـام» بكَتِفِ أمِّهِ وهزَّها بلطـفٍ قائلاً: أمّي، أينَ ذهبتِ؟ أنـا أسألُكِ عن سببِ حُمرةِ الترابِ في بستانِنا.
أفاقتِ الأمُّ من حُلُمِها الجميلِ، وقالتْ: «هي كذلك. منذُ وُلدْنا يا ولدي على هذهِ الأرضِ الطيّبةِ، وهي كذلك. ربّنا أرادَها حمراءَ».
لم يقتنعِ الصغيرُ بما قالتْه أمُّهُ، فذهبَ إلى جَدّتِهِ (خولةَ)، وسألَها السؤالَ نفسه، فقبّلتْ وجنتيهِ وهي ترى فيهِ ملامحَ أبيهِ، ثم قالتْ:
«حينما خلقَ اللهُ الأرضَ، أعطى كلَّ منْطَقةٍ لوناً مختلفاً، مثلما أعطى البشرَ ألواناً مختلفةً، الأبيضَ والأسمرَ والأصفرَ والأحمرَ والأسودَ، وهكذا كانَ نصيبُ أهلِ بلادِنا لونَ القمحِ المجبولِ بأشعّةِ الشّمسِ الذهبيةِ، فيما كان نصيبُ أرضِنا الترابَ الأحمرَ المجبولَ بعرقِ مزارعينا، و......».

وغصّت الجدّةُ، إذ اختنقت الكلماتُ في صدرها، ولم تستطعْ أن تكملَ، فيما انسابتْ دمعتانِ ساخنتانِ على وجنتيها، اللّتينِ ما زالتا تحتفظانِ بشيءٍ من النّضارةِ والحُمْرة.

- أكملي يا جدّتي.. لماذا توقّفت عن الكلام؟

- تذكّرتُ عمّكَ الكبيرَ (عزّام) الذي فقدناهُ في قتالنا ضد الصهاينة عام (١٩٧٣م). يومَ استُشهِدَ سالتْ دماؤه الحُمْرُ الزكيّةُ في أرضِ الجولانَ، وحينما رأيناهُ لنودّعَهُ الوداعَ الأخيرَ، وجدْنا في قبضتَي يديهِ حفنتي ترابٍ أحمر.

- وماذا يعني (عمّي استُشهِدَ)؟

- يعني أنّه بقيَ يقاتلُ الأعداءَ بقوّةٍ وصلابةٍ، حتى جاءتْهُ شظايا قنبلةٍ غادرةٍ في صدرِهِ من إحدى طائراتِ العدوِّ الغاشِمِ، ولم يعدْ يقوى على الحركةِ بعد أن سقى بدمِهِ النازفِ أرضَ الوطنِ.

- وإلى أين ذهبَ بعدَ ذلك؟

- اختارهُ اللّهُ إلى جانبِهِ، في الجنّةِ. انظر يا وِسامُ: الجنّة تشبهُ كثيراً بلادَنا هذِهِ.

- وهل رأيتِ الجنّةَ يا جَدّتي؟

- لا، ولكنّ أبي «إبراهيم»، جَدُّك يرحمُهُ اللّه، حدّثني عنها في المنام. قال لي: إنّها تشبهُ أرضَنا، خضراءُ غنيةٌ بالأنهارِ والفواكهِ الطيّبةِ، وفيها كثيرٌ من الحليبِ والعسلِ. كلُّ ما فيها جميلٌ.

- وكيفَ ذهبَ أبوكِ إلى الجنّةِ أيضاً؟

- آهِ، يا ولدي. لقد استُشهِدَ على أرضِ فلسطينَ عام (١٩٤٨م)، إذ ذهبَ يدافعُ عنها ضدّ الصهاينةِ الغاصبينَ. غَدَرَ به أولئكَ الأوغادُ. ضربوهُ بقذيفةِ مدفعٍ، فسالَ دمُهُ الطاهرُ في الأرضِ المقدّسةِ، في قريةٍ عاليةٍ تعانقُ السَّماءَ، اسمُها الجِشُّ، قربَ صفد.

- سمعتُ من أبي أنّ والدَهُ ذهبَ إلى الجنّةِ أيضاً.

- آهِ، يرحمُهُ اللّه. استشهدَ جَدُّك «صالح» على ضفافِ بحيرةِ طبريّا عام (١٩٦٧م)، وروى دمُهُ الطّاهرُ تلكَ الأرضَ المباركةَ.

- كلُّ هؤلاءِ من أقاربي ذهبوا إلى الجنة؟ لماذا لا نذهبُ إليهم؟

- تلكَ هي جنّةُ السماءِ، ونحنُ نعيشُ في جنّةِ الأرضِ يا ولدي. أقاربُك، وكثيرونَ قبلَهم أو بعدَهم، ذهبوا هناك، ولا بدَّ أنْ نلتقيَ بهم ذاتَ يومٍ. أتذكّرُ -وأنا صغيرةٌ- أنّ جدّتي لأمّي روتْ لي

كيفَ أعدمَ التركيُّ (جمال باشا السفّاحُ) في السادسِ من أيار (١٩١٦م) كوكبةً من أشرفِ الناسِ في بلادِنا، في دمشقَ وبيروتَ، وكان عمُّها واحداً من الذين عُلِّقوا في ساحةِ المرجةِ لأيّام. أتذكّرُ أيضاً كم استُشهِدَ من المجاهدينَ أيامَ الاحتلالِ الفرنسيّ لبلدِنا، وكم دفعَ من الدمِ الغالي، حتى حصلَ أخيراً على الاستقلالِ.

❀❀❀

كان «وسام» مستغرِقاً في سماعِ أجوبةِ جَدَّته، لحظةَ نادتْهُ أمُّهُ كي يبقى إلى جانبِ أختِه الصغيرةِ «زنوبيـا» التي بلغتْ من العمرِ ثلاثةَ أشهرٍ، لأنها تريـدُ أن تحضّرَ الغداءَ، وهي تخشى أن تستيقظَ وتصيـحَ. راحَ «وسام» يراقـبُ «زنوبيا» –التي لم يرَها أبوها بعـدُ– ويقبّلُها وهي نائمةٌ، فيما تدورُ فـي مخيّلتِه إجاباتُ الجدّةِ عن عمِّه وأجدادِه. وراحَ يتخيّلُ كمْ هي الجنّةُ جميلةٌ، ويسألُ نفسَهُ: هل الترابُ في الجنّةِ أحمرُ أيضاً؟

وضعـتْ أمّ وسام طبـقَ الطعام الكبيرَ فوقَ (طبليّـة) مرتفعة قليلاً، ودَعَت الجَـدّةَ ووساماً كي يتنـاولا طعـامَ الغداءِ وهو: مجدّرةٌ حمراءُ، وزيتـونٌ أسودُ، وبصلٌ يابسٌ مقطّـعٌ، وشرائحُ بندورة، وخبزٌ تنوريّ ذهبيّ.

قالَ وسامٌ: أمّاهُ، هذه المجدّرةُ أيضاً حمراءُ، مثلَ ترابِ بستانِنا.

ردّت الأمُّ: قمحُ بلادِنا هو أجودُ أنواعِ القمحِ في العالمِ، وهو قمحٌ يرغب فيه كلّ الناسِ.

سألَ وسامٌ: وهل تنتجُ الأرضُ الحمراءُ قمحاً أحمرَ؟

أجابت الأمُّ: لا، ولكنّ قمحَنا من النوعِ الذهبيِّ، وقد صارَ أحمرَ بفضلِ البصلِ المقليّ بزيتِ الزيتونِ.

قالـتِ الجَدّةُ: آه ما أطيبَ الزيتونَ وزيتَ الزيتونِ مع خبزِ القمحِ التّنوريّ! أخبرني زوجي –رَحِمَهُ اللّه– أن بلادَنا لم تعرفِ الجوعَ إلا في الحروبِ الظالمة أيام المستعمرين الذين كانوا يسرقون الغلال.

سألَ وسامُ: ماذا تعني كلمةُ حروب؟

ردّتِ الجـدّة: إنها الحالةُ التـي يصبحُ فيها روحُ الإنسانِ مثل روحِ الحيـوان المفترس، مع فارقٍ مهمّ وهو: أنّ الإنسانَ يقتلُ أخاهُ الإنسانَ بغيرِ جوعٍ ولا ذنبٍ، من أجلِ أن يستوليَ على مالِه وغذائِه وأرضِـه. وفـي الحـروبِ تسيلُ الدّماءُ، دمـاءُ الأبرياء، وكذا دمـاءُ الأبطالِ الميامـينَ، مثل عمِّك وأجدادِك، الذين استبسَلوا في قتالِ الأعداءِ.

تنهّـدَ وسامٌ تنهيدةً طويلـةً، إذ أحسَّ أنّه قبضَ علـى (السّر)، سِرِّ حُمْرةِ التـرابِ في البستانِ. ناولتْه أمُّه لقمةً من المجدّرةِ اللذيذةِ التي تقطرُ زيتاً ذهبياً رائعاً، فأخذَها بشهيّةٍ عارمةٍ، فناولتْه غيرَها وغيرَها، حتّى امتلأ بطنُه، فتوقّفَ عن الطعام، مفاجئاً أمَّه وجدّتَه بالقولِ:

«الآنَ أصبحـتُ قويـاً، وأشعـرُ بأنّي قادرٌ علـى الدّفاعِ عـن بستانِنـا الأخضرِ الجميـلِ مثلَ عمّي وأجدادي، الذين صبغَ دمُهُم أرضَ البساتينِ كلّها. أنا سوفَ ألحقُ بأبي كي أقاتلَ الأعداءَ».

لم تتمالكِ الأمُّ والجَدّةُ نفسيْهما فأجشهتا بالبكاءِ، وهُما أمامَ جنديٍّ صغيرٍ وُلِدَ للتوِّ، كي يحافظَ على الحُمْرةِ في ترابِ كلِّ البساتين، فتخضوضرَ، ذاتَ ربيعٍ دائمٍ، خضرةً لا تزول.

❁ ❁ ❁

القربان

غزوان بزي

البيـت هادئ، هدوءاً خانقاً، والصمت ملأ المكان، حتى الستائر والخزانات والجدران أُشربت بالصمت...

هنـاك علـى (الكنبة) بجانب النافذة تكوّرت، داخل هذه الكرة، بـدأت تنبش وتتذكر الماضي، مـع أنه ليسـ بعيداً، قلّبت أوراقه، مدرستها، رفيقاتها، معلمتها «أمـل»، كانت مثل أختها الكبيرة، تحاورها وتشاورها في كل أمر، أحبتها كثيراً...

كانت أحاسيسُها مضطربةً، قلقلة، مشوشة، راحت تعصف بقلبها الصغير، فمرةً جعلتها تبتسم وفي أخرى تبكي، بكاءً يقدّ القلب والأعصاب...

تزوجـت منذ ثلاث سنوات تحت إلحاح والديها، زيّنا لها هـذا الزواج، جعلاها تحلم بالسعادة التـي لم ترها أبداً، كان صفقـة من صفقات والدها، التي كانت رابحة تماماً في ميزانه، وخاسرة في ميزان العدل والحب والتكافؤ...

كل يوم تتزيّن، وتلبس أجمل فساتينها، تجلس أمام الشاشة الصغيرة، تقلّب محطاتها حتى تملّ وتسـأم من كثرة إعادتها، يتأخر زوجها «جميل» كعادته، تنتظـره ساعة تلو الأخرى وتدق ساعتها عندَ الثانية بعد منتصف الليل، لكنه لا يأتي، يخيّم عليها التعب والإرهاق والملل فتغفو وتنام...

العمل الفني: الفنان مطيع علي.

إنــه بارع كوالدها في نسج الحجج والكذبــات المبتكرة، للخروج من المنزل، والسهر حتى وقت متأخر، وأحياناً كثيرة يأتي عند الفجر، وقد أضناها السهر وهدّها الانتظار...

مــا أقسى الانتظــار!؟ وما أذلّ الــذي ينتظرُ من لا يأبــه لانتظاره، يضربُ بمشاعــر وأحاسيس منتظره عرض الحائط، متعللاً بأسباب واهية، لا ترقى أبداً للتصديق أو الغفران...

أصبحت متأكدة الآن، أنَّ زواجها كان مجرد صفقة، فوالدها رجل ثري، أمضى حياته لاهثاً وراء الدرهــم والذهب، أحاديثه كلها عــن المال وتنميته، فكان من الضروري فــي نظره، أن يختار لها صاحــب المــال والثروة، ليضمن على الأقل أنَّ هذا الــزوج لا يطمع بماله، ويستطيع به ومعه تنمية الثــروة وزيادتهــا ولا سيّما أنَّ صهــره (جميل) كان مثله يعشق المال ويُجلّــه، فقد قدّم حياته بين قدميــه ولخدمته، فكان من البديهــي أن يخيّم الاتفاق والتفاهم بينهما، أمــا موافقتها أو رفضها هــي، فــكان أمراً غير وارد على الإطــلاق، فماذا تبتغي وتريد أكثر أو غير المــال، فبه ومعه تتأتّى السعادة وتُنال الأماني، هكذا كانت تقول أمُّها...



يعيشــ الأب والأم حياتهمــا ويجهــدان فــي طلــب الــرزق للأبنــاء، فــي حــدّ زعمهمــا، أنَّ سعــادة أولادهــم تتحقــق بتأميــن المــال لهم، وجعلهــم بمأمــن مــن براثن هــذه الحيــاة التي لا ولــن ترحمهــم أبــداً لفقرهــم وعوزهــم، أما أحاسيسهم، ومشاعرهم، وإراداتهم، في اختيار مــا يريــدون ويتمنــون لأرواحهم وقلوبهــم، فقد تجاهلها الأهل، غير مكترثيــن أو آبهين بتفاهته وضيق آفاقه، عليهم أن يفقهوا أنَّ السعادة شيء أسمى وأجــلّ من المال والذهــب والقصور، وأن الحــب، والمشاعر، والأحاسيــس، أرقى وأمضى من حساباتهم وصفقاتهــم، وأنّ في الجسد قلباً يخفــق وروحاً تحلّــق وتطيــر، تأبــى التجاهل أو الخنــق أو الموت، لهــا غذاؤهــا وبلسمها، فهموا ذلك أو صمّوا آذانهم وأعموا أعينهم عنه...

فكمـا عمدوا وجعلوا للمال تمثالاً، وراحوا يعبدونه، عليهـم أن يحطّموه ويسجدوا لخالق الروح، وخافـق القلب بيـن جوانحهم التي قست وتحجرت، فزجّوا بأبنائهم فـي غمار الحياة، لاهين عن أسبـاب سعادتهم، غافلين عن غذاء أرواحهم، الباحثة دوماً عن خلاصها وتمجيدها من الطرف الآخـر، الذي جعله الله وليفاً لا سيداً أو متحكمـاً.. فعندما تقدّم «جميل» إلى خطبتها، كان ودوداً ورومانسيـاً، عاملها أحسـن معاملة، انتقى أجمل العبارات وأرقّهـا، كان بارعاً فيما أراد، لتحقيق هدفه ونيل مراده، ليُدخل على قلبها الغبطة والسرور، وبذلك يحظى بالقبول، ويأسر قلبها وعقلها، ضامناً قبولها وموافقتها.

أحسَّتْ بأنه فارس أحلامها، وبأنها ستكون أسعد الفتيات، وأوفرهنّ حظاً بهذا الزواج الميمون، راحت تحلم وتحلم، حتى وصلت إلى القمر والنجوم، أما الآن فهي على الأرض تعيسة وحيدة، تُكلّم نفسها، لا يُؤْنسُ روحَها إلا أشباحُ الظلام والصمت..

شكـت للجدران والستائر ضيقَهـا وضجرَها، فأجابتها بالصمت، الـذي لا تعرف غيره، انطلق بـدوره يلـف عنقها بسياطه، راح يشـده بقوة، دونما هـوادة، فبدأت تضعف وتتحشـرج أنفاسها، تختنق، لكنه في لحظة النزع يخفف خنقه ويفلت الوثاق، ليجعلها تتنفس، أراد بقاءها حية تتعذّب، لأن في الموت، الخلاصَ والراحةَ، التي كانت تنشدها وتطلبها...

طلبـت مـن زوجها مراراً أنْ تنجب طفلاً، يمـلأ عليها حياتها، ويعبّئ أيامهـا لعباً ومرحاً، لكنه كان يماطل ويرفض، بقوله ليس الآن، فوقت البكاء والصراخ لم يحن بعد، أرادها متفرغة له وليس لأي شيء آخر، ولو كان طفلها...

لا تعـرف كل يـوم أين يذهب ومتى يعـود، وإن شكت إليه حالها، ووحدتهـا، وضيقها، وحبسها، وسَـأم روحهـا، وفراغ قلبهـا، ضحك وسخر منها ومـن أحاسيسها، بحجة أنه لا يخـرج إلى اللهو واللعـب، فهو يذهب للعمل، وعقد الصفقات كي يؤمّـن مستقبلها ومستقبل أطفالها، وأي مستقبل هـذا بعـد منتصف الليل، سيأتـي اليوم.. وتكون عواطفهـا قد تحجّـرت، وأحاسيسها ماتت، ولن تحتاج إليه في حياتها، فهي تريده اليوم معها، يتكلم معها، يحاورها، يلمسها بحنانه، ويسبغ عليها شيئاً من الاهتمام الذي طالما افتقدته طويلاً

وماذا سينفعها المالُ وقتَها؟

كانت لا تصدق كلّ ما يقول وما يدّعي، ولكنها لا تستطيع إلا السكوتَ والرضوخ والقَبول راغمةً، لأنـه لا خيـارَ لديها، فهي تطلـب الاهتمام والحب واللطف، وهذا بدا مستحيـلاً، كم رغبت في أنْ

يلمس جسدها بحب وحنـان، لا برغبة، حلمت على الدوام بأن تُعانق روحُه روحَها، وأن تسمع منه ولو كلمة طيبة محبّبة...

لكنـه مـا جاءها يوماً إلا ساعة الرغبة والشهوة، حتى بـدأت تكره جسدها وجسده، كرهت هذه الرغبـة الحيوانية، وتلك الصلة الخاصة التي لا يبدؤها بمقدمة أو قبلة أو نظرة، بل ينقضُّ عليها كمـا ينقض علـى المال والثروة، ينهشهـا كما ينهش فخـذ دجاجة محمّرة، وعندمـا ينتهي منها يرميها دون أن ينظر إليها حتى...

وعندما تسألها أمها عن حالها وحياتها مع زوجها، كانت تنظر إلى أمها نظرة فيها ما فيها من العتـاب، والألم، والخوف، والضعف، كانت تريد أن ترتمي في أحضانها كالسابق، وقتها سيختفي خوفها، وسيتلاشى ضعفها، لكنها فضلت الصمت، وبقيت شاردة، لأنها تعرف جواب أمها مسبقاً، بأنـه عليها التحمل والصبر، فكل شيء في بدايته صعب، وبعد وقت سيصبحُ مقبولاً ومحبباً، فقد تحمّلـت أمهـا كثيراً مع أبيها، صحيح أنَّ حياةَ أمها كانت جوفاءَ بلا أحاسيس، لكن المال موجودٌ، وتستطيع أن تحقق به ما تشاء وترغب، لكنها لم تستطع يوماً أن تشتري به حباً أو إحساساً بأنوثتها وضعفها...

وعندمـا جـاء الأطفال عكفـت على تربيتهـم والاعتناء بشؤونهـم، بعد أن نسيت غـذاء روحها ومتطلبات فؤادها...

ومن أصلاً يأبه لها ولروحها، وكأنها جسدٌ بلا أحاسيس أو مشاعر...

ولكن هل كان من الضروري أن يعاني الأبناء ويُحرموا ما حُرم وعانى منه الآباء والأمهات..؟

أو مـن واجب الوالدين أن يجنّبوا أولادهم هذا العـذاب والحرمان!؟ الذي ذاقاه وتجرعاه يوماً مـن كأس هذه الحياة الظالمـة أو المظلومة، لأنك لا تعرف بالضبط مـا اقترفته هذه الحياة من ذنب أو خطأ، لأننا جميعاً نرمي أخطاءَنا، وفشلنا، وعذاباتنا على الحياة، ونلعن قسوتها وظلمها، وما نلعن إلا أنفسنا الخائبة، التي لم تعرف يوماً دربها وخلاصها، بل شردت بعيداً عن حظيرتها، وراحـت تعبُّ المـال، غير آبهة بالتخمة، فـكان الجسد هو المنتصر والمسيطـر والحاكم، فضاع الهدف وتمزّق المقصد.

وهكـذا راحت الحياة تطـوي أيامها، يوماً بعد يوم وفي كل يوم ترتدي أحد فساتينها الملونة، وتزيـن شعرهـا، وتضـع ألوانـاً متناسقة متناغمـة، وكأنها تنتظـر المارد العمـلاق، لتُقدّم له كقربان...

تنظـر المرآة إليهـا، فتحزن لأجلها، تجلس على (الكنبة)، تجـول بعينيها في أنحاء البيت، إنه واسـعٌ إلى درجة الخوف، وباردٌ مثل بـرد جسدها، الباحث عن الدفء، إحساسها بالوحدة جعلها تُقـذف وتـدور في بحـر بلا قرار، تبحث عـن خلاص ومنارة تضـيء حياتها، ولكـن الموج اعتلى جسدها الضعيف ودفعها باتجاه الأعماق.

انتظـرت زوجها يحمل إليهـا وردة حمراء، يمسح على وجهها بحنان وحـب، يعانقها بلا رغبة، يحملها عالياً إلى القمر، ويتنقل معها بين النجوم، يمسك بيدها، ويحوطها بذراعيه...

❀ ❀ ❀

«تعليمة»!

غسّان كامل ونّوس

«هذا السيل من العربات، آه؛ كأنّه من نبع.. لا يتوقّف!»

هل تريده أن يتوقّف؟!

وهذه المكعّبات الكرتونيّة، كـ«جلمود صخر»، لا تني «تنهدّ من علٍ».. على كتفيك!

أما زلت تتذكّر الشعر الجاهليّ، وتردّده؟! أم أنّ هذا عصره حقّاً؟!

وهل ما يجري فيه، تستطيع أن تسمعه، وتراه، وتحسّه؛ مهرولاً تحت ربع المئة من الكيلوات المرتّبة بحرص مُرسليها، والمحصّنة بصرامتهم أن تُفتحَ بالذات؛ حيث يجب أن تصل؟!

وتصل، على الرغم من العثرات العصيّة والأخطار المحدقة، التي تُوقِف ما عداها!!

ليس الأمر هيّناً.. تُسارعُ بها إلى أراضٍ محرّمة عليك وعلى سواك! والأقسى أنّك ممتنّ لمن يقبلون بتشغيلك؛ آملاً أن يستمرّ رضاهم أيّاماً أكثر في الأسبوع، والأسابيع، والأشهر، والسنوات!!

ليس هيّناً عليك. لكنّه أهون من أن تراها تنحدر على أغرار في هذا الجحيم من الفتحات الغاصّة، يتعثّرون بها، ويتأرجحون تحتها؛ هم الذين ساعدهم حظّهم «السعيد»، في أن يجتازوا البوّابة العنيدة لهذا المستودع الهائل؛ فيما سواهم كثيرون، ما يزالون - ربّما - ينتظرون في

العمل الفني: الفنان ناصر زين الدين.

الخـارج، أو أرْخـوا أجنحة الذلّ، وعادوا خائبين.. هل يعيدون الكرّة غـداً أو بعده؟! للتشبث بأمل الحصول على بعض موارد، تشحّ باطّراد، خلال أعطال الجامعة التي تتطاول!!

لـن تقـول لهم: ما الذي ينتظرهم بعد أن ينجحوا؟! بعد أن يكملوا ما توقّف من مسارات علميّة، أو ما أُوقف، بانتظار بصيص أو شعاع. لن تقول لهم، ولست وحيداً هنا: إنّك خرّيج قديم، من دون تأخير، وقبل أن تبدأ الكارثة. لن تقول لهم. وتتمنّى أن تدفعهم ليبتعدوا؛ ليس من طريق دعوتك، التي تنتظرها كلّ مساء؛ كما قد يتوهّمون؛ بل كي يتركوا هذا العمل؛ وليس العمل عيباً؛ حتّى لو كان حَملاً من عربة إلى مستودع، ومن مستودع إلى آخر، أو إلى عربة أخرى!

«ليخرجوا من هنا، ليبتعدوا؛ ليس هذا العمل لهم، لا يقدرون عليه، لا يليق بهم. ليتهم يسمعون، ليتك تقول لهم، ليتهم يفهمون، ليتهم يستطيعون!»

❀❀❀

لـم يكن والدك حمّالاً؛ والمهنة ليست تهمـة أو إدانة. وشهادته لا تقلّ عنك، أو عن آمريك هنا، وقد لا يحملون شهادة؛ أمّا الذاهبة إليهم هذه المعونات، فتحصيلهم مختلف!

أنت لا تريد أن تفكّر في ذلك؛ كيلا تقلّ نخوتك، وتفتر حماستك؛ فهل تستطيع؟!

لعلّك تشغل نفسك، وأنت في حركة دائبة، لا تتوقّف، إلّا لتحلّ مقطورة مكان أخرى..

كنتـم تضحكون من روايته، سعـدون، عتّالِ القرية الشهير، الذي كان يقـول: «المعَلّم» يحبّني، يطلبني أكثر من سواي؛ لأنّني أحمل مثلَ اثنين!!

فماذا تقول أنت؟!

كنـت تسمع حكاياهم، ومشكلاتهم، وتَواكُلَ بعضهـم، وخصوماتهم. يستوقفك موقف من يريد أن يرتاح، فيحتال على زملائه، والمسؤولين عنه. كان يتّهم أيّاً كان بسبٍّ شخصيّة خطيرة، ويعلو صوته محـذّراً، فينصاعون له، و«يشترون سكوته». لكنّكم هنا، تعرفون جميعاً، أنّكم تعيشون على وقـع خصومات أكبـر، في أماكن أخرى عديـدة ومتباعدة، وتعتاشون ممّا هـو أكبر من الشتيمة، وأقسـى وأمرّ؛ ألهذا يسود الهدوء المشحون، والصمت المستفزّ؟! وتشتهون أحياناً أن تتخاصموا، أن تتشاتمـوا؛ لتخفّفوا مـن انضغاطكم، وتفرّغوا من شحناتكم. وقد تتمنّـى أن يعاملوك بقسوة، حتّى تشعر بالإهانة المباشرة؛ فتتمرّد، ربّما، أو تردّ؛ فيطردوك؛ هل تودّ ذلك حقّاً؟! وهل تستطيع

أن...؟! لكنّهـم يريحونك من هذا الموقف الصعب؛ فهم رائقون، صارمون، جادّون.. وهي صفات غريبة على غالبيّة مسؤولي مؤسّسات البلد!!

مـا يزعجـك أنّهم، وأنّكم مـن أبناء البلـد، الذين يعملون فيـه، لصالح أبنائـه حسب العنوان العريض، وبمؤسّسة لهـا مرجعيّتها الخارجيّة؛ حتّـى رواتبهم، لا تعويضاتكـم، ليست بعملة أهل البلد، والمورِّد، والمرسل، والمشرف الحاكم بأمره، أو أمرهم... كلّهم من خارج البلد.

وما يزعجك أكثر أنّها مساعدات «إنسانيّة»، تأتي باسم الشعب، ويفترض أن تكون لذويكم، لكم، حصّة فيها.. ليس هذا فحسب؛ إنّهم يفتّشونكم باتّهام مقيت كلَّ خروج! لكن.. لماذا تنزعج من هذا الحرص؟! فكّر فيما يثار من عكر عن مؤسّسة شبيهة، وبنتِ البلد، وقد خرج إلى الملأ! وتستذكر سعدون وزملاءه؛ كانـوا يُخرجـون أيّ شيء من المرفأ، وبـأيّ وسيلة؛ حتّى السكّر يعبّئونه في سـوق الأحذية الطويلة إلى جانب سيقانهم؛ أمّا السترات المنفوخة، فمغارات علي بابا!! هل وصلتهم هذه المعلومات؟! ألا يعرفون تاريخ المنطقة، وحاجات أبنائهـا؟! ألم يدرسوا سِيَرَ الناس، وعاداتهم، وخصائصهـم، وتنوّعهم، قبل أن يشعلوها بوقود وطنيّ؟!



لكنّكـم محتاجون إلـى عَون أيضاً. لـولا هذا، ما كنتـم هنا. لستـم متطوّعين. هنـاك متطوّعون في أماكن أخرى، يقدّمون مـا استطاعوا، ويوزّعون ما يأتيهم من أبناء البلد، وليس سوى فُتات، بالمقارنة مع هـذا؛ لكنّهـم على الأقـلّ راضون عـن عملهم، منسجمون مع قناعاتهم، ولا ينتظرون أجراً. تتمنّى لو كنت معهم، مثلهم؛ لكنّ الحاجة لا ترحم، وليس لديك الوقت، ولا الإمكانيّة متوافرة؛ لـ«تدعو بنارك تائهاً أو محتاجاً»، ولا تستطيع أن ترى «زغب القطا» بائسات، ولن تقتل «أكبادك خشية إملاق»!!

عـدتَ إلـى الجاهليّة؛ بل «هي التي عـادت إلينا، وهم يَقتُلون بلا سبب، وبلا رحمة، أو تفكير؛ حتّى لو كانوا يذكرون الله، ومن أجله يقومون به، ويبسملون

ويكبّـرون!»؛ «الجاهليّـة.. أليسـت هذه التسمية مجحفة بحـقّ ذلك العصر؟! ألا تليـق بعصرِ مَنْ أطلقها، والعصور التي تلت، إلى وقتنا هذا؟! ألم تكن فيه خصال وشهامات وأخلاق وريادات..؟! ولأمر ما طُمست، وغيّبت عن الذاكرة. وتبقى، يجب أن تبقى في الوجدان... طوبى للصعاليك!!»، أعجبتـك حالهم، ورغبتَ في أن تتابـع اختصاصك في بعضها؛ وعجـزتَ، وتضاعفتْ أمنيتك أن تتعمّق في دراستها أكثر؛ هل هو تعبير عن قصور؟! تعويض أم تبكيت؟!

«آه لو كنتُ، لو أستطيع أن أكون صعلوكاً!».

«أليس لأطفالي الحقّ في هذه المساعدات؟! ألستُ من أبناء البلد؟! ألم نتأثّر جميعاً بالأزمة، حتّى لـو كنّـا في منطقة، تبدو أقلّ سخونة؛ وليست فاترة، وربّما أكثـر من ذلك؛ فالأعراض والمؤشّرات والمنعكسـات.. ليسـت غائبة، لمن يريد أن يـرى، ويسمع، ويستشعر! وماذا عـن ارتفاع الأسعار؟! وافتقاد المواد في السوق، وافتقار سوق العمل إلى أصحاب التحصيل العلمي؟! فيما يقوم حاملوها، ونحن منهم، بتمريرها، حسب تعليمات، وأدلّة، واتّفاقات، ونوايا.. إلى من كانوا، أو كانت غالبيّتهم السببَ في كلّ ما جرى، وهم مستمرّون في الحصار والعسف والحرمان والقصف، لبقيّة خلق الله، الذي أرسلنا، وأرسلهم «شعوباً وقبائل؛ لنتعارف، ونتّقي، ولنَسْعى في مناكبها، ونعبده»!

وهل تذهب هذه المعونات وسواها إلى من يحتاج إليها حقّاً، بعيداً أو قريباً؛ بصرف النظر عمّن هم أكرم عند الله وأقرب؟!

ألا تكتظّ بها رفوفُ الدكاكين وأركانها؟!

ألا (يُبَسّـط) كثيـر مـن الحاصلين عليها، أو على مـا يشبهها؛ لبيعها حتّـى بالقرب من أماكن توزيعها؟!».

بالأمس، نمتما متخاصِمَين؛ احتججتَ على شرائها بعضاً من تلك البضاعة: هذا حرام!!

قالت، ولم تقل:

أليس حراماً أن تذهب إلى من لا يحتاج إليها، فيبيعها، ونحن.. لا يجوز أن نشتريها بسعر مخفّض عن مثيلاتها، إن وجدت؟!

هل من العدل أن تنقلها إليهم بيديك وكتفيك، وتأتيني في المساء منهكاً مكدوداً، وتحرمنا، كما حرمـوك منها؟! وننتظر كلّ مساء، بقلق وتوتّر، دعوتهم المنقذة، التي قد لا تأتي! وماذا يمكن أن أتحمّـل أكثر؟! شهادتي مثل شهادتك، وأعلّم بعض أطفال الحـيّ، والصغار يصعّبون عليّ ذلك.. ولا حيلة لي أو لك؛ ماذا نفعل؟!

هـل تَرَكَتْكَ غاصّـة، وسبقتك إلى فراشهـا، فراشكما الشائك، بعدما نـام الأطفال ككلّ يوم، بـلا شغفك ولهفتك؟! هل اقتنعتَ بما قالت؟! هـل تلحق بها؛ لتراضيها؟! أم تنتظر «تعليمةً» على جوّالـك، تدعـوك إلى يـوم فارس آخر، فـي جولة عمل أخـرى، أو معركة جديـدة. إنّها مواجهة حقيقيّـة، مواجهة غير متكافئـة؛ ككثير من المواجهات في الساحـات الأخرى. فأنت بلا سلاح؛ لقد تنازلتَ عن سلاحك، أو جُرّدتَ منه؛ ومن الطبيعيّ أن تخسر، أن تعيش فصول الهزيمة، قبل أن تقـع. فكّرتَ بشهادتِهـا، شهادتِك! ألا تسرع إليها قبل أن تنـام، إن استطاعت؟! لتخفّف عنها وعنك، بفعلٍ جاهلي، إن استطعت، تتّهمك بخشونته أحياناً؛ ولعلّه الأكثر إنسانيّة في ما تقوم به! أم أنّك لن تتنازل، لن تتراجع؛ فأنت الذكر الرجل المسؤول عنها، عن الصغار.. وتؤجّل التبكيت إلـى الساح المجنونة تلك! أين رجولتك هناك؟! «مكرٍّ مفرٍّ»، تحت الأحمال، أو سعياً إليها؛ أليس هـذا أهـون من الكرّ والفرّ فـي أماكن أخرى عديدة، وحيث تصل معوناتهـم هذه، التي تزيد من معاناة البلد، ومعاناتكم، زمناً آخر؟! أم أنّ «مصائب قوم عند قوم فوائد»؟!

تحـاول الابتعـاد عن جواب عنتـرة، حين سئـل مَلوماً: لماذا لا تكـرّ؟! حتّى لا يُفسّـر الأمر بما لستَ فـي وارده؛ ولست في واردِ «تقبيـل السيوف التي تلمع»؛ فلا وقـت ولا رغبة تدفعك إليها في الغرفـة التالية؛ الغرفة الوحيدة! تضحك بسخرية مـرّة: كيف تكون رغبة مع السيوف؟! السيوف؛ نعـم السيوف التـي عادت نواهلَ تقطر دمـاً، لا شعراً وتخييلاً، حسب مـا يستدعيه اختصاصك؛ بـل «تعليماتِ» عصـور الظلمات! فإلامَ تنشغلُ بالشعر الجاهليّ، عـن الفعل الجاهليّ، الذي تعيش فصوله؛ كالمستجير من الرمضاء بالنـار؟!

ولتنسَ أو تتنـاسَ؛ إن استطعت.

لكنّك لا تستطيع أن تُبعد من ذهنك ما يزيدك اشمئزازاً ونفوراً، حين يهيمن عليك، وأنت تركض تحت سيل المعونات، الذي لا ينتهي:

كـالعيسِ فـي الـبـيـداءِ يقتُلها الظّمـا
والـمـاءُ فـوقَ ظـهـورهـا مـحـمـولُ!

مـا تزال تنظـر إلى جوّالك كلّ حين، تنتظر إشارة، دعوة، إلـى «نهار آخر، سيغيب من عمرك، وتزيد غربتُك نهاراً آخر»، وتتجدّد المواجهة غير المتكافئة؛ فهل ستفرح، أم تكتئب؟!

❁ ❁ ❁

متاهة الدمار

فايزة داود

خرج حازم من تحت الركام لا كما يخرج جنين من رحم أمه، على الرغم من قناعته أنّه وُلد من جديد، أو كما يرددون في قريته الصغيرة (كُتبت له حياة جديدة)، أي أنَّ الموت أطلق سراحه وأعطاه للحياة كي يعود إلى قيدها، وقد فسّر ما حدث له أنّ ثمة مهاماً أرضية عليه أنْ يؤديها قبل أن يصبح على قيد الموت.

نظر حوله يستكشف المكان، وجد نفسه محاطاً بركام انتهى من سقوطه، وبعضه ينتظر قذيفةً تفتّته أو ريحاً قويةً تساعده على إتمام هلاكه، كما رأى أقنعة سوداء ممزقة وسليمة تتناثر على البيتون المهشم.

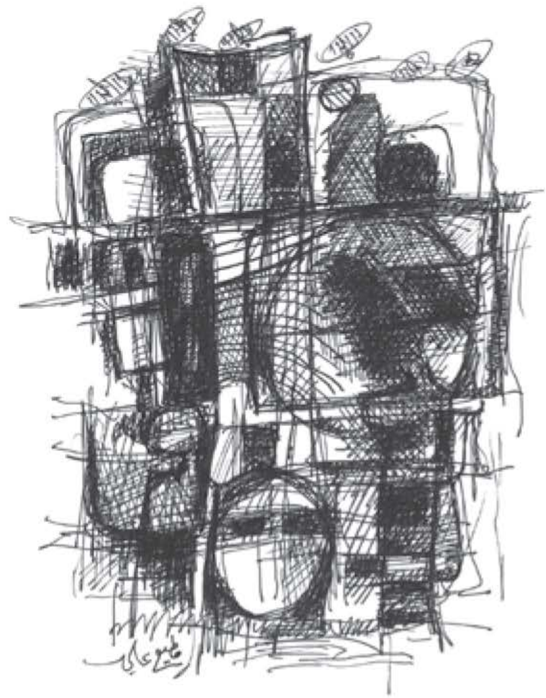
لم يفكر حازم بوضع قناع على وجهه على الرغم من كثرة الوجوه المقنّعة التي مرت أمام عينيه في الأيام الأخيرة، وقد رفض مقولة، مَنْ يدخل إلى مدينة العُوران عليه أنْ يضع يده على إحدى عينيه. إذ فضَّل أن يحتفظ بكامل رؤيته في مدن العُوران والعميان على حدّ سواء، وكان يقول عن النظارات الشمسية التي تغطّي العينين والجزأين الوحشي والأنسي منهما أنها أسوأ اختراع تفتق عنه الخيال البشري.

العمل الفني: الفنان مطيع علي.

مسح غبار الموت عن وجهه بكُمّ سترته المموهة، أما شعره المغبر فأعاد إليه بعض ألقه بكفه التي اكتشف أنها خالية من سلاحه الميداني، تلمَّسَ حزامه الجلدي وساءه أن يكون هو الآخر قد أفلت منه سلاحه الفردي. عاد إلى النعش الذي خرج منه قبل لحظات يبحث في ركامه عن سلاحيه الضائعين، وقد عثر فيه على جعبته التي تحتوي على زجاجة كبيرة من البلاستيك الشفاف مليئة بالماء المثلج وسبعة أرغفة خبزٍ مشروح مع مرطبانين زجاجيين، أحدهما مليء بحبات الزيتون الأخضر، والثاني يحتوي على كرات اللبن المجفف يغمرها زيت الزيتون الأسود (الخريج)، إضافة إلى أربع تفاحات قرمزية خيل إليه أنها قُطفت لتوها من الشجرة، نظر إلى تلك الأشياء وقدَّر أن تكون الحياة قد ملأت له الزجاجة بالماء البارد، وهي التي وضعت له أرغفة الخبز المشروح و(مرطباني) الزيتون الأخضر واللبن المجفف في الجعبة الخضراء، كما قامت هي بقطف التفاحات الطازجة من شجرة تفاح من صنف (ريد) تذكره بتلك التي تتصدر مدخل بيته في قريته (كرم الحلاوة) بالإضافة إلى براد شاي متوسط الحجم كان مخبّأ بعناية في زاوية الجعبة، أما السلاحان الميداني والفردي فلم يعثر لهما على أي أثر. وقد رأى ألا حاجة للبحث عنهما ليس لأنَّ الكتل الإسمنتية المتراكمة التهمت ذاكرة المكان، بل لأنه فهم الرسالة أو اعتقد أنه فهمها (الموت جرده من سلاحيه لأنّ المهام الأرضية الموكلة إليه لا تحتاج إلى أسلحة قتل وتهديم، يحلو لبعضهم أن يسميها أسلحة (دفاع عن النفس).

شكر حازم الحياة لأنها أعطته زاداً يكفيه ربما حتى يصل إلى قريته البعيدة عن هذا الدمار. ابتعد عن النعش بضع خطوات ثمَّ جلس خلف نصف جدار، على حجر بناء علقت عليها بقايا جليد أسود، فتح زجاجة الماء نصف الجامدة وقطر في فمه بضع قطرات شديدة البرودة، ثم مرر لسانه على شفيته الجافتين ومسح عنهما الغبار الرمادي، أخرج رغيفاً من الكيس الشفاف وقسمه إلى أربع وجبات، وزّع كرة لبنٍ جافة على ربع الرغيف ثم وضع فوقها سبع حبات زيتون بعد أن أخرج منها النوى ودفنها في التراب، وراح يلتهم الوجبة بشهية وهو يردد: إن رائحة يدَي أمي تفوح من كرات اللبن المجفف وحبات الزيتون الأخضر. كانت الوجبة الصغيرة كافية لجائع محاصر بالخوف وواثق من أن الموت نبذه لزمنٍ لا يعلمه، ألم يسلمه للحياة وينتزع منه سلاحيه؟

لكن الخوف كان ممتعاً في الحقيقة لأنَّ حازم استشعر من خلاله آدميته وتأكد من سلامة حواسه وجعله يثق بوجوده بعد خروجه من النعش سالماً معافى. ملأ غطاء البراد الأبيض بالشاي الشديد البرودة ومزمز حلاوتها الشديدة. كم تشبه شاي أمي. همس حازم في سرِّه.



كانت الريح تنثر على رأسه غبار النصف جدار فيمرر كفه على شعره الكستنائي لا لكي ينفضه بل لكي يحتفي بخروجه سالماً من بين الركام.

البيوت تتساوى في الدمار كما البشر تتساوى في الموت. قال حازم وهو يحدُّ النظر في الأسطح والجدران المتراكمة بعضها فوق بعض، التقطت أذناه صوت انهدام قريب، التصق بالنصف جدار وتمنى في تلك اللحظات لو يصبح جزءاً منه وذلك حتى يعتم المكان المحيط به أو يضاء ثم يعتم، ذلك أن كثافة الغبار تمنعه من معرفة الوقت، كما تحجب عنه عالم ما وراء الدمار، وقد طلب من الليل بصوت هامس أن يتنكر هذا اليوم فحسب لدورته السرمدية وينشر عتمته الشديدة قبل موعدها على درب توصله إلى جهة (صديقة أو متعاونة). هاتان المفردتان اللطيفتان يرددهما أسياد الحرب الدائرة في المدينة منذ أشهر، لكنه سمعهما منذ أيام فحسب، أي بعد التحاقه بالخدمة الإلزامية بشهر واحد.

وكأن الليل سمعه إذ قرر بعد أقل من ساعة أن يتنكر لدورته السرمدية، أو هذا ما فكر به حازم حيث عتم المكان أثناء بحثه في زوايا جعبته عن سكين يقطع بنصلها الحاد الجدران الغبارية علّه بذلك يصبح قادراً على تحديد الوقت المتبقي لقدوم النصف الأخير من اليوم، ويرى الفضاء البعيد، شكر الليل على كثافة العتمة، جمع زاده ثمَّ وضعه في جعبته وراح يسير بحذائه الصحراوي على الدرب التي قدّر أن يكون الليل عتمها لأجله هو فحسب، وبدا واثقاً من أنها ستوصله إلى جهة صديقة أو متعاونة، وذلك لأنَّ قائد مجموعة الاقتحام أكد وجود تلك الجهة شرق هذا الركام العظيم.

كان ضجيج الدمار المتقطع يطغى على وقع خطوات حذائه الصحراوي على الركام، ما جعله يصف قلوب صانعي الأحذية القتالية بالرقيقة.

إنها لاتصدر صوتاً ينبه عدواً عابراً لوجود شريك له في متاهة الخراب. وحين سمع سعالاً قريباً وصف صانعي تلك الأحذية بالدهاة وذلك لأنهم يصممون أحذية لا تصدر أصواتاً ما يجعل محاولة الهروب من القاتل مستحيلة. إنها الحرب الناعمة. قال حازم. ثم أضاف: يجب أن أخرج من متاهة الخراب إلى متاهة غير مخربة.

سمع خربشات قريبة، تجمّد في مكانه، حبس أنفاسه، همس: هنا في متاهة الخراب الموت أسرع من رفة عين، وأقرب من حبل الوريد؛ لأنَّ كل العابرين إمَّا أن يكونوا تائهين أو خارجين من نعوش التراب والركام، وهم من صناع الخراب ويستحقون الموت. لا أحد يصدق أنك تورطت في لعبة الخراب كي لا ينتقل إلى أماكن أخرى لمنع تمدده وفق فلسفة أحجار الدومينو لابد من الخراب لمنع الخراب يجب منع أحجار الدومينو من تنفيذ مهمتها الشريرة. قالها حازم بقناعة تامة.

سمع هديراً قوياً قدر أن يكون لجدار في متاهة الخراب خضع لفكرة أحجار الدومينو. حين هدأ الصوت وتلاشت الخربشات تابع حازم دورانه في متاهة الدمار، همس: قد تكون الخربشات لتائه مثلي، وربما يردد الكلام نفسه. لا بدّ من الخراب لمنع تمدده إلى أماكن أخرى. ارتطمت قدماه بشيء طري، لمسه بيده ليس خبزاً ولا طيناً، إنه فراش أو لحاف أو شيء من هذا القبيل، إنه جيد للنوم، لا أشعر بالنعاس ولن أنام، العتمة لا تنتظر، علي أن أصل قبل الفجر إلى متاهة لا يحجب فيها الغبار نور الشمس. قالها حازم ثمَّ راح يقفز بين الركام كنمرٍ جريح، الشرق. هتف بصوتٍ هامس. تذكر الشمس تطل خلف الجبل الأخضر وتغمزه من نافذة غرفته. لم يفكر بما ستقوله أمه حين تراه أمامها حياً يرزق، كما أنه لم يسأل نفسه ما إذا كان أحد قد أخبر أهله باختفائه أو موته. يا الله هل حدث أن مات أحد وعاد مثلي إلى الحياة؟. تذكَّر حكاية حدثت في القرية، استعادها كي يسلي نفسه بها، وفي الوقت نفسه رأى في حكاية موت برهوم فندي نسخة شبيهة لما حدث له بعد الاقتحام الذي قام به مع أفراد مجموعته منذ يومين.

توفي برهوم فندي في يوم لم يكن أحد ينتظر موته فاجتمع سكان القرية في بيته من أجل القيام بطقوس الدفن المعروفة، وبعد أن وضع الميت في التابوت كالعادة، قام أربعة رجال بحمله ثمّ توجهوا وخلفهم المشيعون إلى المقبرة، تعثر أحد الرجال في أثناء سيرهم على الطريق الترابية

بحجرٍ فأفلت التابوت من يديه ووقع على الأرض، وقد عجز الرجال الثلاثة عن التحكم بالتابوت ومنع سقوطه، لكن ماحدث بعد ذلك كان أكثر غرابة من حادثة سقوط التابوت الفريدة من نوعها حيث ادعى أحدُ المشيعين أنه رأى التابوت يهتز على الأرض. فردَّ عليه آخر أنَّ سبب اهتزازه يعود إلى السقوط المفاجئ على صخرةٍ غير مستوية، لكن أحد الممسكين بصندوق الموتى الخشبي قال إنّه سمع حشرجةً تخرج من الصندوق يستغيث فيها الميت، ويطالب بإخراجه من التابوت. وهنا اعترض الشيخ أحمد وقال: إنَّ (إكرام الميت دفنه) ومن غير الجائز شرعاً التنصت على أنين الميت وهو يعاني عذاب النار، وحثَّ الرجال الأربعة على التعجيل في إيصال التابوت إلى المقبرة من أجل التسريع في دفنه وقيام الصلاة على روحه (التي بات يشك في طهارتها) علها أي الصلاة تخفف قليلاً من العذاب الذي بدأ مبكراً هذه المرة على غير العادة، وهذا يحدث لأسباب لا تفهمها العامة من البشر. أصيب المشيعون بالارتباك وتبدلت وجوههم المتشحة برهبة الموت إلى خاشعة ومذهولة، وقد حصل ازدحام من بعض الفضوليين في أثناء تقاطرهم باتجاه التابوت كي يسمعوا أنين الميت وهو يعاني العذاب ويروا نار جهنم التي تحرق جلد الخاطئ ولا تؤثر في خشب التابوت القديم، وسرت همهمات بين المشيعين تتحدّث عن الميت كرجلٍ (قطع السبعة وذمتا) كما أطلق بعضهم عبارات الشماتة والتشفي على شخصٍ كان يصفهُ أهل القرية بالطيب والدرويش ولكن (تحت السواهي دواهي).

في ذروة الزحمة والسباق لرؤية نار جهنم وسماع أنين الميت في أثناء الاحتراق انقلب التابوت عن الصخرة وتدخرج برهوم فندي على الأرض، ورأى المشيعون لأول مرة ميتاً يعود إلى الحياة. أزالوا الكفن عنه وسألوه عما حدث له في أثناء موته فأجاب أنه سمع سلمى أثناء موته تقول إنه من الأفضل لمن صار عاجزاً عن حمل كيس الحنطة والقيام بمهام عصر الزيتون في الباطوس أن يريح ويرتاح. وقال إنه سمعها بعد ذلك تطلب منه أن يسامحها على ما قالت لأنه محسوب عليها عامل، وهو لم يعد ذلك العامل القوي. المرأة تحتاج رجلا قوياً تعتمد عليه حين تكبر ويخذلها جسدها الضعيف لا رجلاً يزيد من أعبائها الكثيرة. وقال برهوم إنه في أثناء موته شم رائحة شواءٍ تفوح في المكان ولا يدري إن كانت من رائحة جلده أم تراها أتت من أحد البيوت القريبة من بيته، وقد استغربت سلمى بعد عودتها مع برهوم إلى البيت وجود ديك مشوي على طاولة المطبخ مع بعض الخضار الطازجة إضافة إلى قنينة نبيذ أحمر. ورأت في حلم برهوم إشارة إلى أنَّ زوجها رجل صالح وعملت على إرضائه من خلال القيام بأعباء إضافية قبل أن يحلَّ

موعد الميتة الثانية والأخيرة التي اختارت فيها أربعة رجال لا يقعون ولا يتعثرون في أثناء حملهم التابوت إلى المقبرة، حين قالت مخاطبةً حاملي النعش: (وابني شوي شوي عالتابوت).

توقف حازم عن السير وراح يسأل نفسه عما سمعه وحلم به حين كان في النعش.

تذكر أنه سمع صوتاً يطلب منه الخروج من تحت الركام لأنَّ الحياة تحتاجه ليس بسبب شبابه وشجاعته فحسب بل كذلك لتحصيله العلمي ومعرفته التي جعلته ينسى أن يقبل على الملذات كما يليق بشاب لم يتجاوز السابعة والعشرين من عمره، وقد نصحه الصوت بألّا ينسى نصيبه من الدنيا بعد إعادته إلى الحياة. كما حلم في أثناء وجوده في النعش بماء وخبز وشاي وتفاح ولبنة مع زيت وزيتون، وقد وجد كل ما حلم به في جعبتة تحت الركام. تساءل بعد ذلك ما إذا كانت ميتته تشبه ميتة برهوم فندي. وقف حازم في أحد دهاليز المتاهة يبحث عن جهة الشرق، أين هي؟ أين هاتفي النقال وأين ساعة يدي؟

كيف لي أن أعرف الشرق حيث يوجد جهة صديقة ومتعاونة ولا أقترب من الجهات الأخرى حيث توجد جهات عدوة أو لا أحد. سخر حازم من هذا التعبير سائلاً نفسه ما إذا كانت تلك الجهة صديقة والجهات الأخرى عدوة، ولكن هل العداوة أو الفراغ يخيفان أكثر من متاهة لم تنته بعدُ من الانهيار؟

تساءل حازم وقد أدرك حينئذٍ أنه يستطيع أن يحدد جهتين فحسب الأولى جهة الأرض والثانية جهة السماء. أمّا الجهات الأربعة فهي متاهة الأحياء وهو الآن عاجز عن تحديدها.

ردد الكلمات التي سمعها في أثناء وجوده في النعش: الحياة تريد شبابك وشجاعتك ومن حولك يحتاجون معرفتك وشهادتك العلمية. سار حازم بثقة من أبرم اتفاقاً مع الحياة إلى أجلٍ قَدّر أن يكون بعيداً جداً.

في هذه العتمة قرر حازم أنْ يسير على الركام متخذاً وجهة واحدة، لكن قراره هذا كان يصطدم بجدران لم تنتهِ بعد من مهمة سقوطها على الأرض، كان يتزحلق على أسطح مائلة يصعدها كي يتزحلق إلى الجهة الأخرى يتحاشى الاقتراب من القضبان الحديدية على قلتها صار يهلوس: كأن تلك الأبنية رُفعت ببضعة قضبانٍ صدئة، إن أحذية القماش ليست جيدة للسير في هذا المكان، هي تصلح لمعارك تدور في الصحراء. توقف عن الهلوسة حين سمع همهمات وسعالاً، بعضها كان قريباً وأكثرها بعيد، فقد منع أيّ احتجاج من رئتيه على الغبار الذي يشغل الفضاء، لم يسعل أو يتنحنح مخافة أن يلتقط أحدهم صوته، ليس خوفاً من الموت الذي رفضه،

ولكن ليس من الذكاء هدر الوقت في مواجهة لاجدوى منها، خرج منها مهزوماً أم منتصراً، قدر أن يكون الآخرون مثله يتحاشون المواجهة ويبحثون عن مخرج آمن من متاهة الدمار، أدرك استحالة السير وفق وجهة واحدة حين شعر بأنه يدور في المكان وكذلك آخرون، كان يسمع سعالهم المتقطع، تذكر والده حين كان يأخذه إلى مدينة الملاهي القريبة من البحر، تذكّر أرجوحة دائرية الشكل يجلس الأولاد والبنات على مقاعدها وتدور بهم فيحل كل واحد مكان الآخر. هو الآن في أرجوحة معطوبة يستخدم رجليه وكذلك الآخرون الذين يسمع همهماتهم وسعالهم المبغوم وكأنهم مثله يخافون أن يعرفوا أو يروا.

قدر أن تكون المتاهات الأخرى أرحم من متاهة الدمار بكثير.

كان حازم مليئاً بالحماس الذي شحنه به رفض الموت له وثقته أنه صار من أبناء الحياة كان يسير وكأنه يركض ويركض وكأنه يطير، يردد:

السماء لا تحتاج شهادتي ومعرفتي والنعش لا يريد شبابي وشجاعتي فلِمَ الحذر والخوف؟ شعر بصوت يمر بمحاذاة أذنه، ما هو؟ ليس صوت قذيفة، إنه يشبه صوت رفرفة جناح. هل هو غراب أو بومة أو باز أو تراه خفاشاً؟ صار يمرر يده أمام وجهه مخافة أن يصطدم شيء طائراً بعينيه، راح بعد ذلك يقفز في المجهول المدمر.

قبل أن يبدأ الفجر بإرسال نوره الغباري جلس حازم على أرضية زاوية تمسك ببقايا جدارين إسمنتيين نصف مهدمين وراح يلتقط أنفاسه ويتحسس جسده المتعب.

متاهة الضياع

بلَّل شفتيه بالماء المثلج، وتناول تفاحة قرمزية اللون، ثمَّ اتكأ على الزاوية المطلية بالكلس الأبيض، وراح يعاند النعاس وينظر إلى الجهات الأربعة ليس خوفاً من عابر في متاهة الدمار بل باحثاً عن قرص الشمس المغبر يقوده إلى الجهة الصديقة والمتعاونة، ملأ القدح الأبيض بالشاي وراح يمزمز برودته بهدوء، رأى على بعد بضعة أمتار كلباً يلوح بذيله فوق الركام قدر أن تكون وجهته جثةً ما، بعد لحظات لحقت به ثلاثة كلاب همس: صارت الكلاب ذئاباً وجهتها الجثث المنتشرة في متاهة الدمار. قالها حازم وهو يرمي (شقف) بيتونية صغيرة باتجاه الكلاب الضالة.

تعبــت عينــاه من البحث عــن ضوءٍ يبزغ خلف الغبــار، انتابه خوف من العــودة إلى الدوران في متاهــة الدمار، لكن قرص الشمس الذي بدا له دائرة رمادية أعاد إليه الأمل بالخروج إلى متاهة أخـرى، وجَّه فتحة العبوة البلاستيكية إلى جهــة القرص الرمادي وهو يتساءل عن الوقت، هل هو الغـروب أو الشروق؟ إن نهارات كانون قصيرة لذلك وجد نفسه بعد ساعات قليلة محاطاً بالعتمة الشديدة.

بعــد ساعتيــن من السير فــي متاهة الركام وصل حــازم إلى أرضٍ مفتوحة، ولــم يمنع الحذاء الصحراوي برودة الرمل الشديدة من التسرب إلى أسفل قدميه.

علــى الرغــم من ذلك بدا حازم مرتاحاً لخروجه من متاهة الدمار، إذ قدر أن يساعده الفضاء المفتـوح على رؤية العالم وربما معرفة الجهات الأربع، لكنه اكتشف خطأ تقديره حين وجد نفسه عند الفجر في قلب عاصفةٍ غبارية (العجاج) حيث سارع إلى وضع يديه على وجهه وراح يتساءل ما إذا كان ثمة فرق كبير بين البحر والصحراء.

كان حازم على تناغم مع عالم البحر، يتماهى مع سكونه، يتقن فن الفكاك من عواصفه الفتاكة، يلتقــط جســده أنواءَه المفاجئــة، فيتركه يحمل جسده أثنــاء مد أمواجه، يعلو معهــا ويهبط، لكنه يتخــاذل فــي حالة الجزر حيث يثبت مــا أمكن جسده في المكان الذي أوصلــه إليه الموج في أثناء مــده باتجــاه الشاطئ، ينتظــر موجة جديدة تقربه أكثــر إلى بر الأمان. «الحمقــى وحدهم يقفون بوجــه العواصــف». قالها حازم وهو يبحث عن شيء يمسك به كي لا ترميه العاصفة إلى جهةٍ عدوة أو مجهولــة، وحيــن لم يعثــر على شجرةٍ صحراويــة أو عمود خشبي، قرر أن يمســك بالأرض، نزع قميصــه (التحتي) عن جسده وغطى بــه وجهه، ثمّ جلس على الرمل البارد وهو يضغط بكلتا يديه علــى جعبته الخضراء. لا يدري كم من الوقت مرَّ على هبوب العاصفة لكنه وجد نفسه بعد سكونها مطموراً في نعشٍ ترابي أصفر، استثنى رأسه فحسب، خرج منه بسهولة، نفض الرمل الصحراوي عــن جسده وبات على ثقةٍ تامــة بأنَّ الاتفاق مع الموت لأجل الحياة لم يخــرق، وأنَّ الأخيرة تحتاج شجاعته وشهادته الجامعية وكذلك معرفته، نعم، لديه كل مقومات الحياة، هو لا يملك الآن أسباب الموت لذلك لن يقربه، وكان عليه أن يبحث عن الجعبة. لابد أن تكون في النعش الرملي. قال حازم بثقة. وراح يبحث عنها على الرغم من تقديره أن إيجادها يحتاج إلى وقتٍ طويل، بعد ساعتين من البحث أدرك أنَّ العثور على الجعبة أمر مستحيل، إذ قدر أن تكون العاصفة حملتها إلى مكانٍ بعيد أو طمرتها تحت أحد الكثبان، جلس على الأرض، وراح ينظر إلى حشراتٍ ميتة وأخرى كانت تتخبط

على الغبار الصحراوي. «إنه الجراد». قالها حازم وهو يلتقط جرادةً ميتة. تذكر بعد ذلك أنه قرأ في مجلة مختصة في الغذاء عن بعض الشعوب التي تأكل الجراد، تساءل ما إذا كانت الحياة حمّلت العاصفة تلك الحشرات كي تكون له زاداً، ذلك أنَّ الصحراء ليست قريته كرم الحلاوة كي تحمل له خبزاً وزيتوناً ولبناً مجففاً وزيتاً وتفاحاً. بقي الماء. كيف سترسل الحياة الماء إلى هذا المكان؟ نظر حوله فلم يجد ماءً، أطلق نظره إلى البعيد لم ير واحةً أو سراباً، لكنه بدا واثقاً بأنَّ الماء موجود في مكانٍ ليس بعيداً، وعليه الآن أن يعمل على جمع كثيرٍ من الجراد، قبل أن تأتي عاصفة تطمرها أو تحملها إلى أماكن بعيدة كما أنه بدا عاجزاً عن معرفة الزمن الذي سيقضيه في متاهة الصحراء. لكن ما حدث بعد ذلك جعل حازم يثق بالحياة أكثر من أنبل بني البشر، فها هي ترسل الماء مدراراً تملأ به أخاديد الصحراء وتصنع له حفراً كي يشرب منها، تغسل له وجهه وشعره، تنظف له ثيابه وتعطي جسده بعض الطراوة، احتفل بالمطر الموحل كما لو أنه يحتفي بأول زخة خريفية غسلت بيوت وحقول قريته الصغيرة. حين أشرقت الشمس شعر حازم بأنه صار عارياً تماماً ومرئياً بشكلٍ مخيف. حتى إذا اعتلت قبة السماء شعر بحرارتها تحرق شعر الرأس وتشوي الجلد العاري، ارتدى سترته المموهة، وسأل نفسه عن جهة الشرق، بدت له الصحراء متاهة بلا حدود كما أن الجهات بعيدة ويصعب تحديدها، قرر أن يجلس في مكانه حتى يظهر القمر أو نجم سهيل، رأى شيئاً يتحرك على الأرض الصفراء، هتف ملء صوته: إنهم الأصدقاء، فقد صدق قائد المجموعة حين قال: في الشرق يوجد جهة صديقة ومتعاونة.

متاهة الصحراء

كم تشبه الصحارى البحار. قالها حازم وهو ينظر إلى شيء يجدف على الرمل المبلل ويثير في أثناء تجديفة زوابعَ طينية تتشظى في كل الجهات، تراجع إلى الوراء بضع خطوات تساءل عما يكون ذلك الشيء القادم. من جهةٍ بات يشك أن تكون الشرق بل تساءل ما إذا ثمة جهة سابعة في الصحراء، لأنَّ ذلك الشيء لا يشبه سيارات الأصدقاء ولا دباباتهم، كما أنه لا يشبه سيارات الأعداء المعروفين، هو يشبه التابوت، نظر حوله يبحث عن مخبأ يحجبه عن عيون المتخفين خلف المجسم الملطخ بالوحل الأصفر، وحين لم يجد خطرت في رأسه فكرة النعش الرملي، جلس على ركبتيه وراح يصنع لنفسه مخبأً يحجبه عن عيون الأعداء.

كان التابوت يتجه إليه بسرعة وهو يحفر نعشه بصدره ويديه مليئاً بإرادة الحياة ومصمماً على الاستمرار فـي وضع مفهوم جديـد للشجاعة، ذلك المفهوم الذي جعله يقـوم بكل ما يليق بشاب رأى مـا لـم يره أقرانه، فقد رفض أن يكون من محبي التسكع والنفخ في (الأراجيل) في المقاهي والحدائق العامة لساعـاتٍ طويلة، تفوق في المراحل الدراسية جميعها، زين مدخل المنزل الذي ولـد فيـه بالأشجار المثمـرة، أسهم في شق طرقٍ زراعيـة بين حقول الزيتـون والتفاح، حمل إلى القريـة أصنافاً جديدة من الأشجار، انضم إلى فرق عملٍ تعنى بالبيئة، أسهم في إطفاء كثيرٍ من حرائق محميات الأرز والصنوبر المحيطة بكرم الحلاوة، وعلى الرغم من سخريته المستمرة من قصيـدة فـي المنهاج المدرسي تمجد السيف وتقول إنه أصدق أنبـاءً من الكتب، وإنَّ حده يفصل بيـن الجد واللعـب. فقد التحق بالجيش وتصدى للمقنَّعين و... توقـف التابوت ذو الراية السوداء الملطخـة بالوحل بجانب حازم وقد أثار وقوفه المفاجـئ شلالات من الوحل الأصفر، تشظت في المـكان ولم تستثن حازم الذي مسح وجهه ووقف ينظر إلى أحد أبواب التابوت وهو يُفتح ويترجل منه ثلاثة رجال مقنَّعين ومدججين بالسلاح، أدرك حازم وهو يبحث عن وجوههم تحت القناع أنَّ الحياة نقضت العهد، فقد تخلت عنه كما يتخلى البشر العاديون عمن وضع ثقته بهم.

سألـه مقنَّـع ضخم الجثـة عمن يكون. لم يجب حـازم ليس عجزاً بل لأنه يعلـم أنَّ الجواب لن يعيـد الوصـل بينه وبين الحياة. تساءل المقنَّع الثاني عن جـدوى سؤال كافرٍ عمن يكون وإشارات الكفـر ظاهرة أمـام أعينهم، راح بعد ذلك يعدد العلامات التي تديـن حازم بالكفر كاللحية التي يبـدو أنهـا حلقت منذ أقل من أسبـوع فحسب، وكذلك خلو الجبين من علامـة الصلاة والسجود الطويـل (الزبيبة) إضافـة إلى شعر رأسه القصير. نظر الثالث إلـى النعش ثمَّ اقترب من حازم ووضـع فوهة البـارودة على عنقه وراح يدفعه أمامه، طلب منه بعد ذلك أن يستلقي على ظهره في النعش الذي حفره لنفسه، ثمَّ أشار إلى المقنَّع الضخم كي يصعد إلى المركبة الصحراوية ويمرر العجلات على النعش حتى يسوي جسد الكافر بالرمال.

كان حـازم واثقاً من أنَّ مفهومه للشجاعة سيثير سخريتهم إن تحدَّث به، وقد يجعلهم يبحثون عـن أسلوب قتلٍ أكثر إيلاماً من الموت تحت عجلات التابوت الصحراوي، لذلك وجد نفسه يقول حين كان مغمض العينين ينتظر قدره: من يدري قد تحتاج السماء شهادتي ومعرفتي، أما النعش الرملي فيبدو أنه يريد جسدي.

❁ ❁ ❁

حبٌّ غير عابر

لبيبة صالح

صعد الركاب جميعهم الحافلة، التي امتلأت مقاعدها إلا مقعداً. وبعد هنيهة تقدَّم جندي حاملاً بندقيته متوجهاً باتجاه المقعد الخلفي الذي يتّسع لأربعة ركاب يجلسون على نسق واحد من جهة اليمين. وبجانب النافذة جلستُ أترقّبُ لحظة انطلاق الحافلة، وفي الوقت نفسه كنت أنظر إلى الركاب بعين الفضول. بجانبي وعلى اليسار جلست امرأة كانت في سن الشباب وبرفقتها طفلة تبدو في الرابعة من عمرها. فصل بيننا الحيّز الذي بقي شاغراً إلى حين وصول ذاك الجندي. أثارت البندقية الخوف في قلب الطفلة هذا ما بدا على وجهها. ضمّتها الأم إلى صدرها ثم تبادلتا الأماكن بحيث أصبحت الطفلة، ملاصقة للنافذة اليسرى والتصقت بها الأم حاضنة مطمئنة.

بدا لي أن كل شيء اعتيادي، لا يستحق أن يراقب. لكن بدا أيضاً أن الأم الشابة الجالسة بجانب الجندي قد تخلّصت من تحفّظها الذي أظهرته في البداية. وربما بدا لها الجندي لطيفاً وشاعرياً وقد نحَّى بندقيته حين أحسّ أنها قد تُخيف الطفلة. ولكن الطفلة ابتسمت له نيابة عن أمها، ابتسامة طفولية، جعلته يبدو وكأنه هو أيضاً طفل أو رجل يحب الأطفال.

أشحت بوجهي كي لا أحرج الجندي الشاب. ورحت أتابع بناظري المشاهد على يمين الطريق.. كانت الأشجار تتسابق مع الحافلة وتفوز عليها، وكان الصمت يعم المكان وأغلبية الركاب نيام.

وبـدأت أسهو مثلهم بفعل العـدوى التي لحقت بي لا أدري كم استمرت هذه الإغفاءة، لكن خلالها كان يتناهى إلى مسمعي تمتمات متواصلة تأتي من الجهة المجاورة لي.

حسبـت أن السيدة تتحدَّث من خلال جهازها الخلوي لأنني لم أسمع سوى صوت واحد.لم أكن أستـرق السمـع، ولم تكن من عادتي. لكن الصـوت كان يتحدث راوياً قصـة طويلة على ما يبدو، ولا سيمـا أن الصـوت كان قد انقطع، والحافلة أيضاً توقفت وأعلن السائق عن استراحة لمدة ربع ساعة.

نزل الركاب ونزلت الأم الشابة وهي ممسكة بيد طفلتها ونزل الجندي الشاب متأبطاً بندقيته. كان وسيماً طلق المحيا.

قصـة لم تكتمـل لكن جزءها الأول مؤثر؛ قصة نزوح جماعي عـن الديار والبلدة باتجاه المدن الآمنة تاركين وراءهم كل الممتلكات، وحاملين الذكريات عن أيامهم الخالية وآمالهم بالعودة.

انتهـت الاستراحة، وبدأ الركاب صعـود الحافلة واحتلال أماكنهم، ثـم ظهر الشاب ووراءَه كانـت الأم وابنتهـا، كانتـا بشوشتين وملامـح التوتر والاضطـراب التي ظهرت علـى الأم في بدايـة الرحلة حـلّ محلهما الود والطيبة. ظلّ الشاب واقفاً حتـى أجلسهما ثم استقرّ هو الآخر فـي مقعـده. هذه المرة لم تعد الطفلـة خائفة فقد أصرَّت على أن تجلس بجانب الشاب. فقد أوضـح لهـا بصوت خافت ضد مَنْ يحمـل هو هذا السلاح ولأجل مـاذا.. وكأنه يحاور الأم من خلال الطفلة، وفهمت الأم ذلك، ابتسمت وهزّت رأسها موافقة. تحدَّثت المرأة مع جارها عن بعض الأشياء والحكايات وعـن معارف مشتركين، وكانت الطفلة تستمع وتراقب كل حركة من الاثنين، وأحياناً تضع كفها الصغيرة على وجه الجندي وتمسح خده برفق بينما هو يقبّل يدها، ويشدُّ جدائلها برفق.

وهكذا أصبحا صديقين (الجندي والطفلة). ابتسمت في خاطري فرحة بتبدل المزاج وتمنّيت أن يعمَّ هذا على كل النا س، وسمعت الشاب يحثّ الأم على متابعة روايتها.

تكلّمـت المرأة كثيـراً، كان الحديـث مؤثراً جداً، وكانـت الطفلة تتدخل بيـن الفينة والأخرى، وسمعتهـا تقـول: أنا ذاهبة إلى بيتي، وسوف أفتّش عن أشيائـي وألعابي فقد أبلغوا ماما أن بلدتنا أصبحت آمنة.

مضـت ساعـة من الزمن وما لبثت الحافلـة أن توقّفت من جديد، في هـذه المرة كانت الطفلة تحمل بيديها أكياس البطاطا والكعك.

جلستا، (المرأة وابنتها)، في مقعديهما، بقي مقعد الشاب فارغاً، انتظرت الطفلة برهة، تلفتت حولها، لم تجده، وسألت بلهفة: ماما أين (عمو)؟

تريّثت الأم في الإجابة، ثم قالت: ذهب «عمو» إلى عمله. سمعت الطفلة تقول بصوتها الطفولي العذب: أنا أحب (عمو) إنه لطيف.

أصابنـــي شعور الطفلة نفسه، اللهفة نفسها، فتّشتُ عنه عبر النافذة، رأيته كان يجتاز الطريق إلــى الجهة المقابلة، شاباً يافعاً مفعماً بالحياة، وربما كان كل مَنْ في الحافلة يرمقونه بالمشاعر نفسها، ويعترفون له بأنه ترك في نفوسهم أثراً طيباً.

❁ ❁ ❁

عيون كواكب
يا كل العيون

محمد الحفري

أتذكـر عيني كواكب الآن وأنا ضمن وفد يصل إلى هــذه المدينة، كأني مجدداً أرى تلك الفتاة. العينـــان نفسهمــا والطول والملامح، ولم أدر لحظتها إن كنت في حلـم أم إنني أمام الحقيقة، لم أدر ودهشتي تخالط فرحي ماذا أفعل وأنا أرى في عينيها حزناً يخفي خلفه دموعاً حتى إنني كدت أمد يدي وأمسح ما تبلل من جفنيها.

كانت عيناها كل ما رأت عيناي وعلى الرغم من كثرة من كانوا حولها، وعلى الرغم من حرارة المستقبلين لنا في تلك الصالة، فقد كانتا مثل وردتين بلّلهما ندى الصباح بعذوبة ورفق.

وكمــا يحدث فــي عالم الأحلام أو في فيلـم سينمائي، تعثرت خطــاي وابتلعت ريقي مراراً فــي طريــق الوصول إليها، وكنت حقيقــة أتمنى لو تخطيت كل من هم أمامــي راكضاً، ولهاثي يسابقنــي نحوها كي أصافح تينك الجوهرتين وأضمهما، فأنا لم أر مثلهما في الآونة الأخيرة إلا مرتين، مرة وأنا عائد من عملي حيث شاهدت امرأة تتهادى في مشيتها إلى جانب الشارع المحــاذي لمكتبنــا، ويومها توقفت أرقب عينيها وهي تتجاوزنــي مبتعدة، وقلبي تركني وتبعها إلــى حيث غابت واختفت وسط الزحام، وعندها عاد إليّ يحثني كي لا أضيّع الفرصة، ويومها منعنــي الوقار الذي صــار يلبسني دائماً من اللحاق بها، والأمل خدعنــي بأن هذا هو طريقها

العمل الفني: الفنانة منى المقداد.

اليومـي، لكنني انتظرتهـا أياماً وأياماً ولم تعد منذ تلك اللحظة، تاركة ذاك الشارع يشكو من غيابها.

في المرة الثانية كانت العينان نفسهما تجلسان بجوار طاولتي على ضفة الفرات، ويومها أسمعني أصحابي عـدداً من قصائد الغزل، لم أفهـم منها حرفاً لأنني كنت أرقب عينيها وأكتب في قلبي كلمات منسقة، حاولت ولأول مرة في حياتي كي تكون شعراً أو نثراً أو ما شابهه، كلمات بذلت جهداً كبيراً فيما بعد كي أسطّرها فوق الورق، لكنني كعادتي لا أكمل ما بدأته لأن تأثير اللحظة وسحرها منعني من ذلك، أو لعلني لا أتقن تجسيد مثل هذا الوصف بما فيه من إحساس ومشاعر.

ويومهـا غـادرت الصحـب وقلبي يرفـرف مذبوحاً علـى شاطئ الفـرات، غادرت أنـا وعينان ساحرتان تستقران في داخلي أو ربما تزرعان فيه إلى الأبد..

غـادرت على حلم بموعد تمنيـت أن يتحقق في شارع المنصور، حيـث تقطن صاحبتهما في تلك المدينـة الفراتية الساحرة، وحيث ضبطت نفسي متلبساً أكثر من مرة وأنا أتمشى هناك باحثاً عن صاحبتهمـا، لأواجه نفسـي بسؤال طرحته كثيراً عليها، وهو لماذا أحـاول دائماً القبض على لحظة فاتـت؟.. لماذا أحـاول أن أنبش الماضي وهو ميـت بعيد لا يمكن في حال من الأحـوال أن يعود؟.. مـراراً قلـت لنفسي ماذا تفعل هنا؟ أو ماذا يفعل رجل مثلك في هذا المكان وقد ترك القسم الأكبر من عمره وراء ظهره؟ ومراراً حاولت نصح نفسي بالابتعاد والنسيان لكنها خالفتني ولم ترتدع، حتى عندمـا أنَّبتُهـا وزجرتها بكلمات مثل «عيب، واستحِ، هذا تصرف لا يليق برجل في سنك» كانت تغلق أذنيهـا وتتجاهل تلك الكلمات وتبقيهما مفتوحتيـن إلى عصف الريح في ماض بعيد، وكانت تحاول أن تلم بتلك العيون شتات امرأة ذهبت في حال سبيلها، امرأة يتردد اسمها صباح مساء بين شفتي كنشيد ونشيج طالباً من صاحبته الغفران، وهي كشمس وقمر لا تتشابه معه كلّ نساء الأرض..

تداعـت كل هـذه الأفكار في رأسي أو تذكرت كل هذا فـي لحظة أو ربما في أقل من ذلك، حيث كنـت أمـد يداً مرتعشـة نحو تلك المـرأة التي كانت واقفة مـع من يستقبلنا حيث قلـت بما يشبه الهمس: «أموت في هذه العيون».

أشـارت بيدها الأخـرى إلى صدرها وقالت وهي تبتسم برقة وتعضّ على شفتها السفلى: «نلتقي لاحقاً».

ذبحتنـي بكلمة «لاحقاً» وهي تذوب في فمهـا كما يذوب الشهد، وأنا الذي كنت أريد أن أحتفظ بيدها ولو للحظات.



كأنها كانت هي وقد تحولت إلى طفلة صغيرة بعد أن شج أحدهم رأسي حيث عدت إلى شارع الضحايا، واقتربت من ساحته الصغيرة، فوجدتها خالية وقد انفض عنها الأولاد المتشاجرون إلى حارة أخرى، لكن كواكب التي تصغرني بعدة أعوام وتساويني حجماً كانت تجلس وحيدة هناك، وعندما رأتني مقبلاً، ركضت نحوي وبيدها خرقة كبيرة، شقّتها إلى نصفين، وعصبت جرحي، ثم أخبرتني أن ابن عمها مرعي قد ضربني من أجلها، لأنه يغار عليها مني، ثم دلتني بعدها على مكانه لأثأر لي ولها منه، وحينما تلطّيت له عند إحدى الزوايا وباغتُّه بحجر على رأسه من الخلف. سقط أرضاً، وعندها قبلتني كواكب بين عيني قبلة عيشتني دهراً من النشوة اللذيذة التي لا أنساها، ويومها لمحت الأمل من (جدولتها) الصغيرة، ومن عتمة شعرها أبصرت ليلاً طويل كان علي أن أدوس ظلمته، كي أتعثر، وربما كي أسقط سقطتي الأخيرة.

كواكب هي رائحة حنيني الأول منذ الطفولة الطازجة المرصعة بالمتاهة والأماني البعيدة، حيث كانت الأسئلة غماماً يتوعد بالمطر، وبمجرد أن أراها أشعر بشيء يشتعل داخلي، وذكر اسمها فحسب يسبب لي كثيراً من الارتباك والإحراج كما هو حالي اليوم وأنا أكتب اسمها لأول مرة فوق الورق بعد أن خبأته طويلاً في قلبي.

بعد أن افترقنا رأيتها مرة بمحض المصادفة، فآه، ثم ألف آه عليها، وعلى زمن تظلم فيه من هي في مثل حسنها وعذوبتها ورقتها، وآه دائمة من زمن يصبح فيه الأقزام عمالقة يمتلكون النجوم بين أيديهم، ويتحكمون بمصائرها. برقت عيناي وهي تلقي عليّ همساً تحية المساء، وحينما رددت عليها، كنت أخفي رعشة سرت في كل أنحاء جسدي، آه كم هذا غريب وعجيب؟ عمر مضى أو كاد، وعينا كواكب تضيء في داخلي ولا تنطفئ، عشرون عاماً من الانكسارات والهزائم، وعشرون عاماً من الانتصارات الوهمية الزائفة وما زالت الأنثى الأولى في حياتي

تهزني وتزلزلني، فما الذي بقي مني أو بقي فيّ حتى يحدث لي ما يحدث؟ ولماذا لا أنسى؟ لماذا لا أستطيع ذلك مثل غيري؟

هي ذي كواكب تمر في بالي الآن وتلقي عليّ تحية عابرة وتمضي، وكأن الأمس لم يكن، أو لكأنه سحابة انقشعت من دون رعد ومطر، ها هي كما كانت يوم تركت البلدة، صحيح بأن تغيرات كثيرة قد طرأت عليها.. تهدَّل الجسد، وتجاعيد على الوجه، لكن العينين هما، هما، لم تتغيرا ولم تتبدلا، العينان نفسهما اللتان ذبت فيهما، وسحرهما نفسه الذي فتنني وأغراني منذ عشرين سنة.

ما زلت أذكر تفاصيل لقائنا الأول، وما تلاه من لقاءات وما زلت أحتفظ بكل الكلمات التي قلناها، وبكل العهود التي أبرمناها، وأسقطها الزمن، لتذهب أدراج الرياح.

حين تدبرت الأمور المادية بما ادخرت من مبالغ بسيطة وبما استدنته فوقها، وتزوجت من بسمة بعد ذهاب كواكب في حال سبيلها، ظننت في نفسي بأن كواكب أوراق يمكن أن أمزقها، بدلاً من أن أكون طوق نجاتها، ومخلصاً لها، لكنني نجوت بنفسي إلى حين، تاركاً ذاك القمر يغرق في لجة الظل، مسلماً أيقونة عمري للريح، حاولت أن أُسكت تساؤلات كثيرة في داخلي بأنني جبنت.. خفت.. هربت.. يجب ألا أخدع نفسي. توهمت أنني حين ألتفت إلى الخلف لن أندم كثيراً لأن تغييبي لها قد أتاح الفرصة لبسمة كي تكون أكثر قرباً مني، أو لتحتل أكبر مساحة من قلبي وروحي معاً لأنها امرأة حقيقية أحببتها حينها بكل عمق وإحساس، ربما لأنها كانت الدفء الوحيد الذي ألوذ به من كل هذا البرد.

شعرت بالحرج الشديد وأنا أقف ممسكاً بيد تلك المرأة وانتبهت أنني قد عطلت سير من هم خلفي ومنعتهم من متابعة مصافحة من وقفوا لاستقبالها، عندها تمنيت أن تنشق الأرض وتبتلعني وعندها أيقنت أن كواكب ساكنة فيّ، ولعلها قد تضخَّمت في قلبي أكثر، لتمزقه، لتغدو كل العيون النسائية التي رأيتها خلال رحلة عمري هي عيونها، حيث بقيت كامنة في أعماقي، مترصِّدة لكل وجه أنثوي ألتقي به.

❁ ❁ ❁

صرخة...

د. محمد قارصلي

- أحبُّكم...
- أحبُّكم.. أحبُّكم... أحبُّكم...

تردّد صدى كلمته... وكان الجميع مُنشغلاً عنه.. عاود صرخته من جديد.. فلم تتغيّر النتيجة، مسحَ العرق عن جبينه... وصرخ بكلّ ما أُوتي من قوة:

- أكرهكم.. أكرهكم...

لم يسمع صدى لصوته؛ كانت صرخاتهم وشتائمهم تطغى على كلّ شيء...

الحارس

في الصباح الباكر مشى الهوينى على أحجار سوق (ساروجا) السوداء.. وعندما وقع بصره على مخبز (الخبز الشاميّ)، ثمّ على (المقام) المُهمل ونافذته المزيّنة بالشرائط والأقفال... حينها أدرك أن كثيراً من أصدقائه وأحبائه تركوه حارساً على أماكن دمشقهم المحزونة الجريحة...

... راح يتفحّص الأماكن بعيون من رحلوا عن بلادهم... مَنْ أخذتهم أرجلهم ومصائرهم إلى أماكن جديدة؛ فرضت عليهم أن يحبّوها.. فارتضوا ذلك على مضض...

تمتم: أحرسها لكم... أصونها إلى حين عودتكم...

.. وفجأة ضحك، وتبدّل مزاجه المندفع نحو المرح.. قال بصوت مرتفع ساخر.. بصوت استهجنتهُ المارّة:

- أحبائي.. تركتموني حارساً على أماكنكم وذكرياتكم وأحلامكم... لكنكم لم تتركوا لي ما أحميها به... ولا حتى.. (نقّيفة).

لا حدود للحب...

استيقظ وسط الظلام..

كان خوفه شديداً.. إلى درجة أن انعقد لسانه، ولم يقو على الصراخ..

شيء ما كان يُشعره بالاختناق.. فراح يلوّح بيديه مثل الغريق...

لم يكن يدري أيَّ قوة جاءتْ بها في غياهب الليل..

أتتْ مُتوّجة بعبقها الحليبيّ الخاص.. وبياض الياسمين الذي رآه على الرغم من الظلمة...

كانت (الهنيّة).. وفي الخامسة والثلاثين من عمرها... وكان هو في الخامسة.... كانت أمّهُ...

ومنذ تلك الليلة قرر.. مثلها تماماً... أن يمتهن الحبّ....!

زمن...

كان الزمن بالنسبة إليها شيئاً ذا قيمة.. وكانت تشعر بأهمية كلّ دقيقة تعيشها؛ وتردّد بأعلى صوتها: أعيشُ زماني..!

.. وكان للزمن رأي آخر... فجار عليها بقسوة...

نظرتْ إلى جدول الماء وفكّرتْ: الزمن أشبه بقطعة صابون رخيصة توحي بالنظافة؛ زلقة.. ملساء... ورائحتها كما نريد... لكنها (....)

حين اكتشفتْ ذلك تعرّتْ، وانطلقت إلى النهر.. واغتسلت بطينه.. وكان إحساسها حياديّاً...

لكنّ الدنيا كانت كما الدراق....

بريق...

رفع صانع الزجاج اليدويّ رأسه عن العجينة الملتهبة؛ التي كان يعتقد أنّ بإمكانه أن يصنع منها ما يريد...

ففي إحدى المرات صنعَ سكان مدينة كاملة: صُناعٌ وعمّال.. فلاحون وعارضات أزياء... رجال أمن وأطباء... و كلّ ما عرفه من أناس ومهن...

وحين أنهى تشكيل (عشتار) كما تصورها، رفع بصره من دون أن يهتمّ بتبريد العجينة الزجاجية الملتهبة... أدهشهُ ما رآه من بشر حوله، وأذهله ما سمعه منهم.. فشعر بالإحباط والحزن...

كانت (حيواناته الزجاجية) أجمل من العالم (البلاستيكيّ) المحيط به... لكنه لم يكسر ما صنعته يداه؛ لم ينسحب... أعاد الزجاج إلى الفرن الملتهب.. وقرر أن يصنع عملاً زجاجياً لا يقدرون على كسره...!

مصارحة..

سألت الجوريّةُ جارتَها الشوكةَ المُغبرّة:

– ما سبب موتيَ السريع وحياتك المديدة؟ مع أنني فاتنة وأملك رائحة أخّاذة، ولديّ أشواك مثلك تماماً؟

لم تُجب الشوكة، لكنها بحذر أدارت تاجها البنفسجيّ الذي تحوّل جزء منه إلى هديبات مُصفرّة يابسة...

تابعت الجورية:

– ألأنك لا تحتاجين إلى الماء؟ أم لأنك تؤذين بأشواكك الحادة كلّ من يلمسك؟

ضاقت الشوكة ذرعاً بالجورية.. قهقهتْ.. ومن دون أن تلتفت.. قالت بتعالٍ:

– عزيزتي الوردة... – تساقطت بعض أشواك تاجها– لكنها تابعتْ بعصبيّة:

– تسألين كثيراً من الأسئلة كأيّ نبتة ثرثارة.. أمّا أنا.. فإجابتي مُختصرة مفيدة:

– لا شكّ أنك جميلة، ورائحتك كذلك.. لكنك قصيرة العمر.. وسريعة العطب.. أتعلمين لماذا؟!

سألت الجوريةُ بحيرة:

- لماذا؟

- لأنك لا تمتلكين ذكائي... فمن لديه أشواك عليه أن يستخدمها.. يا حلوتي..!!

حلم

حين دخلا البيت الواسع المضيء كانت تضع يدها بيده... بصمتٍ تجاوزا المدخل الرّحب والصالة الكبيرة، ثمّ توجّها إلى الغرفة المطلّة على حديقة البيت...

أمسكتُ بسمّاعة الهاتف الملوَّث ببقع الطلاء والقابع على الأرضية النظيفة.. ابتسمتْ حين تأكّدت أن الهاتف يعمل... اقتربت من الموقد الآجريّ الذي يتوسط الجدار الأكبر للغرفة... وللحظة اشتمّتْ رائحة حطب الصنوبر...

نظر هو إلى التربة الحمراء في الحديقة.. وفكر بصوت عالٍ..

- سأزرع شجرة (أكيدنيا)...

قالت هي:

- وياسمين.. ونارنج.. كما في بيت جدي..

أومأ موافقاً.. ومن دون اتفاق زفرا معاً:

- أخيراً...

كان هذا البيت حلمهما طوال العمر... كان هو في السبعين.. وهي أصغر قليلاً...!

صراع أجيال

فجأة ضرب الطالب الجامعيّ بقبضته على الطاولة وصرخ بعصبيّة:

- دكتور... لا أسمح..

رفع الأستاذ الجامعي نظارته عن عينيه.. وقال للطالب الغاضب:

- ما بك يا بنيّ؟ ما الذي لا تسمح به؟

حاول الطالب أن يتماسك.. زفر ونظر حوله.. وقال بصوت أقلّ ارتفاعاً –لا أسمح أن تُرينا هذه القذا... – واستدرك– هذه الدعا.. – واستدرك ثانية– هذه الصور الإباحية.. وبوجود طالبات أيضاً..

نهض الأستاذ واقترب من الطالب وقال بهدوء مصطنع:

- يا بنيّ.. أريدك أن تتذكر أنه على الرغم من أنيّ الأستاذ هنا.. على الرغم من أنيّ دكتور اختصاصيّ وأنت طالب.. لم أستخدم أبداً كلمة (لا أسمح) في هذه القاعة.. فكيف تسمح لنفسك بأن تنطقها؟

لاحظ الطالب الغيور أن زملاءه يتهامسون.. بل إن أحدهم ضحك بسخرية.. الأمر الذي جعله يصعّد من لهجته العدائية:

- دكتور! لا يوجد في الدين.. ولا في الأخلاق أستاذ وطالب..! قد أستطيع أنا... أنا.. أن أهديك إلى الصراط المستقيم.. وبهذا تكفُّ عن عرض مشاهد عاهراتك علينا...

كان الأستاذ يحدّق في الطالب وغمامة تغشى عينيه.. وكانت عينا الطالب قد احمرّتا منذرتين بالشّر... ومرّ شريط في مخيلة الأستاذ؛ وانتهى بمشهد إعدام امرأة في ملعب في أفغانستان...

- تقول عاهرات..؟

- وساقطات أيضاً.. وإلّا لما تعرّين.. وأنت...

على غير عادته، وبلا تفكير رفع الأستاذ يده.. لكن في اللحظة التي أوشكت يده أن تهوي باتجاه الخدّ الملتحي... في تلك اللحظة أطلقتْ إحدى الطالبات الصغيرات وأجملهنّ صرخة حادّة...

- لا تفعل.. لا تفعل.. يا دكتور.. أنت أكبر من ذلك...

وساد الهرج في الصف، حين حاول الملتحي التّهجم على الفتاة؛ فتصدى له الشبان... وفي هذه الأثناء اقترب الأستاذ من الباب... فتحهُ.. وقبل أن يخرج نظر باتجاه الشاشة التي كان يعرض عليها رائعة (بوتيشيللي) – فينوس–... خرجَ.. وإحساس طاغٍ يتملّكه بأنه أصبح «صغيراً».. تماماً بعد كلّ هزيمة لنا....!

أجرة معاينة

طلبت زوجته طبيبَ – صديقه– حين شعرت أن حالته الصحية مضطربة..

حضر الطبيب وتصرّف باحترافية وإتقان، وسرعان ما شعر المريض بالتحسن بعد حقنة وحبة دواء.. وحين أراد الطبيب المغادرة استوقفه المريض:

- دكتور.. لن أتركك تمضي من دون أن تأخذ أجرك...

ابتسم الطبيب:

- سامحك الله.. وإنْ لم تكن صديقي.. فأنت فنان كبير نعتزّ به.

- ولهذا أرجو أن تأخذ أجرك.

ولم يكن في جيب المريض سوى مئة ليرة وحيدة.

- كم ستعطيني حين أنقذ قلب أحد كنوزنا..؟

- لا أملك أن أعطيك إلا ما تراه حولك... خذ لوحة.. أو مجموعة كتب.. أو مجموعة موسيقية.. أو ذاك التمثال...

هزّ الطبيب رأسه وقال:

- لن آخذ منك شيئاً من كنوزك هذه.. فقد جمعتها طوال حياتك..

- لكني لا أقبل أن تعالجني مجاناً..

- حسناً.. أعطني مئة ليرة.. وبهذا نرضى كلانا...

.. كان الطبيب يتقاضى ألف ليرة على الزيارة المنزلية.. لكنه رغب بإرضاء مريضه الذي يُكنّ له كلّ احترام..

.. دسّ الفنان يده في جيب بنطاله وأخرج المئة ليرة.. أعطاها للطبيب من دون أن ينظر في عينيه..

بمرح طوى الطبيب الورقة النقدية ووضعها في جيب قميصه ومضى..

كانت جدران البيت مغطاة باللوحات الفنية الثمينة والكتب والمنحوتات.. لكن لم يتبقَّ في المنزل ولا ليرة واحدة..!

حبّ..

نظرت إليه بعينين مليئتين بالذعر والتوسّل... وحيدة.. خائفة.. جائعة..

لم يكن يحمل إلا كيساً صغيراً فيه (أوقية) لحم سوف تتوزع على وجبتين أو ثلاث في أسبوع أسرته الصغيرة..

مشى خطوتين والتفت إلى القطة الصغيرة المتوسّلة، اقتطع من اللحم أكثر من ربعه.. رمى ما اختطفته وتنحّت جانباً لتبدأ بالتهامه بتلذّذ.. وهي (تهمهم)...

مضــى في طريقه.. لكنه توقف بعد خطوات قليلة... نظر إلى القطة الصغيرة: كانت تلعق كفها بعنايــة.. وبــدت له أكثر جمالاً من قبل؛ وقد اختفى الذعر من عينيهــا.. حتى إنَّ ذيلها كان يرتفع دلالة على الزهو والكبرياء...

ابتســم بدوره وهمّ بالمضيّ.. لكن صوتاً أنثوياً رقيقــاً استوقفه، رفع رأسه وكأنه يطلب منها أن تكرر ما قالته.. فجاءه صوتها رقيقاً:

- أنت من كان يردّد ويقول: إن الحبّ فعل..

نظر إلى الكيس الصغير، وما تبقى فيه من لحم.. مضى بخطوات متسرعة.. وأصوات ضحكاته تملأ الطرقات المزدحمة...

❁ ❁ ❁

مواقف العراف الأعمى أبي العلاء

محمود عبد الواحد

موقف المحاكمة

كان جالساً على منصـة القضاء، خلف القضبان... وصاح الحاجب الأخرس: محكمة.. فدخلت «أم دفر»[1]. وهي تتهادى في ثيابها السوداء.. كانت أرملة ترتدي – بعد ما فتكت بزوجها الألف– ملابس الحـداد.. ووقفـت أمامه.. فارتعش كمن به مسّ.. وعجز عـن الكلام.. وانتظر الشهـود البُكم الصُّم العميـان بدايـة الجلسة.. لكنـه كان مأخوذاً بها – علـى الرغم من الشتائم التـي كان يلفظها بصوت منخفض– وكان يحـدِّق فيها لعل إصبعاً يبين منها أو خصلة شعر أو حتى نقطة مهما كانت صغيرة من جلدها الأبيض الناعم كجلد الحية.. ولكن السواد كان يخفيها بكليتها.. وفردت يديها كجناحي فراشة أو خفاش معلنة عن ضجرها.. وانتظر الشهود بداية الجلسة.. وأخيراً افتتحها... بدمعة.. وشهقة..

موقف السندبادية

كنت طفلاً وكانت أمي تسرّح لي شعري.. وهي تغمغم في أذني بأغنية عن الطفلة التي اختطفها قـرد واتّخـذ منها عشيقة ثـم انتحر عندما ماتت بيـن يديه من الرعب والألـم.. فطلبتُ منها أن

تسكت.. لأنني لا أستطيع سماع هذه الأغنية دون أن أبكي ويفترسني الخوف..

- ماذا ستفعل عندما ستكبر..؟

- سأجمع تواقيع كل الأرصفة التي في العالم..!!

- وماذا؟

- سأتعلم السحر.. وأُحيي كلاً من الطفلة والقرد بعد أن أحوّله إلى فتى جميل.. ثم أتفرج عليهما وهما يتعانقان.

- وماذا أيضاً؟

- سأمتطي صهوة زورق أو حصان وأصبح في البر والبحر.. أنا ملك السندبادية.

.. هو ذا عرشي:

فنظرت إليّ مقطبة وقالت بجفاء:

- وماذا أيضاً؟

وأدركت ماذا تريد فارتميت على صدرها:

- سأبني لك مقصورة على ظهري.. فيها من كل ما تشتهيه نفسك وأحملك معي حيثما رحلت..

- ولكن إذا مت ماذا ستفعل بي؟!

- لا.. لا. لا.. لا تقولي هذا.. الأمهات لا يمتن إلا عندما يكرهن أولادهن.

ثم عادت إلى تسريح شعري.. وعدت أنا إلى العبث بأطراف ثوبها الوردي..

وتسلسل إلى أذني صدى صوت بعيد فأجلت بصري فيما حولي ولكن لم أر شيئاً وكان الصوت يزداد علواً واقتراباً. وفجأة.. شقت صفحة الماء وخرجت من النهر جنية.. تحولت في ثانية إلى ألف صورة وشكل وأطلقت ألف صوت.. فهتفتُ بأمي مذعوراً:

- انظري ما هناك؟!

- ماذا؟.. إنه عندليب حطّ وطار.

- لا.. لا.. بل هناك..

- إنها زهرة ميتة ألقاها النهر الجاري.

- ولكن لا.. انظري جيداً..

- إنها عشبة صغيرة تئن باكية: مَنْ يعينني على برد الشتاء؟

والتصقتُ بأمي خائفاً ودفنتُ رأسي في حضنها.. لكنني.. أحسست بشعور لا يقاوم يدفعني كي ألتفت وأرى.. فالتفت.. كانت قد استقرت على صورة امرأة فاتنة.. وعندما التقت عيناي بعينيها أطلقت منهما ضوءاً ساطعاً أقوى ألف مرة من أنوار الشمس والقمر والنار مجتمعة.. بهرني.. سحرني.. وخفت عليه من الضياع فأدخلته.. وأغلقت أبواب عيني خلفه.. إلى الأبد.

موقف الدمع والصهيل

دخلتها ليلتي السوداء الأبدية.. كانت جدرانها مطلية بالقار والغبار.. لم يكن لها باب ولا محراب.. لم ألمح في سمائها نجمة ولا قمر.. وما أضاء في شوارعها مصباح.. وأدركت كنه مصيري الأسود.. فصرخت من يأسي أيتها العاهرة المنتنة الفخذين.. فما سمعت مجيباً.. لكنني.. نصبت نفسي ملكاً عليها.. وسرعان ما خلقت رعيتي.. هتفت بها أن تجمعي.. فهبت إليّ من كل فجّ عميق.. أفواج الفرح المقتول.. الأزهار النابتة عبر الإسفلت.. والشتاء الظامئة إلى قطرة ماء أو قبلة.. وأتتني العصافير والبلابل ووعول السهول متعبة بعدما أنهكها القرار الدائم من الرصاص الطائش والخناجر الرابضة على المنعطفات.. فبايعوني.. ووضعوا على رأسي تاجاً من العشب والسوسن البريّ.. ثم ارتموا على قدمي وهم يشهقون:

- آوِنا أيها الأب الرحيم..

وما كان لدي سوى عباءة من الدمع والصهيل حللتها - وأنا أداري وجهي بكفي- ولفلفتهم بها..

موقف الجسد

الجسد.. زنزانة ألمح فيها قبائل من الغجر الذين تعودوا صحبة الريح والثلج ودعوة الرحيل.. هأنذا أسمع صدى صيحاتهم اليائسة وأصوات أيديهم وهي تحمل الحجارة.. وتدق بها الجدران.. وأرى بينهم طفلاً صغيراً هتف يوماً ما.. أنا ملك السندبادية.. وها هو الآن يهرول مذعوراً بين حصانه الميت وزورقه المحترق المحطوم.. والجسد.. قمقم.. ينكفئ المارد فيه حاملاً ثقل أحلامه ولياليه المتعبة.. يتساءل في جنون، مثل قنبلة.. وأطلع منه شاهراً سيفي.. مفتتحاً مدائن الليل والنهار من جديد..

والجسد.. كوكب من الزجاج.. وجهي فيه صحراء من الرمل والبوار.. تدق على أبوابه أصابع المطر غاضبة وهي تصيح «أيها الرمل لا تجف.. رُدَّ بذور النخل التي اختطفتها.. ردها خضرة عالية» وما في وجهي غير العماء وكثبان الحزن النافرة.. وخطر الليالي التي مرت ولن تعود.. وها أنذا الآن أعاين نيزكاً يدور حولي.. يقترب مني.. وأنتظر تلك اللحظة المرعبة التي سينقذف فيها بين أعضائي.. فأودّع بعضي وأرحل.. ولا يُعاد لي سبك.

موقف الأُمَّةِ الأَمَة

ها هي الأمة الأَمَة.. وها هم رجالها.. أبداً يرتعون ماء الحياء وماء الحياة.. أقدامهم في الطين.. وأعينهم في قصعة الخليفة أو قصعة الفردوس الموعود. رأيت واحداً منهم أعرفه قوي الجسم.. متين البنية.. كان يتكئ على عصا عجفاء.. فتعجبت وسألته:

- أيها الرجل.. ما لك تتكئ على هذه وأنت صحيح معافى!؟

فأجابني مندهشاً:

- أحقاً لا تعرف؟ إنها من الشجرة المقدسة.. من اتكأ عليها صارت له يوم القيامة زورقاً يتنزه به في بحيرات العسل والخمر..

ها هي الأمة وها هم رجالها.. يحكمهم الخوف.. تكبلهم عينا سجّان رهيب.. وعلى كتفي كل واحد منهم يقبع شرطيان.. شرطي عن يمينه يسجل كل كلمات الشكر والحمد والثناء التي يتلفظ بها.. وآخر عن شماله يحصي زلات القلب واليد واللسان.. ها هي الأمة.. وها هم رجالها.. لكنني لم أكن أرى غير أقفاصي.. غابات من الأقفاص.

- كل نفس قفص غادرته منذ الطفولة العصافير.. واحتله عنكبوت وفأر وببغاء..

موقف الأمة الرافضة

ورأيت رجلاً.. يمتطي درباً ما له أول ولا آخر ولا ضفاف.. سألته «مَنْ أنت؟» فأجاب بملء فمه:

- ملك ضليل.

- أثاثه أنت؟

- إذا ضعت عن دربي.. فدربي لا تضيع عني..
- أجائع؟
- الجوع يخشاني.. ومثله العطش والتعب والخطوات الراجعة..
- أين تسكن؟
- اسأل أي طائر أو غمامة.. وهي تدلُّك..
- ألست متزوجاً؟
- بلى.. أترى تلك الشجرة هناك.. لقد يبست لأنني طلقتها البارحة ثلاثاً..
- ما هي حكايتك؟
- حكايتي.. إنها تبدأ هكذا.. حاولوا شرائي.. ففضحتهم قصيدة.. خطفوا النجوم من ليلي.. فعادت مخبوءة في قصيدة... حبسوني في قفص.. فحملت القفص وطارت بي «قصيدة» منعوا عني الماء والطعام.. فبعت من صخر وحشتي – حاملة إلي التمر والنبيذ – قصيدة.. قيدوني إلى صخور الوعر.. نصبوا فوقي جبالاً من الإسمنت والحديد فحملت الدنيا كورتها على شكل خاتم وجاءت إلي بها.. قصيدة.. قتلوني ومنعوا الأخوان أن يسيروا في جنازتي.. وعندما احتواني القبر.. اختطفت الصور ونفخت فيه.. قصيدة.. فتطايرت الأحجار من فوقي ونهضت.. وهأنذا الآن أمامك..

فأمسكت به من كتفيه.. وتشبثت به راجياً:

- ألا تبيت الليلة عندي؟
- الخليقة كلها من عهد آدم وهي تنام في صدري.. أفلا تستحي..؟!

موقف التشرد

أفترش رصيف الليل والبكاء.. وحولي بناتي اليتامى.

- قصائدي يتوسَّدن بلاط الشارع الجليدي.. عرايا.. يحدقن في النهر ويغازلنه.. وكنت أسمع الحوار وأنا منخطف بالصلصلة – الشعر.. وهي تدور حولي.

- يا نهر.. يا نهر.. إلى أين ذاهب أنت؟
- لي موعد مع الإمبراطور الأعظم – البحر.

- اقذفْ لنا سمكة تسلينا.. تحكي لنا قصص مجونك مع الزهر والضفاف وسيقان الشجر.

- مستعجل.. مستعجل.. لا وقت لدي.. ولكن إن كنتن جريئات.. فانزلن إلي وسنرى كيف.. والعابرون مرايا.. ألمح فيها عماي ووحدتي..

- تزوّج يا أبا العلاء.. تزوّج.. وستعرف معنى أن تدفن وجهك.. صقيع وجهك في صدر امرأة..

- إنَّ لي زوجة تحتضن بناتي اليتامى – قصائدي.. والعابرون.. بغايا.

«مرّ قطار مسرع.. وهو يصفر جذلان.. ألقى على الشريد وبناته نظرة إشفاق وخبث وقال له ساخراً:

- يا رهين المحبسين.. سندباد البر والبحر.. يقرؤك السلام ثم ولّى هارباً»..

موقف الجحيم

مررت بالجحيم

كان يقف على الباب عملاق.. يضع على رأسه عمامة.. ويرتدي بزة رسمية. وكان مقطباً وعابساً. سألت من هذا «فقيل لي: مالك خازن النار».. لا تسلم.. لأنه لن يرد السلام.. فلم أسلم.. ودخلت مبتدئاً المسير في أروقة الجحيم.. كان أهلي وأخوتي الفقراء معلقين من جلودهم يشوون أحياء.. كانوا مقوَّسين تحت وطأة الصخور المشدودة إلى ظهورهم.. وكان الطريق طويلاً.. طويلاً.. والقمة بعيدة والزبانية تحيط بهم من كل جانب..

.. مرّ بجانبي رجل يجري مولولاً.. والنار تندلع في ثيابه وتخرج من أذنيه وفمه.. فسألت الواقف قربي:

- ما به؟

- إنه مجوسي.. يدّعي أنَّ النار هي أصل الأشياء.. وحنان الأرض.. وتابعت المسير في أروقة الجحيم..

.. رأيت آخر قد أمسك به حارسان.. كانا يخرجان لساناً ويقطعانه بخنجر محمّى.. فينبت له لسان جديد.. ليعاودا قطعه.. اقتربت من أحدهما وسألته:

- بم أذنب هذا الرجل؟

- إنــه مــن الشعراء الذين يتبعهم الغــاوون.. وَصفَ وجه ابنة السلطــان وكلّم الله من دون كلفة كأنه أخ أو صديق..

ثــم أهوى بالخنجر على اللسان المرتجف.. فأشحــت بوجهي كي أخفي دموعي وصراخه يدوّي في أذنيّ..

وتابعت المسير..

رأيت امرأة ينسكب الرصاص الذائب من عينيها ومنخريها.. وهي تئن وتستغيث.. فسألت:

- ما بها؟ وبم استحقت هذا العذاب؟

- إنهــا فاسقــة.. كانت تترنم طوال الوقت بأغان فاجرة عــن العشق.. وكانت تحلم - في غياب الرجل الذي زوّجها أهلها له على سنّة الله ورسوله — أن تريح رأسها على صدر عابر غريب..

ورأيــت شاباً وفتاة.. سوّدت النار جسديهمــا وأحالتهما إلى فحم وصديد.. وكانا مشدودين إلى بعضهما بأسياخ من حديد وكلّابات مسننة..

- ما الذي فعلاه.. وبم استحقا هذا العذاب؟

- لقد تحابّا واعتنقا دون استشارة الشريعة أو قاضي القضاة.

وتابعــتُ المسيــر.. وكنــتُ حيثمــا ألقيــت بصــري.. أرى أفراناً تغــور باللحم الآدمــي والعويل والدماء..

قيل لي إنني سأرى في الجحيم كل الذين أهانوني وعذبوني.. كل الرؤوس التي حلمت بدحرجتها.. لكنني.. لم أر غير وجهي.. وغير أهلي وإخوتي الفقراء.

موقف الغثيان

مررت بالفراديس.. لم أجد فراديسَ ولا جنات.. لم يكن هنـاك سوى تلال من البطون المتخمة والأشــداق المنتفخــة بالطعــام والقهقهــات والــكلام.. سوى كلاب تهــزّ بأذيالها علامــة الرضا والامتــلاء.. ســوى شعــراء يمتطون قوافيهــم الجرباء.. يستحثّونهــا إلى بلاط الأميــر.. وشعراء يرقصون تفاعيل قصائدهم على إيقاع الأرداف الممتلئة..

- إلى السيد فلان المحترم.. وحرمه المصون.. ندعوكم إلى حفلة العشاء التي ستقام بمناسبة ختان كلبنا العزيز.

- إلـى السيـد فلان المحتـرم.. وحرمه المصون.. نقبـل دعوتكم بكل امتنـانٍ وفخرٍ وندعوكم بالمقابل إلى سهرتنا الراقصة المقامة بمناسبة عيد ميلاد قطتنا العزيزة.

- متى يتحول هذا الوطن القذر إلى «كافتيريا» نظيفة.

- ولكنك يا عزيزي ماذا تعرف من الوطن غير «الكافتيريا».

.. ولـم أر سـوى غابات من اللحـى الكثّة السوداء.. يرفـع القمل فيها صولجانـاً وتاجاً ووجوهاً تغشاها الطمأنينة والفراغ.. وعيون لا تنظر إلا إلى أطراف الأحذية..

مررت بها.. فتقيأت.. أصابني الغثيان.

موقف القادم الجريء

قولـوا (لأم دفـر) عني.. سيأتيكِ في آخر الزمان فتى.. يجرك مـن شعرك.. يقودك إلى النار المقدسـة بزنديـه القويين.. ويقـرأ على وجهك المسخ تعاويـذه.. ثم يلقي بك إلـى ألسنة اللهب الجائعـة إلـى لحمكِ المطاطي الكريه.. وتنفخ الأبواق شماتة بنهايتـك أيتها الغانية العجوز.. كم قلـت لـك.. كفي دموع التائه المسكيـن بمنديل سحرك الجميل.. احضنـي رأسه المكتظ بالدوي ودبيـب الثوانـي الرهيـب.. كـم قلت لك.. لنبـدل الأدواء مـرة.. صيري أنـت العاشـق ولأكن أنا المعشـوق.. مرة.. مـرة واحدة فحسب.. ولكنك كنـت دائماً تسخرين منـي.. وتلقين على وجهي وعينـيّ بردة الظلام والسواد.. فانتظري إذن مجيء ذاك الغاضب الجريء.. وجهزي منذ الآن.. الكفن – ثياب العرس.. وقماط الولادة.

موقف الحرف

مـرّ من جانبـي كالغزال حرف.. كان يمتطي جـواداً من البرق.. ويعصـب رأسه – مثل الهنود الحمر – بمنديل..

في صوته رنين صنوج الأغاني الطلسمية.. ودوي رعد لم يكتشف بعد.. وله أنفاس نار المجوس.. وعشب غابة من بعض أشجارها الأرض والتاريخ..

مـددت له يـدي كالعاشق والشحاذ.. لكنه فـرّ راقصاً.. مثل حسناء لعـوب.. طاردته.. فاجتاز فـي لمحـة ما قطعته في ألف عام.. عريت له كل أوراقي البيض علّها تثير شهوته.. لكنه.. أضرم شهوتها فاحترقت..

وتعبـت.. وحط على جفني ملاك النـوم.. وأطبقهما.. فسقطت في بئر الغيبوبة والنعاس. مد الحرف رأسه من فوهة البئر المضاءة.. وصاح بي في دلال وكبرياء:

- اللغات كلها لم تعرفني.. والكتب الأربعة لم تعرفني.. فهل تعرفني أنت!؟

موقف الكبر

كبـر اسمـي.. وكبرت أتعابـه وحواشيه – صار يشـار إليه بالبنـان، هذا هو المـارق، الزنديق، وبلـغ قمة المجد، إذ صار يلعنه كل قـزم وصعلوك- أما أنا.. فقد بقيت ذاك الطفل الذي سحرته واختطفـت ألـوان أشيائه. كان لون الدم والكرز والشفاه التي اشتهيتها ولم أذقها.. وكان لون راية المغول آخر الألوان، وفتنته.. جنية على ضفة نهر.

موقف الانتظار

مـن أين يجيء هذا اللحـن الجنائزي.. من أين يجيء..؟ من أي كـوة ليلية.. من خلف أي باب مغلق.. من تحت أي عينين مسدودتين.. محشوتين بالعتمة والفراغ..؟ ومن أي قلب كئيب..؟

.. هأنـذا أسمعـه يعود: لو كان دمي حليباً لفجّرت شراييني على شفاه اليتامى والجياع.. لو كان جسدي ذبيحة.. لما سمحت إلا للصقر والفهد أن يأكل منها..

هأنـذا أحسـه يحلـم: لو أن جسـدي مدينة لفتحـت الأبواب علـى مصاريعها.. أمـام البرص، والعميان والمشردين..

وهـا هـو ذا يهتـف يائساً: هـل يأتي زمـن أنتصب فيـه كالنخلة والرمـح.. نافضاً عـن عيني حُمّى الكوابيس.. فاتحاً جفنيّ على أجمل شمس.. شعاعها أحن من أم ومن ولد. أرقُّ من حبيبة..؟ هل يأتي زمن تعود إلي فيه أيام عمري المهاجرة مثل أسراب السنونو.. حاملة في مناقيرها بشارة الربيع..؟

«مـر قطار مسرع وهو يصفر جذلان.. ألقى على السجين نظرة إشفاق وخبث وقال له ضاحكاً: يا رهين المحبسين.. سندباد البر والبحر يقرؤك السلام.

ثـم ولّـى هـارباً.. فانتفض المعـرّي في مكانه خائفـاً منقبض القلب.. وكانت أذنـاه تدور ان مع صفير القطار مثل البوصلة.. وعندما ساد الصمت.. اندلعت من أعماق السجون الألف.. أصوات قضبان وهي تزلزل بالصراخ الوحشي.. بالأصابع العجفاء.. بالعروق الناحلة..».

❁ ❁ ❁

الهوامش

١- أم دفر: هي الدنيا كما يسميها المعري.

❁ ❁ ❁

أجنحة

ممدوح حمادة

على الرغم من إدراكهم التام أنهم في معظم الأحيان يكونون عاجزين عن تقديم أيّ مساعدة، فإن الأصدقاء دائماً يسألون أصدقاءَهم عن السبب الذي يعكّر مزاجهم.

وهذا ما فعله شكيب عندما رأى صديقه حسيب معكَّر المزاج صباح هذا اليوم.

- ما الذي يعكر مزاجك؟

- رأيت مناماً مزعجاً.

قالهـا حسيـب، وصمت ربما لعدم رغبتـه في تذكر أحداث ذلك المنام التـي يبدو أنها مرعبة، ولكن وكما هي عادة الأصدقاء لم يتوقف شكيب عن السؤال.

- خير إن شاء الله؟

- حلمت أنني أقف على حافة النافذة في منزل أهلي القديم أراقب ما يجري في الشارع...

وهنا تدخَّل شكيب ظناً منه أنه أمسك بطرف الخيط الذي يستطيع أن يجرَّ به صديقه من خانة الاكتئاب إلى خانة الانشراح فقاطعه:

- عـادي.. كلنا تـراوده الأماكن التي عاش فيها سابقاً في الأحـلام.. إنه الحنين يا صديقي.. الحنين.

العمل الفني: الفنان ناصر زين الدين.



امتعض حسيب للثقة المفرطة بالنفس التي يشعر بها شكيب بشكل غير مبرر وردَّ ممتعضاً:

- ومن قال لك إنَّ الحنين هو الذي يؤرقني.. استمع حتى النهاية ثم احكم.

- (ماشي).

قال شكيب ممتثلاً لطلب صديقه أديب بينما تابع الأخير كلامه.

- فجأة وأنا أقف على حافة تلك النافذة نبت لي جناحان في ظهري...

ومرة أخرى ظن شكيب أنه قبض على رأس ذلك الخيط وأنه في هذه المرة، حتماً سينتزع أديب من براثن الاكتئاب:

- عادي.. من منا لا يحلم بالحرية.. إنها الحرية يا صديقي... الحرية..

امتعض أديب مرة أخرى وطلب من شكيب أن يستمع:

- ومن قال لك إنَّ الحلم بالحرية يسبب الاكتئاب.. استمع حتى النهاية ثم احكم.. عليك أن تعرف أولاً أي جناحين نبتا لي.

- أي جناحين؟

سأل شكيب وقد بدا عليه الفضول هذه المرة فأجابه أديب وقد غرق في حالة الاكتئاب.

- جناحا صرصور...ثم نبت لي قرنا استشعار.

- أعوذ بالله.

قال شكيب هذه المرة ولم يبذل أيَّ محاولة لمساعدة صديقه بينما تابع أديب:

- وبوساطة هذين القرنين شعرت بحركة مريبة خلف ظهري فالتفتُّ إلى الوراء وإذا بزوجتي تحمل (شحَّاطتها) وتهوي بها عليّ.. وتسحقني.

ارتسمت ملامح الرعب على وجه شكيب الذي يبدو أنه تخيل الموقف بكل بشاعته فقال بشكل آلي:

- يا ساتر.

بينما صمت أديب للحظة ثم تابع.

- هل تعرف بماذا يشعر الصرصور عندما تهوي عليه شحاطة؟

- بماذا؟

- يشعر أن السماء قد انطبقت على الأرض.. ثم بعد ذلك لا يشعر بشيء.

وهنا أدرك شكيب ما الذي يزعج صديقه أديب في ذلك الحلم.. لقد شاهد نفسه صرصوراً... فحاول في هذه المرة أن يهون عليه ويخفف من حالة الاكتئاب مدركاً أن إخراجه من هناك كلياً أصبح أمراً صعباً.

- عادي.. لا يزعجنَّك ذلك.. فما الفرق بيننا وبين الصراصير يا أخي.. والله إن ما ينزل على رؤوسنا كل يوم يفوق همجية تلك الشحاطة التي سحقتك بها زوجتك في المنام.. نحن في الواقع لا نختلف عن الصراصير في شيء.. أما زلت لا تدرك ذلك؟

- أدرك؟

قال أديب مقاطعاً وأردف بنبرة لا تخلو من التهكم لسذاجة صديقه:

- دائماً أشعر بصرصوريتي على أرض الواقع، وأنا معتاد عليها منذ زمن بعيد، وهذا لم يعد يزعجني أبداً.

وهنا ضاق صبر شكيب ولم يعد يحتمل الترهات التي يتحدث بها أديب وصاح به بين الجد والمزاح:

- «احترنا يا أقرع من وين بدنا نمشطك.. شو اللي زاعجك لكان يا أخي؟».

- الذي يزعجني أن الصرصور لحق بي من الواقع إلى الحلم.

ثم شرد قليلاً وارتسمت على وجهه علامات خالية من أي تعبير، مثل تلك التي على وجوه الصراصير وتابع:

- في السابق كنت أحلم أنني إنسان.

❁ ❁ ❁

الغربــاءُ

موفق مسعود

يعـودُ ذلكَ إلــى بدايةِ شهـرِ أيلول عـام (١٩٨٩م)، وكانتْ ليلــةٌ غريبةٌ جعلتني أعيـدُ الاعتبارَ لبعضِ التيارات المعاصرةِ في التفكيرِ بعدما ازدريتُها طويلاً خصوصاً في مسألةِ الزمنِ وعلاقتهِ بالوجـودِ، وبدأتُ ألحـظُ أنَّ النصوصَ التي أنتجَها صموئيل بيكيـت وسارتر وغيرهما لم تأتِ من فراغٍ بل من تأمُّلٍ صادمٍ وعميقٍ في ذيولِ حربٍ أكلتْ أعمارَ مئةِ مليونِ إنسانٍ...

هكذا كانَ أنَّ ليلةً واحدةً جعلتْني أغرقُ في نفقٍ لا قرارَ لهُ لكنَّهُ مزدحمٌ بالغرباء...

تلـكَ الليلــةُ عُدْتُ من الجامعــةِ وجلستُ إلى طاولتــي وأوراقي ومراجعي، وباشــرتُ بهمَّةٍ عاليةٍ قــراءةَ المراجعِ التي سأعتمدُها فــي بحثيَ القادمِ عن التكاملِ في الجنسِ وغيابِ الوعي بالتكاملِ في علاقةِ المرأةِ بالرجلِ..

كان الجــوُّ حارّاً جدّاً ممــا اضطرَّني إلى فتحِ نوافــذِ غرفتيَ الصغيرةِ المطلّــةِ على باحةِ البيتِ الدمشقــيِّ القديم، وما زادَ مــن طمأنينتي لتركِ النوافذِ مفتوحةً في ساعــةٍ متأخِّرةٍ من الليلِ هو أنَّ الغرفتيــنِ الإضافيَّتينِ من البيتِ تحتويانِ على مستأجريــن ظرفاءَ؛ في الغرفةِ التي على يمينِ المدخــلِ كانــت تسكنُ روز وحيــدةً بعد أن تجــاوزتْ السبعين عاماً، روز الحلبيَّــةُ التي هربتْ إبانَ

العمل الفني: الفنان ناصر نزين الدين.



احتفالاتِ الاستقلالِ في الأربعينيَّاتِ إلى دمشقَ برفقـةِ فتىً من الجنوبِ؛ لكنَّـهُ تركها في دمشقَ وعـادَ إلـى أهلِه، ولم تشعرْ أنَّهـا يجبُ أن تبحثَ عنـهُ بـل تنفَّسـتْ الصعداءَ فـي دمشـقَ.. حُرَّةً طليقـةً، ولا سيّما بعدَ أن عُيِّنت ممرضةً في بنك الـدم، فعاشت في هذهِ الغرفـةِ وما زالتْ تسكنُ المدينةَ التي لم تعشقْ غيرَها يوماً.

أمَّـا الغرفةُ التي على يسـارِ المدخلِ فيسكنُها أبو عزيـز وحيداً وهـو سبعينيٌّ أيضـاً، كانَ من أهـمِّ تجارِ دمشـقَ فـي الخمسينيات فـي سوقِ الحريقةِ المعروفِ، لكـنَّ أولادَه اتهموهُ بالجنونِ ودمَّروا ثروتَهُ في بدايةِ السبعينياتِ بعدَ أن التهمَ الإصلاحُ الزراعيُّ قريةً في سهلِ الغابِ..

كانَ أبو عزيز قد اشترى معظمَ أراضي سكَّانها ممَّـا جعلَهُ يزهدُ بالحيـاةِ متخففاً من كلِّ شيءٍ، مستأجـراً غرفةً في حـيِّ القيمريـةِ الدمشقيِّ، مشرقاً بوحدتِه وبجعبةٍ من الأمراضِ الناشطةِ على الدوام.

اقتـربَ منتصفُ الليـلِ، وكان الصمتُ لا يَريمُ المكانِ، وثمَّةَ هواءٌ دَبِـقٌ إثرَ رطوبةِ أوَّلِ الخريفِ وأضـواءِ جيرانـي العجائزِ مطفـأةٌ، وبينما كانتْ عينـايَ مثبَّتتانِ علـى وُرَيقاتِ المجلَّـدِ الضخمِ المفتـوحِ أمامي، تحفزَّتْ حواسيَ لهسيسٍ غريبٍ، أنفاسٌ هادئةٌ ومتقطِّعة كانت تتسلَّلُ إلى غرفتيَ عبـرَ النافذتينِ المفتوحتينِ، قـدَّرتُ لوهلةٍ أنَّ ما أسمعُهُ ليستْ سوى أنفاسُ جيرانيَ العجائزِ وهم يَغطُّـونَ فـي النومِ، لكـنَّ فضولي دفعني كي أتقدَّمَ مـن النافذةِ القريبةِ من بـابِ غرفةِ روز، همدَ جسـدي وكساني عَرقٌ بـاردٌ، كانَ الصوتُ القادمُ من غرفةِ ماما روز صـوتُ لهاثٍ بشريٍّ لكائنينِ يبحثانِ باضطرابٍ عن المتعةِ!

واستطعـتُ أن أميِّزَ بعضَ الهمهماتِ والعباراتِ البذيئـةِ، وهيَ تخرجُ من جسدينِ غادرا الكلامَ المأسورَ وانفتحَا على براحِ اللغةِ، شهقتُ كمن اكتشفَ خديعةً!

ابتعـدتُ عن النـافذة الأولـى متراجعاً ومفكّراً بدهشة، وما إنْ اقتربـتُ من النـافذة المطلَّة على غرفةِ (أبو عزيز) حتَّى سمعتُ الهمهماتِ نفسها تخرجُ بوضوحٍ من داخلِ غرفته أيضاً!

ازدادتْ دهشتي فأطفأتُ ضوءَ المصباح، وجلستُ في منتصفِ الغرفةِ حيثُ أستطيعُ رصدَ بابَي غرفتيهمـا حتَّى الفجرِ، وكم سيكـونُ اكتشافُ العاشقِ السريِّ لروز والعشيقـةِ السريَّةِ لأبي عزيز أمراً مذهلاً.

كان الزمــنُ يمــرُّ بغرابة، ومعَ صفاءِ آخرِ الليلِ من أصواتِ الحركـةِ في الخارجِ يصبحُ الإصغاءُ فريداً لهذهِ الهمهماتِ التي تعلو وتهبطُ بتكاملٍ ساحرٍ وغريب..

اقتـربَ الفجرُ والبابـانِ موصدانِ، سينكشفُ السـرُّ قريباً، بدأتْ حواسـي تضطربُ وتسارعتْ أنفاسـي وكسانـي العرقُ من جديـد، كانَ زمنُ انتظاري فظيعاً كأنَّهُ عمرٌ كامـلٌ يعبِّرُ بتحوُّلاتِه من الطفولـةِ نحوَ الشيخوخةِ في مساحةٍ من الزمنِ لا تتجاوزُ الساعتينِ اللتينِ تسبقانِ بزوغَ الشمس، وقبيـلَ الشروقِ بقليلٍ سمعـتُ صريرَ بابِ غرفةِ ماما روز، وخرجتْ كما فـي كلِّ صباحٍ وهي تحملُ المكنسـةَ وسطلَ الماءِ، وبدأتْ بشطفِ أرضِ الدارِ بحيويَّة، بينما بابُ غرفتِها مفتوحٌ على الفراغ، وبعـدَ لحظـاتٍ فتحَ أبـو عزيزٍ بابَ غرفتـهِ محيِّياً وخارجاً إلـى الفرنِ القريبِ وتـاركاً بابَ غرفتهِ الموحشةِ مفتوحاً..

لم يكنْ هنـاكَ أحد!

تقـدَّمَ النهارُ حتَّى آخرهِ وكنتُ لا أزالُ جامداً على الكرسيِّ محاطاً بالغرباءِ الذينَ مازلتُ أعيشُ وحيداً بينهم حتَّى اللحظة.

❁ ❁ ❁

قبل نقطة للوصول

ميادة إبراهيم قداح

ذات يـوم، حيـنَ لم يكن ثمّةَ بدٌّ، حملنَ أنفسهن، ونهضـنَ، متّكئات على بصيصِ ضوءٍ برفقةِ حلم، ودونمًا تريُّث، فالوقت قد حان. كلٌّ منهنَّ تنـامُ، واليأس ديدنها، يعانقها، ويكسوها جليداً، دونمـا سـلامٍ، يشبُّ فيها نهاراً، كـي لا تخطِفها الرّيح مـن على أرصفةِ الخريـفِ، إلى ملاعبِ الشّمسِ.

شروق؛ فتاةٌ يداعبُ النسيمُ خصلاتِ شَعرِها الفاحم، لكنّ غبارَ الطباشيرِ لا ينامُ تحتَ أظفارِهَا الملونـة، لا يتطايرُ كالثلجِ على ثيابِهَا، الصباح... لا تَعرفُ له شكلاً مُذْ أنهت دراستها الجامعيّة، وعلّقت شَهَادَتهَا زينةً على الجدارِ.

شروق هذه.. تُطيلُ الوقوفَ أمامَ المرآةِ، تسألُ نفسها: وهل أنا جميلةٌ؟ قد أكون أجملَ لو ارتديتُ هـذا الثوب؟ يجبُ أن أكونَ جميلةً، ولو بالمساحيقِ، فالجمالُ وسامٌ نُحقّقُ من خلالِه أحلامنا. قد أثقلتْ كاهلي مثاليات أمي، فأنا قاربتُ الثلاثينَ، لا عملَ، لا زوجَ، ولا أولادَ، ولا ولا...

يجبُ أن أبدوَ جميلةً، يجب، بل يجب جدّاً...

أمَّا غادة... تلك الفتاة الـمُخَبّئة في عينيها غابةَ نخيلٍ ساعةَ السحرِ إذ تغازلها الشّمسُ، فترقصُ كفراشـةٍ دافئةٍ، ولها جسد نخلةٍ تُناجي الإلهَ في خشـوعٍ، مُعرّشةٍ كشجرةٍ، تأبى الانحنـاءَ، شعرها

العمل الفني: الفنان علي الكفري.



خيـوطُ شمسٍ على أطـراف مَغيب، لكنــه المستقبل، المُخَبَّأ بحضنِ الساعاتِ المعلّقـةِ على الجدرانِ، الّتي لم تعـد تطيقُ (تكتكتهـا)، فقد ملّتِ انتظارَ الوقت المُتثائب.

وحيـنَ نسمـعُ صفـقَ أجنحةِ لليلِ يلطـمُ وجنتيهِ حنقـاً وغيرةً، تكون ليلـى قد أطلت علـى شرفتهـا، فغـارَ مـن طلّتِهـا. سوداءَ، تقفُ علـى بوابةِ الليلِ، تنتظرُ قيسَ أحلامِها. كم مـرّةً مدّتْ يدها، أغمضـتْ عينيهـا، دعت نجمـاً للسهرِ علـى شرفتها، لم تأبـه لاستيقـاظ أمِّها، أو لهمس جارتِهـا، لكـن النجـمَ، إذ يقـرّرُ النزولَ، يرتطمُ بالأرضِ، فيهوي نيزكاً.

وها هي عبير، المقطوفةُ من الزهورِ المغروسةِ في الأصائصِ، والحدائقِ، المنتشرةِ في الصّباحِ كالضـوءِ، تقفُ على الرّصيـفِ كلّ صباحٍ، مرغمةً على الذهابِ إلى تلك العيـادةِ المُقرفةِ، تنتظرُ آخرَ الشهرِ، لتقبضَ ثمنَ حبّاتِ العرقِ النـازفِ، ها هي تنظرُ إلى العابرينَ في متاهةِ الكونِ:

- إلى أين... هم... نحن... كلنا؟ أمَا من نقطةٍ للوصول؟

نعم... الوصولُ، إذْ ربّما اليومَ أصلُ، ربّما بدأتُ، وربّما أقفُ على حافةِ السّقوطِ، كهذا الصّمتِ المُخَيِّـم، الأشبه برائحةِ العفنِ الّتي تزكمُ الأنـوفَ، خيّمَ الحلمُ على أهدابهنَّ، فسلّمن خطواتهن نَهبـاً لطريـقٍ، لا أشواكَ فيه، ولا حجارة، مُيَسرةٌ فيه كلّ العثـراتِ إلا عثرةِ غصّةٍ تقفُ في الحلقِ، كحدِّ سكينٍ.

لم يَبتُرْ هذا الصمت إلا لافتةٌ كُتِبَ عليها بخطٍّ عريضٍ:

- «أنا الساعةُ.. بعدَ الساعةِ.. أحلّ شخصيتك بالساعةِ».

تصلّبتِ الأقدامُ، حدّقتِ العيونُ في الفراغِ، راحتِ التساؤلات تتقاطعُ من خلال النظرات الحيرى، الولهى، وتتساءل:

- هل جئنا لمعرفةِ شخصياتنا، أم لمعرفةِ ما يخبّئهُ لنا المستقبلُ؟

تقاطع النظرات كان مشابهاً لتقاطعِ سيفينِ، يتعانقانِ على البابِ، ليحرسا الحقّ، وربّما الباطلَ! أوليسَ البابُ مغارةً، كلما اقتربنا منه، ضاقت فوهته، واتّسع من الداخلِ؟ ماذا علّنا نجدُ هنا؟ تساءلت غادة. بتوترٍ طقطقتْ شروق أصابعها، وبحيرةٍ عضّت شفتها عبير، ومبتهلة حدّقتْ ليلى في السماء. وإذ هي هنيهات حتّى دعاهم صوت إلى الدخول:

- تفضلنَ، أنا من تبحثنَ عنها.

تجمَّدَ الدمُ في أوصالِ الحلم، توقّفَ عن المَسيرِ، لكنّهُ الفضولُ، دفعهنَّ إلى الدخولِ، وعلى بساطٍ سرمديٍّ وضعنَ خطواتهن الأولى، ثم جلسنَ، ورَانَ الصمتُ، لا سؤالَ، ولا دخانَ يتطايرُ في الفضاءِ، فالاندهاش باتَ سيّدَ المشهدِ المُريب. طردٌ من الأقلام الملونةِ وُضِعَ أمام كلّ واحدةٍ منهنَّ، ما معنى هذا؟ أمن أجلِ هذا جئنا؟ هل سندوِّن سيَرنا الذاتيّة مثلاً؟

صوتها قطع عليهنَّ تلك الحيرة حينما قالت:

- فلتأتني كلُّ منكنَّ بقلم.

أشجعهنّ كانت ليلى، اقتربتْ وفي يدها قلمٌ أسود، خاطبتها قائلةً:

- لون قلبكِ كلونِ قلمكِ، وطريقكِ مسدودٌ. وأردفت أمام دهشتها:

- ثمّةَ في نهايةِ النفقِ نورٌ قد تبصرينهُ يوماً ما.

اقتربت غادة مختارةً قلماً أحمرَ، تنهّدتْ بعمق، وقالت لها:

- مسفوكةٌ أنتِ كالدم، ولا يعرفُ مصيرك إلا الأرض.

ولمعَ قلمٌ أخضر بيدِ عبير، كما لمعَ الخوفُ في عينيها، فقالت لها:

- للخيرِ والجمالِ وُهبتِ، فليباركك الله.

حارتْ شروق في أمرِها، وهي تحملُ قلمَ رصاصٍ: ما عساها تقول لي؟! اقتربتْ وَجِلةً، فاترةً، ثقيلةَ الخطواتِ، شاردةَ الذهنِ. وباغتها الصوتُ:

- تسكنــك الحيرةُ، فكلّما فكّرتِ بالاقتــرابِ خطوةً إلى الأمام، تتردّديــنَ، وتقفلينَ راجعةً، وكلّما كتبــتِ كلمــةً، مسحتِ سطراً، قلمكِ يأبى السكونَ والاستقرارَ، متــرددةٌ أنتِ في الحياةِ كقلمكِ هذا، كلّ شــيءٍ قابلٌ عندكِ للتغييرِ، وشخصيتكِ لا تستقرُّ على قرارٍ، كلّ شيءٍ على اللوحِ مكتوب، وعندكِ يصيرُ قابلاً للإزالةِ بمسحةِ ممحاة، فالثباتُ صفةُ الصخرِ، والتنقّلُ صفةُ الرملِ المنثورِ في الفيافي، انتبهي، فالحياةُ قرارٌ يُكتب في لحظة.

سقــطَ القلــمُ من يدها، وراحتْ ترتجفُ، ثــمّ هوتْ على الأرضِ، وحيــنَ استعادت وعيها، غمغمت متسائلةً:

- أيمكنني اختيار غيره؟

❁ ❁ ❁

سرديات نصف غنائية

ناظم مهنا

الهدهد

أكثر ما يجذبني من أنواع الطير الهدهد، أرى فيه طائراً كهنوتياً جديراً بالبطولة في الحكايات المقدسة والتهكمية، وهو طائر فردي تأملي لا ينتمي إلى قطيع. في سنوات الصبا رأيته أسيراً بين يدي صياد هاوٍ، كان الصياد في غاية الاعتداد والشعور بالذات لأنه ظفر به حياً، وقد التمّ حوله الصبيان ينظرون إلى هذا الطائر الذي يأتي مع بداية الشتاء. كان الطائر الأسير كما أتذكره ينظر إلى الرهط البشري الذي أحاط به في ساحة القرية، لم يُظهر البشريون أي كرم معه، والصياد الأرعن عامله وكأنه غنيمة حرب. كان الهدهد ينقل نظره من واحد إلى آخر، وكأنه يبحث عن بقايا نبل في الوجوه، أو يتفرّس ليعرف خبايا النفس، ولم يخفِ خيبته من العالم، لأنه كان يدير رأسه يميناً ويساراً ثم للأعلى والأسفل معبراً عن سخطه الصامت، وكانت هذه الحركات تقابل بالهزء من الجمهور المحتشد، ولم يظهر بين الناس أي حكيم يبدي معرفة بتاريخ هذا الطائر! وهذا ما جعل الهدهد يزداد خيبة وغضباً حتى إنّه أوشك أن يصرخ بهم: ألا تعرفون

مــن هو الهدهد؟ لكنه أدرك أن محنته أوقعته في أيدي جماعة من الصبية والجهلة، وأنفت نفسه المحــاورة مع هؤلاء الحمقى. لــم يكن يُعنى بالجغرافيا، كان العالم الحالــي بالنسبة إليه غريباً، بينما تنحصر معرفته بالعالم القديم وعلى أكمل وجه، طالما أنه في العهد القديم حضر صفقات داخل القصور وحاك مؤامرات وشهد حروباً، وكان بمنزلة وزير في بلاط ملك شهير. على الرغم من أن الهدهد لم يطلع على كل ما قيل عنه وما كتب في العصور القديمة والتي تلتها، إلا أنه على دراية بأنه ليس مجرد طائر عابر في الزمن. ويكفيه عزة أن سيدنا محمداً عليه الصلاة والسلام أوصــى بــه، وقال: «لا تقتلوا الهدهد فإنــه كان دليل سليمان عليه السلام علــى قرب الماء وبعده، وأحبَّ أن يعبد الله ولا يشرك به شيئاً في أقطار الأرض».

ومــن أطرف ما يُـروى عن الهدهد، جاء في كتــاب «عجائب المخلوقــات وغرائب الموجودات» للقزويني، أن الهدهد قال للملك سليمان: أريد أن تكون في ضيافتي، قال سليمان: أنا وحدي؟ قال الهدهد: لا بل العسكر كله في جزيرة كذا وكذا في يوم كذا. فحضر سليمان بجنوده هناك، فصاد الهدهــد جــرادة خنقها ورماها في البحر، وقال: كلوا يا نبــي الله، من فاته اللحم نال من المرق. فضحك سليمان وجنوده من ذلك حولاً كاملاً.

عرس فقراء

في ليل تضيئه المشاعل، عرس فقراء، لم يحضره سوى بضع رجال ونساء شاحبات هزيلات لا تنفع معهن أيّ زينة، بل تزيدهن قبحاً في بعض الأحيان.

مــا من طبــل يدق، ما مــن زغــرودة أو أهزوجة، وكأنــه اغتصاب تســاق إليه العروس وأهلها مكرهين، والأمر في حقيقته ليس كذلك. كان العريس مذهولاً شارداً كأنه يتوقع حدث ما أو ينتظر بعض صحبه الذين تقاعسوا عن الحضــور، والعروس أيضاً مثل أسيرة تمشي بخطوات متكسرة، وأمها من خوفها تبكي. كان الثلج يحاصر القرية الجبلية، وقد ترك البرد الشديد أثره على وجوه المعرسيــن. في غمرة هذا اليباس القارص حدث شيء مــا غيَّر مجرى الأحداث، إذ وصل شاعر شعبــي جــوال أكثر ما كان يرى في إحياء أعراس الميسورين، كان الشاعر يتأبط ربابته التي يعلن للنــاس في أي قرية يقصدها عــن قدومه قبل أن يصل. تغير مزاج الناس في اللحظة التي سمعوا فيهــا إشارة القدوم. غنّى الشاعر للجبــال وللأنهار وللجميلات المتخيلات وللأعراس كلها، دبت

الحياة في الموجودين، أضرمت نيران لتضيء المكان وتشع على مسافات بعيدة، وتوافد شبان، رقصوا وسكروا دون خمر، وسرت عدوى الفرح إلى الزرائب والأشجار التي تحف بالقرية، وجاء إلى العرس لصوص وقطاع طرق من أزمنة منصرمة لا لكي يسرقوا، بل لكي يسمعوا الشاعر ويحيوا عرس الفقراء.

الرجل المهدم

أيها الرجل المهدم، أنت تجلس الآن على قارعة الطريق، الناس من مشارب شتى يعبرون أمامك، لا أحد يلقي عليك السلام. تقول لنفسك: ماذا فعلت لهؤلاء؟

طوال حياتك لم تستطع أن تضر ولا أن تفيد أحداً، ويحزنك أن تذهب إلى الموت الوشيك ولم تترك أثراً في هذا العماء البشري! غادرك غضبك من سنين. قل أيها الرجل: هل لهذه الوجوه التي تَعبُر اليوم من أمامك أي أثر في نفسك؟ أنت لم تكن فيلسوفاً ولا قارئ وجوه، كنت قارئ صمت، وكنت تعتقد، كما في الحكايات، أن الصمت يجدل شعر الجميلات العذراوات المتغندرات اللواتي لم تحظ بأي واحدة منهن. الزمن هذا الوحش المتربص جندل هامات رفاقك الساخطين القدامى والجدد. لم يبق إلاك في هذا الطريق الذي يعجّ بالعابرين وغبار خطواتهم تلفح وجهك الكئيب.

في شبابك كنت تعتقد أنك محارب، تحارب بالكلمات والقهقهات وأنت ترشف روح الدنّ. ثم اكتشفت أن قهقهاتك الساخرة ترتد اليوم عليك مثل رجع الصدى! ماذا تبقى لك أيها المهدم؟ لقد سقطت من حسابات الموت، وتركت وحيداً هنا تهزك الريح، بلا عائلة، ربما لا اسم لك في جدول الأحياء ولست حتى بمنزلة حجر عثرة يشتمك المتعثرون. عظامك الواهنة التي تحملك تعوي في نسغها الآلام، وتصفر لها ريح الموت. أنت منذ سنوات لم تعد قادراً على مواكبة المشائين، بل تلتحم بالسكون الذي لا شيء غيره في نواتك!

حتى إيقاعات الشعر لم تعد تريد أن تسعفك بأي شاردة تطرب بها نفسك المهجورة.

أيها الرجل المهدم، حتى المرآة لا تجرؤ أن تعكس وجهك العبوس خشية أن تتناثر هلعة من هذا الشحوب الذي يعتريك. لقد بلغ الخراب ذروته، وما عليك سوى أن تنادي من مقعدك الحجري هذا: فليأت الموت، لم أعد أطيق الانتظار.

طائر الطفولة

في خاطري، يستيقظ أحياناً، طائر الطفولة، يبرق في ليل الذاكرة. طائر فرَّ في ليلة باردة، وسحب معه طفولتي الشقية التي تومض لي كلما جلست مع نفسي، هازئة من قناع النضج الذي يتلبسني.

لـو عثـرت يوماً على ذلك الطائـر حتى وهو يَعْبُر مثـل سهم في فضائي الشخصـي سأستوقفه وأطلب منه بأدب أن يعيد لي طفولتي.

أرض أحلامي

الأرض التي تتكرر فيها أحلامي؛ في بطن تل كبير، عبر بوابات مخفية تفضي إلى سراديب حجرية يغطيهـا العشب، مدرجات، مزارات وقباب دينية وفـوق أجمات، وباحات ذات أشكال هندسية، ثم أحواض ماء شفيف، في قاعها حصى ملونة، وبين الفينة والأخرى يعبر في الخلاء بشر بلا ملامح واضحة، تقودني قدماي توغلاً صعوداً وهبوطاً عابراً دهاليز معتمة، مضاءة بشلالات ضوئية. على مصاطب القباب والحمامات الهادرة أرى بشراً قدماء، يظهرون ويختفون كالأطياف، عمالاً يسعون كالنحل لكن دون هدف، سيدات متلفحات يعبرن الدروب، وفي جانب آخر آنسات زاهيات بفساتين ملونـة، يتخطرن في مجرى عذب. أسمع في أحلامي موسيقا لا يعزفها بشر، بل شياطين وملائكة على أرض واحدة أو في فرقة واحدة. أوركسترا سيمفونية يقودها الشيطان، والضربة الأخيرة التي يضـرب بهـا الهواء بيده معلناً انتهـاء المعزوفة، وفي هذه اللحظة التي تعلـن فيها نهاية الموسيقا يتبدد الحلم وأستيقظ. ويهمس لي مفسري الخاص الذي ينهض من أعماقي: الحصى الملونة التي تتـلألأ في عمق الماء هـي أرواح متحجرة، وأخرى بجانبها مجرد أشـكال حجرية متفتتة أوجدتها المصادفة، أو لعبة لاعب أراد بها الإيهام والتضليل!

الماء

(إلى أبي):

«مَنْ في صدره لا تنام الشوكة قط» الفلاح الذي يحرث حقل الأمل ممتلئاً بالرضا، الذي ينهض في الصباح لمعانقة النهار، الذي يعرف معنى الشعر، و يدرك كم هو قصي وقريب، في آن واحد،

النـداء الغامضـ المحمل بالندى والهتون؟! الذي يلمح في الأفق أشـكالاً تتكون، ويرى خيولاً برية تخـبُّ في رأسـ النـائم واليقظ، ويصغـي لهتافات الأشجـار أو لوحوش برية تتريضـ في الوديان والمنحدرات.

وأنت نحيل ومنحن تعبر - تحفُّ بك أشجار السنديان العتيقة، وأشجار السرو تدلُّك على مكامن الماء وسر العناقيد.

الشعـر، هبة من الطبيعة، وامتياز لائـق لهذا الكائن المتفرد الضعيـف والقدير، الذي يحرس بحرصـ نوم العالم ويقظته، ويضع لمسته اللغوية على ليل الوجود ويتقصى لحظات انبثاق الفجر الشامل.

أيهـا الشاعر، إن ذبالة ضوء تلوح في العتمة تشـع كالنور الساطع في نفس التائه! وكما الحكيم فـي الـدرب المديد، الشاعر يقول كلمة لا تُمحى عن خد الدهر، أنت قلت وسكبت حبرك الشعري بكـرم لمن يتتبعون مسـارب الحبر، وبعثرت نفسك في نفوس كثيرة، ثـم أصغيت لرنين الذوبان، ولذاتك التي تشفُّ عذوبة منبثقة من حوض الينبوع الأزلي!

لا قيمـة للنـدم، ما مـن خسارة تذكر، ما من شـيء يتجاوز الشعراء، ولا تضيـع كلماتهم هباء، الكلمات التي قالوها والتي لم يقولوها هي التي تنظم هندسة الوجود وتنظم إيقاع الزمن.

حلم مستعار

اليـوم حلمت كشاعر، حلمت أن الكلمات اقتحمت نومي، الكلمـات تتدفق مثل نبع فوار، حروف غير منقطة، غير ملونة، اختلط علي الأمر للوهلة الأولى هل هي آرامية أم عربية؟!

مددتُ يدي لأمسك قبضة، لكن عبثاً، كانت الحروف تسبح في رؤاي كأسماك رمادية. من هذا الهـروب الزلـق خرج الحرف الأكثر استقامة، و بدا لي كشاقـول، وانتصب على هيئة رجل أعرفه ولـن أسميه، وقـال الحرف مبتسمـاً: لا بد أنك عرفتني أنـا شيخ الحروف. قلـت: عرفتك. قال: أحدثـك باسمي وباسم هذا الجيشـ المتأنق الذي تراه أمامك، أنت أيهـا النـائم قم، فقد منحت حلماً لا يتوافر لمن هبَّ ودبَّ، لا تبدد الفرصة التي وهبت لك.

قلـت غيـر مكترث: عن أي هبـات تتحدث يا حرف الألـف؟ لم أعتد أن أتلقـى هبات، ولا شيء عندي يوازي لحظة نوم.

قال: لا أيها النائم، عليك أن تكتبني بما يليق بتاريخي، لا تكتبني نثراً، فالنثر يضعضعني ومعه أتمرغ في تراب بارد!

قلت: أنا رجل دربت نفسي على النثر، لا أجيد الشعر الموسق.

قــال: أنــت تظن ذلك، وكأنك لا تعرف أن الشعر يكتب نفسه عبر من يختار، والذين يصطفيهم الشعر ليفصح من خلالهم عن نفسه بالطريقة التي يريد، هم الأثيرون الذين يكونون جسراً بين الهنــا والهنــاك. وهنا في هــذه اللحظة من الحوار مــع حرف الألف في المنــام، وبأمر خارج عن إرادتــي أنا الحالــم انقطع الحلم وتبددت تلك الصور، وذاب وجــه ذاك الرجل الذي جاء إلي في النوم ليحدثني على هيئة حرف الألف.

التذكر

تذكــرت، مؤخراً، أننــي في طفولتي كنــت أكره الغروب وأخافه ليس إلى درجــة الهلع، بل على شكل وخز مُمِضّ. كان شعوراً مبهماً بالنسبة لصبي قليل الذكاء!.. أن شيئاً أليفاً على وشك الزوال، لم أكن أدرك كنهه أو مبعثه. هل لأن نفسي الصغيرة متعلقة بنور النهار الذي لم يكن يعني شيئاً لصبي؟

ربما كان الاحمرار في الأفق مع تلك النتف من الغيوم البلهاء التي ترعى في كسل، نذير خطر. أو أنــه قلــق موروث، أو توق لحدث ما؟ هذا ما علي أن أفســره الآن للكهل الوله بحل ألغاز طفولته، ورتق ذاكرته المثلومة.

بين حدين

فــي ليلة ليست باردة ولا حارة، في وضــع نفسي ليس بالمرح ولا بالكئيب، جلس مع نفسه، وفكَّر أن يكتــب شيئــاً عن نفسه، ثم تراجع عن الكتابة، وقال: لماذا أكتب عن نفسي؟ فلأتحدث الآن مع الصمــت في هــذا الليل حيث لا ضجة ولا سكينة لا عتمة ولا ضوء، وقال: لم أربح شيئاً في حياتي، لا غنائم ولا جوائز ومن ثمَّ لم أخسر شيئاً وربما هذه سعادة محدودة!

خضت صراعات مع الأصدقاء والخصوم، وكانت النتائج مزيداً من المودة ومزيداً من العداوات، ومــن ثمّ ما من ربح ولا خسارة، وللخروج من هذه المعادلة اتجهت بكل خبراتي السابقة في إدارة الصراع مع نفسي، على ألا أربح شيئاً ولا أخسر شيئاً سوى التفاهات وتصحيح بعض العثرات!..

في حياتي لم أكن غبياً بالمطلق ولا ذكياً إلى حد التفاخر أو الاعتداد بالذات..

وأنـا اليوم فـي هذا الخريف من العمر لست معتلاً ولا معافى، وجسدي متوافق بحذر مع الزمن ومتطلباته، وكل هذا يجعلني في حالتَي رضا وسخط متناوبين.

البيت القديم

أصنام هذا البيت تعبت من الجلوس فوق أعمدة الرخام البارد!

كان الفضوليـون الذين يـزورون البيت ينظرون إلـى الأرباب الحجرية هازئيـن أو متعاطفين. البيت نفسه سأم من ساكنيه الذين يشبهون حجارة متآكلة خشنة، ولا أنوثة في نسائهم!..

هـذا بيت شيده البناؤون، في زمن ازدهارهم، وفق قواعد مدروسة. إلا أن القواعد تقوّضت مع الزمـن، وذهـب البناؤون طي النسيان، وأمطـر الزمن قمصاناً باهتة علـى الزوايا التي تناهبتها العناكب والعصافير ذات المناقير الصريحة كنساء أرجوانيات في لوحات زيتية. ورسمت أخاديد الضوء فلسفتها النهارية على الجدران، حتى تبدو الظلال والخيالات كراقصات يعبرن الأفق.

البيت القديم يتهاوى. العتبة البالية ذات النقوش ظلت قائمة بعناد وسط الخراب. أحد الأرباب يرفع سبابته كإشارة احتجاج على البنائين الغائبين.

عضـلات الزمن أتت على ما تبقى من البيـت المندثر، والموتى من بطن التل الترابي يتململون من كل ما يجري حولهم.

هفوات كثيرة في البناء جعلته على الرغم من هيكله الضخم أقل قيمة من بيوت الناس الفقراء القريبة منه.

عتاب

أيهـا الراعي القديم، يا عازف النـاي في حقول الزيتون. موسيقاك تطربنـي دون أن أسمعها. أيهـا الراعي؛ لي عتاب صغير عليك وعلى أغنامك الأسطورية؛ أنت لم تزر قريتي قط، أليس هذا تقصيراً منك، ألا تستحق قريتي أن تبارك مع أغنامك ترابها الطري؟! فيما مضى ربما كان أهل قريتي من أشياعك. وكانوا يعتقدون أن للموسيقا إلهاً يتجول في الحقول وعلى ضفاف الأنهار على شكل راع مجنون يحمل ناياً من قصب.

صحيح أن الناس اليوم لا يحتاجون إلى إله جديد أو قديم ولا تهزهم موسيقا الناي، ولا تدهشهم قطعان الأغنام، ولكن لهم عليك حقّ قديم من زمن أجدادهم، يطالبونك بأن تؤدّيه إليهم، هو أن تخصهم بكرامة ما حتى يدوّنوها في ذاكرتهم، ويشيّدوا لك مزاراً في أعلى التل.

الأعمى

في المكان الذي أمضى فيه الأعمى معظم سني عمره التي تجاوزت الثمانين، كانت البصيرة ترقد بجانب فراشه في وعاء، تمتزج بالعدس المنقوع في الماء. العماء يرفرف بجناحيه مثل خفاش، ويرسل تموجاته وذبذباته عبر الأثير، ويلم من ثنايا الأفق العبارات التي لم يقلها أحد من قبل، كمن يجمع الزبدة ويضعها بين جوارح الأعمى الجالس على مقعد حجري، وأصابعه تعبث برفق في حُبيبات الجدري النافرة والمنتشرة في الوجه. خيل إلى الضرير الحزين أن فضاء واسعاً تنتشر فيه كويكبات مطفأة مثل عينيه المطفأتين، وأن شعلة من النمور العقلية تحدق به من جنبات الظلام، وتتأهب لتجند نفسها كمطايا مسرجة لهذا الذي يمجد العقل كما لو كان إلهاً صريعاً، تنتحب فوقه نساء متشحات بالسواد. الأعمى يصغي إلى النحيب برهبة.

هناك في المعرة معراج جديد، يبدأ من المقعد الحجري الذي يجلس عليه الأعمى وينتهي بالمقعد نفسه بعد أن طاف في كل «آين» في الأرض والسماء، وخلص كما أسلافه الكونيين إلى أن الثبات هو الجوهر، ويمكن للمرء أن يستحم في ماء النهر مرتين وأنه كأعمى استثنائي يقدم الدروس لطالبي العلم دون مقابل.

شبق

آنسة من جبل حرمون، متلفحة بكبريائها، ممشوقة مثل سروة فوق نبع ترنو إلى بط يسبح في بركة داكنة. ومن مكان مجهول تقدَّم شاب وسيم وغافلها ثم رمى قبلة داعرة في الهواء، لفحت بياض العنق المرمري. جفلت الشابة مثل فرس شموس دون صهيل. ومضى الشاب مثل يعسوب تائه وهو يقول: في بابل القديمة إذا صهل حصان، فإن أفراساً في مدائن بعيدة تحتفي بالصهيل، وأنا حصان بابلي لو تصغين إلى صهيل دمي.

البدائي

ليس معروفاً في لائحة الموتى!.. ولم يكن عريقاً بين الأحياء. لكنه من الفرع الأكثر ضراوة في قبيلته المندثرة!

رائحة مناقير النسور والأرواح النيئة تلوث رداءه الجلدي، وعلى مفرق شعره ثعبان أرجواني.

حين تزهر أكمامه بالشر، يذوب خنجره في ملح التعاويذ، وترقص جماجم الثعالب في صحنه الفخاري.

قالت امرأته الشاحبة: ليس لي منه سوى شبق عينيه وصفيره التاريخي الذي يشبه الزعيق الحاد، وطيوره مكسورة الجناح يلقيها هنا، مشيرة إلى حجرها، مع أفخاخه وسكاكينه وإبره ومسلاته، وخيطانه الدامية!

منذ مئات القرون، يسكن هنا في هذا المأزق الجغرافي، محاولاً أن يصغي في الليل إلى أرواح أسلافه القادمة على جياد الليل من قلاع لا مرئية!

لا شيء يخيفه سوى الخفافيش التي تُغير في الليل على الخرائب والأشجار اليابسة التي تحيط به، معتقداً أنها أرواح الغزاة الذين استباحوا مضارب أهله في زمن غابر. امرأته تقول: إنها أرواح نيئة في جرار الفخار، حين يلحظها يطلق صفيراً حربياً، يجعلها أشد هياجاً، وتنقض عليه وهي هاربة.

❁ ❁ ❁

كَلِيْمُ الرَّمْل

نجيب كيالي

تطيـر عصفورةُ فضولي مـن رأسي كثيراً هذه الأيام، وحول صديقنا السـوري إسماعيل تَحُوْمُ، وتَحُوْمُ! إسماعيل ذلك الشابُ الدمث الطيِّب أستاذُ اللغة الإنكليزية.

تسألنـي العصفورة: قـل لي.. قل لي. أليس غريبـاً أمر إسماعيل؟ إنه كلَّ يـوم دون انقطاع في الخامسة مساء يرتدي لباساً خفيفاً، ويخرج من مسكنكم الجماعي نحو الصحراء! كأنه بعد عمل المدرسة عنده عمل في ذلك المكان الذي أولُهُ رمل، وآخرُهُ رمل!

تعـرف العصفـورةُ كما أعرف أنـا أنَّ المسكن المذكور يعيش فيه خمسةُ أساتـذة مساكين أو مناحيـس، ثلاثةُ مصريـين وسوريَّان يعملون في قرية، في بلاد الملح نسيَهـا أولو الأمر، ونسيَتْها الحياةُ الجميلة، ونسيَتْها حتى الصحراءُ التي حملتْها كما تنسى بعضُ الأمهات أحدَ أولادهن!

أنـا مصـري، اسمي: عبد الرحمـن، وقد انتهزتُ ما بينـي وبين إسماعيل مـن صداقة وتناغمِ قلوب، وسألتُهُ مرة، فقال: أخرجُ لأتسلى، فلم أقتنع بجوابه.

تَبِعْتُهُ ذاتَ خروج تاركاً بيننا مسافة.

أخذتْ عصفورةُ فضولي تكلِّمني، وتتولَّى الردَّ عني، وأنا صامت:

العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

- آخ.. ليتني أعرف يا عبد الرحمن ما الذي يفعله صديقك المحترم هنا؟ قلتَ لي: إنه شاعر، ويكتب شِعراً في الصبايا. فهل لديه موعدُ غرام؟ ولكنْ مستحيل.. ألفُ مستحيل أن تأتي فتاةٌ إلى هنا. هل يلتقي صاحبك بعصابة؟ مستحيل أيضاً، فقد أخبرْتَني أنه رجل من فصيلة الورد. هل.. هل؟

غصَّتْ عصفورةُ فضولي بحيرتها، ثم قالت:

- لم يبق إلا أنَّ له ساعةَ جنون يومية، يخلو فيها إلى عفاريته، فيحاكيها، وتحاكيه.

- ممكن. (قلتُ للعصفورة وقد أعجبني الاحتمال الأخير).

تأملتُ فوق الرمل خطواتِ صديقي، حاولتُ قراءَتَها، كما كانوا يفعلون في علم القِيافة، لكنّها أوصلَتْني إلى هذه القناعة: رجلٌ بريء، بسيط مرَّ من هنا.

جلس إسماعيل فوق صخرة، ظهرُهُ إليَّ، ووجهُهُ إلى الرمل. تحوَّلتُ كُلِّي في تلك اللحظة إلى جمرة.. إلى زوبعة.. ماذا بين إسماعيل، وبين الرمل؟!

اقتربتُ منه كثيراً ناسياً حذري، فرأيتُ من الخلف فكَّيه يتحركان، كأنه يتحدث، ورأيتُ ذراعَهُ اليمنى تتحرك، كأنها تدعم حديثَهُ بالإيماءات المناسبة!

نهض صديقي فجأةً، التفتَ إلى الخلف، فرآني!

كان وجهي ممتلئاً بحيرته العميقة وفضوله الجارف، رأى ذلك، فقال: تعال.



أجلسني بجانبه على الصخرة، وتمتم:

- باختصار.. أبحثُ عن معنى أبيات من الشعر، وآتي لأسألَ الرملَ عنها.

صعقني الجواب، قلتُ له بعد أن عثرتُ على رأسي الذي سقط في مكان ما:

- أيُّ أبيات؟!

- أبيات عمر أبي ريشة التي أثنى فيها على الصحراء وأهلها:

رعشـــــاتٌ في أضلعي ماجتِ الصَّحْ
ــــراءُ فيـهـا، ومـــاجَ فيـهـا افـتـتـانـي
صـــــدقَ الـحـبُّ، إنَّ مـوطـنـي الأجْــ
ـردَ روضي، وجـــــــدولي، ودِناني
يُـنـبـتُ الـمـجـدَ قـبـل أن يُـنـبـتَ الـــور
دَ ويُعطي الثمـــــارَ قبلَ الأوانِ

ظهـرتْ في عينـيَّ- على ما أعتقد- تلك الشتيمـة التي يقولها أعداءُ الفن ضـد الشعراء: إنهم مجانين، مهابيل، عقولُهم لا تساوي بصلة.

بابتسامة تلقى إسماعيل شتيمتي قائلاً:

- سامحك الله. اشتمْ كما يحلو لك. بعد قليل ستوافقني.

تنحنح، وباغتني بسؤال:

- قـل لي: ألستَ مكسورَ الخاطر هنا؟! وأنا والآخرون ألسنا مكسوري الخواطر؟! ألسنا في هذا المـكان- ولا أقصـد قريتَنـا فحسب، بل موطنَ الصحـراء كلَّهُ- نمسي على شـوك، ونصبح على شوك؟!

أجبتُهُ بعينين استيقظتْ فيهما ينابيعُ الألم: بلى.. بلى.

فتابع:

- ألا يوزِّعـون علينا مع العمـل غُصَّة؟ مع الراتب غُصَّة؟ مع السلام غُصَّة؟ أليست النفس التي تتعامل معنا بعيدةً عن الطيبة والفضائل؟ غريبةً عما قالته الأبيات السابقة؟

ابتلعني ألمي، فصرتُ مجردَ آهة لا تعي غيرَ العذاب، هتفتُ:

- نعم، ثم نعم، ثم نعم.

قال إسماعيل بألم مماثل:

- وهذا ما يجعلني أجيء إلى هذا الموضع مرةً بعد مرة لأكلِّم الرمل، أسأله: أين معنى الأبيات؟ أين أجدُ في الوجوه المتعالية العابسة روضاً أو جدولاً أو ورداً؟ أين ألمح ثمراً قبل الأوان أو بعده؟ أكلِّم الرملَ أحياناً بعينيَّ، وأحياناً أنفعل بشدة، فأستعمل لساني. أرجوه بمرارة طافحة أن يُخْبِرَني: إذا كانت أسرابُ القِيَم قد خرجتْ من هنا فهل يُعقَل ألّا نعثرَ لها على أثر أو بقية؟ الشمس تترك أثراً عند المغيب. المطر حين يتوقف يُخلِّف علامةً على سقوطه. الربيع يُبقي على الأرض زهرةً ولو ذابلة تشير إلى مروره.

طفرتْ دمعةٌ من عينيَّ، وجدتُ نفسي مع إسماعيل أتجه إلى الرمل مشاركاً صديقي في أسئلته.

لم يجب الرمل، بقيتْ أسئلتنا معلَّقةً، وربما سقطتْ في جمرة الغروب!

❁ ❁ ❁

الحريق

د.هزوان الوز

الساحة

علـى غير عادته بـدا الأستاذ «نبيل» برماً، فهو في معظم الأحـوال والمواقف هادئ يزن كلامه قبل النطق به. سأله «يوسف»، جاره:

– خير اللهم اجعله خيراً؟

– يـا أخي منذ زمن غيـر بعيد وأنا ألحظ أنّ الساحة التي يلعب فيهـا الأولاد بدأت تصبح مكبّاً للنفايـات: قطعة خشب، لوح بلاستيكـي، أوراق... ولا نعرف مَنْ يفعل ذلك، تستيقظ كل يوم على نفايات جديدة، إلى الحدّ الذي لم تعد الساحة تصلح معه للعب الأطفال، وأصبحَ بعضُ أهل الحي يتجنب المرور في الطريق الموازية لها لتصاعد الروائح الكريهة منها.

يتوقـف (السرفيس) أمام مبنى المحافظة، يغادره الأستاذ «نبيـل» وثلاثة أشخاص، يتوجهون نحو مكتب المحافظ، يقولُ الأستاذ «نبيل»: نريد مقابلة السيد المحافظ.

يردُّ مدير المكتب: من الباب للطاقة؟ وفوراً؟ ما الموضوع؟

وبعد عرض الموضوع عليه قال مدير المكتب: عليكم مراجعة مدير دوائر الخدمات في الطابق الرابع.

الأستاذ «نبيل»: لا حول ولا قوة إلاّ بالله.

رجل آخر: يا سيدي الحقِ الكذّاب.

ولـم يكد الرجل يتمّ عبارته، وبعـد أن تلفّت فيما حوله، حتى ألحقها بالقول: أقصد دق الحديد وهو حام.

مديـرٌ دوائـر الخدمات، وبعد أن أصغى إليهم، أشار بإصبعـه إلى أعلى: الحل في الطابق الذي يلي طابقنا عند مدير النظافة، قولوا له: أرسلنا مدير دوائر الخدمات.

علّق أحدهم: تقصد زحلقنا مدير دوائر الخدمات.

وفي مكتب مدير النظافة الذي استقبلهم كان الكلام الذي يسرّ: هذا لا يجوز، وفي أوّل مناقصة سأرحّـل تلـك النفايات وسأنظف الساحة وقد أُسوّرها، والآن ما عليكـم إلّا أن تعودوا، وحاولوا أن تعرفوا لي مَنْ الذي يلقي النفايات في الساحة، وعندها سأُربّي الأرض به.

فـي اليوم الثاني انتشر خبر مقابلة مدير النظافة بين سكان الحي جميعاً، وأخذ الرجال الذين قابلـوه يرفعـون صوتهم بالـكلام، ويسترسلون بروايـة تفصيلات المقابلة، ويتفننـون في أسلوب نقلها.

وفـي اليـوم الثالث من المقابلة كان الأستاذ «نبيل» على مبعدة من كومة النفايات وفي يده ورقة وهو يصرُّ على أسنانه.

يوسف: خير أستاذ نبيل.

– خير؟ لا خير.

ثمّ دفع بالورقة التي في يده إلى يوسف، وتابع يقول:

– عليكـم وعلـى مدير النظافة، وكرمى لكـم (شوية نفايـات)... أوراق وأغصان أشجار وقطع بلاستيك و...

أحدهم ممن كان في المقابلة علا صوته:

– لو أننا نعرف من هو. إذا كان شجاعاً فليتفضل ويبيّن مَنْ حضرته.

نظـر الأستـاذ «نبيل» إليه من دون أن ينبس ببنت شفة، وعلـى وجهه أمارات الإحباط، ثم اتجه «يوسف» بالورقة جهة النفايات وألقاها فيها.

وكثر حديث النـاس عن الكومة وعن أوساخها، وصار حديثهم اليومي.

أمام الفرن اقترب شاب من آخر، وقال:

- الله العليم، لقد سمعتُ أنّ خلف الكومة أكل «شاهين» ضربة سكين واختفى الفاعل.

وكانت امرأة خمسينية تتحدَّث بثقة من عجنه الدهر وخبزه، وتقول:

- يا أختي الكومة كلها أسرار. لا تأخذي مني غير الحكي، لكن كل يوم نسمع العجب.

المرأة الأخرى قالت:

- والله كلامك صحيح.

ثم خفضت صوتها، وتابعت:

- سمعت أنّ بنت جودت اعتُدِيَ عليها في الطرف الجواني للكومة.

واستوقف رجل آخر متأخراً في العودة إلى بيته بعد أن اشترى الخبز، وقال:

- سمعت أن الشرطة عندما جاءت تبحث عن المسدس الذي قُتل به «أبو سعدون» في الحي بحثت في الأماكن كلها إلاّ الكومة، إذ لا مصلحة لهم في نبشها، فيها الكثير الكثير، وقد تتسبب روائحها الكريهة والقوية بآفات مميتة لهم.

تجمع عدد من أهل الحي وقصدوا مرّة أخرى مدير النظافة، وفي مكتبة دهشوا جميعاً عندما لمسوا معرفته بتفاصيل الأمور المتعلقة بالكومة وما رافقها من أحداث.

أسند ظهره إلى الكرسي الدوّار وتكلم، وبدا كما لو أنّه تذكر شيئاً كان نسيه فضغط زر الجرس، ثم قال للمستخدم: أحضر الشاي للأخوة.

وعاد إلى لهجته الواثقة وطلب إليهم أن يطمئنوا، ووعدهم أن يضع حداً للكومة، وسيطلب موافقة المحافظ على وضعها تحت الرقابة لمعرفة الشاردة والواردة والكبيرة والصغيرة عنها، وقطع اليد التي تمتد إليها، ولم ينسَ أن يشيرَ إلى أنّهم سيعلمون السلطات العليا بذلك.

ومرّت الأيام على تلك الزيارة، ولم يحدث شيء سوى ما يعني الكومة نفسها، التي كانت تزداد علواً وحجماً ونتانة، وسوى ازدياد احتجاج بعضهم وبصوت جهوري، بينما قالَ آخرون: «يا عمي ما دامت الكومة ليست أمام دارنا فسنمشي الحيط الحيط ونقول: ابعد عن الشر وغنِّ له»، واعترضَ غيرُهم على محتويات النفايات وطريقة رميها، ولم يعودوا كما كانوا سابقاً يعترضون على رميها أساساً.

ومرّة أخرى ركب عدد من الرجال (السرفيس) قاصدين مكتب المحافظ، وفي الطريق قبل الوصول قال أحدهم:

- يا أستاذ «نبيل» أشار عليّ أحد الأقرباء بالاتصال بوسائل الإعلام، وبحسب ما قال لي فالإعلام قادر على تغطية الحدث.

- نعم، لديهم القدرة على ذلك، لكن نحن نريد من يكشف الحدث. نريد من يكشف المستور لا من يغطيه!!!

وبعد انتظار وشرح مملّ لمدير مكتب المحافظ جاء الفرج بتعبير أحدهم، إذ أمر المحافظ بإدخالهم على ألّا يطيلوا البقاء.

كانوا جميعاً ينصتون للسيد المحافظ مبهورين بسعة اطلاعه ومعرفته بتفاصيل أمور كومة النفايات ومجرياتها.

وفي نهاية اللقاء قال المحافظ:

- سترون أفعالاً بمجرد وصولكم إلى بيوتكم.

لم يصدق الرجال عيونهم، (كاميرات) عدّة ورجال وسيدات حول الكومة يلتقطون صوراً لها من الجهات كلّها.

يستوقفون المارّة، يسألونهم ويستوضحون عن معاناتهم.

وفي المساء كانت سيارات الحكومة ترابط في كل زاوية من الحي، يتابع رجالها أي كلمة عن الكومة، ولقد اعتقلوا خمسة أشخاص، يُقال: لقد عذبوهم حتى يبوحوا بما يعرفون، وعندما أخرجوهم قالوا لهم: ممنوع أي حرف.

وبدأ الناس يلفظون كلمة الكومة همساً، ويتجنبون الكلام عنها جهراً، وأصبحت الكومة وكأنّها سرٌّ من الأسرار.

ذات صباح نهض أهل الحي على نبأ لم يأبهوا له في البداية، وبَعْضُهم كان يتناقل خبر دخان منبعث من طرف الكومة، حتى أخذوا يتجمعون حولها ويحاول بعضهم أن يتقصّى الحقيقة.

يوسف: إذا اندلع الحريق فقد يصعب إخماده بسبب الهواء القوي.

أستاذ نبيل: بل قل بسبب الريح والغازات القابلة للاشتعال التي تنبعث من الكومة. يارب استر.

لم يمضِ وقت طويل حتى بدأت ألسنة اللهب ترتفع والدخان يزداد طيشاً.

ساد هرج ومرج، وكثر الحديث، هذا يلوم وآخر يَتَّهم.

صرخ رجل من المجتمعين: يا ناس كفى، دعونا نفعل شيئاً، لا بدّ من إخماد الحريق.

ردّ آخر: من صنع الكومة يجب أن يكتوي بنارها، ثم إنّ الأخبار التي تأتي من حريق الكومة تخيف، فقد حاول أبو الليث إطفاءها فحرقت النار أجزاء من جسده، وحاله بالويل، وقد سمعت أن كل من يحاول الاقتراب منها يصاب بالأذى.

الأستاذ نبيل: هل نبقى هنا بلا حراك حتى تصل النار إلى بيوتنا وأولادنا؟

ثم بعد صمت تابع: وستصل حتماً، وستطال الجميع أيضاً.

فتكلم آخر: وهل نحن مذنبون في ذلك؟

سأل الأوّل: هل تريد أن تقول إنهم هم من أشعل الحريق؟

- يمكن. ولكنني متأكد من أنهم غَضّوا الطرفَ... عمن كانوا يرمون نفاياتهم في الكومة من الأحياء الأخرى، وأحياناً كانوا يساعدونهم.

صارت النيران واقعاً يهدد الجميع، وبدأت نيران الكومة تمتد إلى أبعد منها، وأصاب الذعر الناس جميعاً، وأصبح أهل الحي يهربون من مكان إلى مكان طلباً للنجاة، فالنار تمتد وتمتد وتصيب من يقترب منها، ومن لا يقترب.

يوسف: أصبح شغلنا الشاغل الحريق وزيارة المقابر، ومحاولة البقاء في أماكننا إذا كان ذلك ممكناً.

أستاذ نبيل: المحافظ الفهمان. رئيس البلدية. و.... أين هم؟!

قال رجل كان قريباً منه: يا أخي الله يعينهم، هم يتابعون الأمر عن كثب لاتخاذ الإجراءات اللازمة في الوقت المناسب.

رائحة الدخان تتزايد وألسنة اللهب تتعاظم أوزارها، وبدأت رائحة الأجساد التي أحرقتها النيران تصبح جزءاً من الهواء الذي يتنفسونَهُ.

أصبحت الأمهات يستيقظن وعيونهن كالجمر المتقد كأنّ النوم لم يعرف سبيلاً إليهن، واستوطن القهر في قلوبهن، أمّا الأطفال فلم تكن ثمة حاجة إلى أدنى جهد لرؤية الخوف والقلق في عيونهم التي قرّحها دخان الكومة وفراق الآباء والأخوة.

الحريق الأكبر

لم يعد الحريق حدثاً يخصّ أهل الحي، فقد بدأ سكان الأحياء المجاورة يبدون تذمرهم خوفاً من وصول الحريق إلى بيوتهم، وكل حي له وجهة نظر في كيفية إطفائه. بعضهم كان يرفع صوته مطالباً بمعاقبة أهل حي الكومة على ما اقترفوه لأنّ النار، حسب رأيهم، أكلت مزرعة أبي عقبة الذي كان يبيعهم محصولها، وخذ على كلام أقل من ذلك وأكثر.

فجأة برزت من الطرف الشمالي للحي سيارة (بيك آب)، ولم تستغرق وقتاً حتى وصلت، ترجَّل منها رجل ونادى بصوت مرتفع:

- يا ناس. الرجال الموجودون في الطرف الثاني للكومة يريدون إيقاف النار عند حدود بيوتهم، سيحفرون خندقاً ويتركون الماء فيه فلا تستطيع النيران تجاوزه، وهم لا شأن لهم بحسب أقوالهم إذا أكلت النيران بيوتكم، وقد يأخذون أراضيكم بعد أن تأكلكم النيران.

وجــنّ جنــون رجال الحي، وصــاح عبود الأشقــر: كلاب والله، لم يضمروا لنـا الحــبّ أبداً، لكن عليهم أن يتحملوا، يا رجال. مياه الأحياء الأخرى تنبع من حارتنا فأسرعوا لنقطعها عنهم.

ولم تكد ساعة تمضي، حتى كان الرجال يحوِّلون مجرى الماء.

نظر أستاذ «نبيل» إلى «يوسف»، وسأله بحرقة:

- لو كنا هكذا من قبل لما وصلنا إلى ما وصلنا إليه، فقد انقطعت المياه عن الأحياء الأخرى، لا بل جرفت في مجراها الجديد في الوادي العميق بعضاً من ممتلكات الناس ومواشيهم، وأصبحت الكومة ونيرانها ميداناً لإبراز مدى ما يمكن أن يلحقه فريق بآخر من الضرر والهلاك والموت.

لم يعد الوضع محتملاً، ووصل الجميع إلى حافة الهاوية، خوف وقلق ورائحة الموت في مختلف الجهــات، وأصبح الحي مستباحــاً للصالح والطالح، والجميع ينتظر مصيــراً مجهولاً، ومن بعيد ومــن الطرف الجنوبــي أخذ صوت أبواق سيارات الإطفاء يقترب، ثم بــدأت تتعالى أصوات أبواق أخرى آتية من الشمال.

يوســف: وصلت سيارة إلى الجهــة الجنوبية، ويقول النـاس: إنّ المكان المناسب لها لتعمل جيداً وتطفئ الحريق هو مكان بيت أبي محمد، ولذلك فإنهم سيقدمون على هدمه.

أستاذ نبيل: وماذا سيفعل أبو محمد؟ سيعطونه بطاقة لجوء ومساعدات ريثما تنطفئ النيران، نعم، وفي الحي الشمالي.

يوســف: يــا أستاذ. الله الوكيل، وعلــى ذمة صديق هرب مــن الجهة الشرقية روى لــي أنّه رأى وعــرف من أضرم النـار في بعض البيوت، وهو من سعى لدى أصحاب سيارات الإطفاء لإطفائها، وبعد أن خمدت النيران أخذ يتصرف كأنه المالك الجديد للأرض وذلك بوضع اليد عليها.

الأستاذ نبيل: لذلك كلما اقتربنا في أماكن عدة من إطفاء النار تعود وتندلع ثانية وثالثة و...

لــم يعد الوضع محتملاً، النيران أكلت الأخضر واليابس والشجر والحجر، وامتدت إلى أماكن عدة، ومن كان يعتقد أنها لن تصل إليه عرف أنّه كان مخطئاً.

سيارات الإطفاء

فــي مدينة تبعد مسافــة ليست كبيرة عن النيران المشتعلة. تحلَّق عــدد من رجال الأحياء التي اكتـوت بالنار، ومن أتباع أصحاب سيارات الإطفاء، مال رجل من الحضور إلى جهة الأستاذ نبيل وبصوت خفيض سأله عمن دعا إلى هذه الطاولة.

ردّ الأستاذ نبيل: إنّها رغبة أصحاب سيارات الإطفاء.

وعــلا صوت الحاضرين في النقاش، وتطرقوا لأكثر من أمر، هذا يريد الخلاص من فلان قبل أي شــيء، وفلان يحمِّله مسؤولية ما جــرى، طرفٌ يريد البدء من جهة بإطفاء الحريق والتعويض على المتضررين، وآخر يريد البدء من جهة ثانية، وكل واحد يشدّ الحبل إلى طرفه.

وبطبيعة الحال فإنّ الذين يأكلون العصي غير الذين يعدونها كما يقول المثل، لذلك أخذ الذين يأكلون العصي يدركون معنى أن تبقى النيران مستعرة، وتعالت أصواتهم: نريد إطفاء النيران.

اقتــرب رجل مــن أتباع أصحاب سيــارات الإطفاء من الأستــاذ نبيل، وسأله: يــا رجل ما الذي تقولــه؟ وهل تسامحــون أولئك الذين فعلــوا ما فعلوه بكــم؟ لا أعتقد ذلك مناسبــاً، تصلَّبوا عند مواقفكم ونحن سنكون عوناً لكم حتى لو لم نعلن ذلك جهاراً.

وبينما كان الأستاذ نبيل يفكر بكلام ذلك الرجل وقف رجل في الطرف المقابل ممن جلسوا حول الطاولة، وهو أساساً من سكان الجهة الشرقية للحي، وقال: نحن لنا مطالب قبل إطفاء الحريق.

قال كلاماً شبيهاً جداً بكلام أصحاب سيارات الإطفاء.

انتهــى اللقــاء ولم يتفقوا علــى إنهاء محنتهم، لكنهــم توصلوا إلى أن تبقى الأمــور على حالها، وتعهــد أصحــاب سيارات الإطفاء بأن يَحولــوا دون اندلاع نيران أخرى بانتظــار جولة جديدة من اللقاءات.

وصلــت سيارات الإطفاء إلى الحــي الشمالي أيضاً ومعها رجال يبــدو أنهم حاذقون في اغتنام الفرص، ويقولون إنهم يريدون العمل لوجه الله وحباً في إنقاذ الناس من الموت والجوع.

وبلهجــة حاسمــة وآمرة قال كبير رجال الإطفاء: خلال ساعــة يجب أن تكون هذه الأرض خالية من أي شيء لأنها ستكون مركز انطلاق أعمالنا.

وخــلال ساعة كانت أرض «أبو سالم» خالية من الأشجار وممهدة، واستقرت فيها معدات رجال الإطفاء ومقراتهم المؤقتة كما قالوا.

بانتظار الدخان الأبيض

فــي مدينة أخرى أكثر بعداً من حيث المسافة عن النيــران المشتعلة، تحلّق من جديد عدد من الرجال ممن أشعلوا الحريق، وممن كوتهم نيرانها حول طاولة كبيرة.

بــدأ أحد الرجــال حديثه بالكلام عن النار وعمّــا أحدثت وعمن أصابت، وأشــار إلى أنّه باسم تجمــع مالكي سيارات الإطفاء يريد تقديم المساعدة والعــون على إطفاء الحرائق وإعادة الحياة إلــى سِكّتها الصحيحــة، وبدأ الرجال يتبادلون الاتهامات ويتراشقــون بالكلام، وبدا كأن النيران ستستمر، وكان الرجال المتضررون يدركون معنى أنْ تستمر، وعلا صوت أحد الحاضرين: يا ناس من يأكل العصي ليس كمن يعدّها.

ويقســم الأستــاذ نبيل أنّه تابع وهو مذهول كيف أنّ أناســاً من بين الحاضرين كانوا يتحدثون عــن إطفاء الحريق وهم لا يعرفــون شيئاً عنه، وآخرون يتكلمون عــن مصالحهم التي تأذت مع أنهم لا يملكون حجراً واحداً في مناطق الحريق.

وبعد جدال عنيف وأخذ ورد لأيام انتهى اللقاء، ولم يخرج الدخان الأبيض من المدخنة.

حدثَ.. يحدثُ

فــي «الأخبار الطــوال» للدينوريّ أنّ رجلاً وافى أرض الشام في جماعة من اللصوص، فكان إذا جنّ الليل أشعل في ناحية من السوق النار، فإذا تصايح الناس، واشتغلوا بإطفاء الحريق، أقبلَ مع أصحابه إلى ناحية أخرى من السوق، فكسرَ الأقفال، وأخذ ما قدر عليه، ثمّ هرب.

❁ ❁ ❁

الوَلَه الكبير

وجيه حسن

ماذا أقول اللحظة، وأنا في حالة تأهّب قصوى، وبوضع متوفّز لا أُحسَد عليه، بل لا أعرف توصيفه كما يجب؟! قالت أمس: «إنها ستتصل قبل مجيئها»، قلت: «أنا في الانتظار»، قالت: «أرجو أن تحمل لي من مكتبتك البيتية كتاباً ماتعاً، لعلّه يجلو ما في قلبي من هموم ضاغطة»، قلت: «سآتيك بكتاب، كنتُ قد قرأته من أيام، أعجبتني أحداثه، أعتقد أنه سيبعد عن نفسك ما ألمّ بها من آلام، أعرف شطراً كثيراً – قليلاً منها»، أضفتُ: «لن أكشف لك ماهية القصة، وعنصر التشويق فيها، بل سأدع ذلك الآن، حتى لا أضيّع عليك فرصة التمتّع بعمل كبير، لكاتب غربيّ كبير، يُدعَى «أنطونيو غالا»... ما زلت أتقلّب على صفيح الانتظار، عيناي مسمّرتان على ساعة يدي، وساعة الحائط بآن.. الآن تحوّلتُ بكليتي لعدّة آذان، كلها ترهف السمع لرنين الهاتف الأرضي، علّه يُبرّد لديّ بعضاً من حرارة التوفّز المقلقة.. أو لزقزقة «الموبايل» القريب من يدي، لعلّه يتحفني بخبرٍ سار.. ألم تستيقظ صاحبة الموعد من نومها بعد؟ ألم تقلْ ذات الصوت النّدي: «إنها ستتصل قبل مجيئها»؟! هي الساعة أمامي تشير إلى الحادية عشرة صباحاً، أعتقد أنّ كلّ الكائنات قد استيقظت من سُباتها، لاسيّما أننا في صيف تموز، أم أنّ شريحة من البشر قلبوا وجه المعادلة،

فصـاروا يسهرون آناء الليل، ومن ثـمّ يستيقظون متأخرين أطراف النهار، إلا إذا لجأ أحدهم إلى عقـد اتفاق مـع أحد ديكة الحيّ لإيقاظه، أو لربط إبرتَي المنبّـه، أو تشغيل موقّت «الموبايل»، على ساعـة استيقاظ محددة! أعرف يقيناً أنك ستأتين.. كانت نبرة صوتك فاضحةَ الأسرار.. مجيئُك بالقطع ليس من أجل استعارة كتاب «الوَلَه..»، ولكنْ من أجل وَلَه آخر، أنتِ تضمرينه.. فأنا كغيري مـن صنف الذكور، نعرف أنّ للمرأة أساليبَ عجيبة فـي اصطياد الرجل، والإيقاع به.. وأتقرّى في طلبـك المُستعجِل استعـارةَ كتاب من كتبي، أنـك ستأتين، لمجالستي ولقائـي، فهذا هو الهدف، وغايـة المسعـى... اعذريني، فأنا ما عرَفتُ يوماً أنك مولعة بالكتـب، أو المطالعة، أم أنك بطلبك هذا تريدين قراءة أخرى، ومرْمى آخر؟ ثمّ لماذا تصرّين هذه المرّة على استعارة كتاب، أيِّ كتاب؟ كيف هبط عليك إلهام القراءة دفعة واحدة مثل نيزك ليليّ مباغت؟ باختصار، هذه الأسباب والعلل لا تهمّني تفصيلاتُها كثيراً، المهمّ أنْ تقرأي، ففي القراءة حياة أيّ حياة! من الكتب نتعلم، تغتذي عقولنا، يصبح البصر لدينا بصيرة واعية! أليست الكتب خلاصة تجارب الكتّاب والأدباء والعلماء والمفكرين والمستنيرين، الذين استهلكوا عقولهم وحيواتهم عامّة من أجل إنتاجها وإبداعها؟ ألم يقلْ أحدهم: «تعلّموا من الكتب، تعلّموا من الحياة، لا تكفّوا عن التعلّم»؟

هــي ذي الساعة تتجاوز الحاديةَ عشرةَ والربع صباحــاً، مِسماع الهاتف صامت متواطئ، يتآمر علـى أعصابي، يتلاعب بـي، كأنّ على أسلاكه الطيـر، كأنّ حرارة الأسلاك هــي الأخرى ساكتة متواطئـة.. وإذا كان حدْســي ليس صائباً، إذن، لماذا لم يصلنــي الرّنين، أو إحدى النغمات منها حتى الآن؟

نعـم وعدْتُك بإحضار كتاب على ذوقي، وها هي روايــة «الوَلَه التركي»، لمؤلفها «أنطونيو غالا»، إسبانــي الجنسية، يستريحان الآن داخل حقيبتي الجلدية، التي أضع فيها عادةً أشيائي الخاصة، على رأسها الكتب، رفيقةُ الدّرب، وخيرُ جليس.. ولعي بالكتب، يعادل «وَلَه» النساء بالحبّ والغرام، لـكأنّ شريحــة عريضة من النساء الشرقيات، ما خُلقن إلا لهذيــن، فهما في مقدَّمة الاهتمامات!

أهو خوف المرأة الشرقية عموماً من بُعبع «العنوسة» البغيضة، ومن تبِعاتها الباهظة، ربّما؟

أرســم هــذه الكلمات، وعيناي لا تـزالان مُبْحِرَتيــن في عقــارب الساعة، إنهــا الحادية عشرة والنصف، وطالبة الاستعارة، لم تصلْ بعد، جعل اللّهُ المانعَ خيراً.. الهاتف المتواطئ لا يزال على

حَرَده وسكوته، أم أنّ «مؤسسة الاتصالات»، تآمرت هي الأخرى، فقطعت الحرارة عن هاتفي دون سواه، مع أنني «مواطن صالح»، فمنذ يومين سدّدتُ آخر فاتورة، إذن، أموري الفاتوريّة نظاميّة مئة بالمئة.. بل ربما أوقفَتِ الحرارة، لأنها لا تريدني «أنْ أسقط منْ على ظهر الحصان»، فوجود ذكر وأنثى تحت سقف واحد، في مكانٍ خليّ، ربما يفسح المجال لِوَسْوسات الشيطان، والمؤسسة العتيدة لا ترجو لي أنْ أُبتلى بمثلِ هذه البتّة.. أما النساء فلهنّ فلسفة أخرى، وطرق التفافية، تجعل الرجل، أيّاً كان موقعه الوظيفي، ومهما كانت شخصيته الاعتبارية، يقعُ أرضاً، مكبّل العقل والقلب واليدين بآن، وإنْ كان متزوجاً ومُحْصَناً..

بشماتةٍ وَسَفَه ترمقني ساعة يدي، تشير إلى الثانية عشرة تماماً، لكأنّي بها تقول: «مَنْ واعدَتْك على المجيء لنْ تأتي، التفِتْ لعملك، فالوقت كالسيف».. لم تنهِ الساعةُ نُطُقَ حرفها الأخير، حتى رَنَّ جرس الموبايل، «مَنْ»؟، «أنا...»، «تأخّرتِ»؟، «غصْباً عنّي، أنا في طريقي إليك، مسافة السّكّة»! ولا أزال أنتظر مسافة السّكّة المزعومة، أدخل أعماقي مُهتاجاً، أخرج منها مُتداخِلاً مُتعالِقاً، كم هي طويلة مُوغلة تلك المسافة، أهي من أدنى المدينة إلى جنوبها، أم من شمالها إلى تخوم أقصاها؟ أخيراً وصلتْ.. سلّمتْ.. بدَتْ بحالٍ من الإعياء شديدة، ظهرَ الوجه القَمريّ الدائريّ مفعماً بالأسى، قلت: «ما بكِ مُتعَبة»؟ قالت: «أمي»!

- «ما بها، هل هي مريضة لا قدّر الله»؟

- «مريضة بعقلها»!

- «هل نتحدث عن أمهاتنا بهذه الطريقة»؟

- «كأني لستُ ابنتَها»!

- «أهذا كلام يُقال»؟

- «هذا وزيادة.. آهِ لو كنتَ حيّاً يا أبي، رحمة الله عليك، وعلى ترابك الطاهر، كنتَ أباً حنوناً»!..

للتوّ لمحتُ دمعاً سخيناً يتدفق على وجنتيها.. قلتُ «ألا يمكن معالجة الأمر مع أمك بصورة وديّة دون منغّصات»؟ ردّت «تقول لي دائماً: لستِ ابنتي»، «إذن، ابنةُ مَنْ أنا يا أمي»؟ فيكون جوابها في الحال صفعةً مدوّيةً على «بوزي»، يتطاير الشّرر من عينيّ بسببها، تغدو صفحة وجهي مُضرّجة

بِحُمرة متواطئة، وقتها أبلعُ لساني، آنَسُ إلى وجعي، أصمت.. بمنديلٍ ورقيّ مسحَتْ تلك الجداول الدّمعية، أردفتْ: «صدّقني يا أستاذ، وما لكَ عليّ يمين، أشرب قهوة الصباح منفردة، أذهب مضطربةً إلى دوامي بتلك المديرية، وفي العمل «خربطةٌ» من نوع آخر.. فهناك نمّامون كثر، آخرون يقبضون رواتبهم ظلماً، فهم لا يعملون بمرتب نصف يوم في الشهر على طوله، ناهيك عن الغمز واللمز تجاه زملائهم ومديريهم، إضافة للأكل وحفلات الكاتو وفصفصة البزر وتعاطي التدخين وشرب الشاي والقهوة و«المتّة»، لا ينقصهم سوى وجود النارجيلة ليكتمل المشهد.. وحين يذهب أحدنا إلى «بوفيه» المديرية وإلى «المَجْلى» تحديداً، يُصاب بالتقزّز والغثيان، من منظر تفل «المتّة»، وبقايا أعواد الشاي، وتبقّعات فناجين القهوة المتخثّرة، وبقايا أعقاب السجائر بأحمر الشِّفاه ومن دونه.. ناهيك عن أحاديثهم الممجوجة على هواتف المديرية، وهم يتصلون بزوجاتهم أو أصدقائهم، أو وهُنّ يتّصلن بأزواجهنّ وأمهاتهنّ، ويستمر هذا – بشرفي – طوال اليوم بالتناوب، حتى إذا اتصل أحد المواطنين للاستفسار عن مسألة ما، تكون خطوط الهواتف جميعها مشغولة، فيتجشّم المسكين جملة من المتاعب والخسائر للوصول إلى المديرية، فأجور المواصلات العامة أضحت مرتفعة، وكذا أجور الميكرو باص، وسيارات التاكسي العمومي، بسبب غلاء البنزين والمازوت، إضافة إلى المعاناة النفسية التي تنتابه، بسبب معاملة عدد من الموظفين الحامِضيّين له... تأخذ نفَساً قصيراً وتنبس: «عندما أعود من عملي، ظهراً، وقتها لا يكون في البيت عادةً سوى أمي، ألقي عليها التحية، فلا تردّ، تتبرّم، تدير وجهها ناحية أخرى، لكأنني عدوّة لها، أقترب منها لأقبّل يدَها، رأسَها، وجنتيها، عندها مولولةً تصرخ في وجهي، لكأنّي ارتكبتُ بحقّها خطيئة جسيمة.. بمفردي أتناول طعامي، كبنت يتيمة الأبوين، أو إنسانة مقطوعة من شجرة.. بعدها أقوم لِجَلي الصحون وبقية الأواني، وأنا سِرّاً أشكر أمي التي جهّزت لي الطعام، ليس من أجل سواد عينيّ، إذْ كانت تطالبني دوماً (بالفلوس)، على الطالع والنازل، وليس لي موردٌ آخر سوى راتبي الشهري المحدود.. ثم أخلد إلى السّرير في قيلولة مُستحبّة، لأريح جسدي من متاعب العمل بالمديرية.. في النوم أجد متعة غريبة، بحيث أغيب عن العالم من حولي، أصبح كائناً مقبوراً تماماً.. وقتها لا أسمع أيّ إهانة من أمي، أشكرها من أعماقي لأنها سمحت لي بأخذ قسطٍ من الراحة، والغياب عن إهاناتها القاسية، وعن ضجيج الأفكار والعالم عامّة...

كانـت «حزينــة، ع، ك»، تروي قصة وجعها الإنساني، بينما دمعهــا اللؤلؤي، كحبيبات موج طافية على الشاطئ، لا يزال يتلامح على الخدين، ينسرب إلى أطراف ثوبها الليلكيّ المحتشم، وهي تحاول مسحــه بين البرهة والأخرى.. زفرتْ وشهقتْ مرّة ومرّتين، تابعت: أما إخوتي الثلاثة، مع نسائهم، فمتعاطفــون مع أمي ضدّي، علــى الشرّ والشرّ، وحين كنت أشكو لأخي الكبير «مانع» مبلغ الألم على يديهــا، كان الضــرب المؤذي هو الجواب، ناهيك عــن كُتل البصاق التي تتبقّــع على وجهي ورقبتي وأنحــاءَ أخــرى من ثيابي، والرّفس على جسدي بقدميه الغليظتين، وقيامه بشدّ شعري وبعثرته، بلا أيّ شفقــة أو أدنــى أخوّة.. وأقلّ كلمة كان يوجهها إليّ أخي الثاني الملقّب بـ«حنش»، كلمة «حقيرة».. أما أخي الصغير «ذياب»، صاحب العشرين عاماً، فحدّث عن ألفاظه البذيئة ولا حرج.

الآن أسألكَ يا أستاذ: هل إذا توظّفت المرأة الشرقية في مديرية من المديريات العامة، أضحت امــرأة مرذولة ساقطة؟ بالله عليك أجبني.. كيف لــي يا أستاذ مجابهة هذه العقول السخيفة؟ أو العيشــ معها وبينها؟ أجبتُها: «دعائم الصحة النفسية لدى الإنسان، أي المقوّمات التي تؤدّي بها روح الإنســان وظيفتَهــا، لا تتعدّى ثلاثةَ أمــور، هي: (التفكير والشعــور والإرادة)، فالإنسان كائن يفكّر ويشعر ويريد، ولا يخرج أيُّ نشاط نفساني لديه عن نطاق هذه الدوائر الثلاث، يبدو أنّ هذه المفاهيم لم يتعرّف إليها أحدٌ من إخوتك بالقطع، إضافة لأمّك، بل هي من سَقَط المتاع بالنسبة لثقافتهم السطحية الخاوية.. ردّت: «إخوتي – تجاوزاً، مع أمي – تجاوزاً، لا يعرفون أيّ شيء عمّا ذكرته يا أستاذ، لم يفعّلوا واحداً من هذه الأمور بتاتاً، وإلّا لكانت علاقتنا العائلية بأجمل صورة، وأسعــد حال.. مــن هنا كيف تطالبنــي أنْ أرسم ظِلّ ابتسامــة على وجهي، والقلــب مُترعٌ بالأسى حتــى بــؤرة النّخاع»؟ مثل هذه الكلمــات المتأسّية كانت تكرّ على لسانهــا كشريط سينمائي، كنتُ بتفاعلي مع حكايتها، أتقرّى شهقات الوجع، وهو يُخرِج صديدَه مع خفقات الصدر، وبحّة الصوت، واعتمالات الرّوح.. قلتُ مطيّباً بعض الجروح الغائرة: «لكِ الله أولاً على حالك مع الأهل.. هنـاك في المديرية التفتي إلى عملك، فهو الأمل، لا تضيّعي أوقات الوظيفة في هَرْطقات لا تغني ولا تسمن، ولا تبْنــي لَبِنَةً واحدة في جدار الوطن الصامد، الذي تحــاول اليوم عصابات الإجرام والارتزاق، هدمَه وتدميرَه، بشراً فحجراً فشجراً.. اتّقي الله في إطفاء زرّ كهرباء لا ضرورة له، والتقليل قدر المستطــاع من هــدر مياه المديرية، فهناك مــن أبناء الوطن مَنْ هم في حاجــة ماسّة إلى قطرة

مـاء واحدة، والترشيد فـي استخدام أشياء المديرية ولوازمهـا وسخّاناتها الكهربائية، تلك التي يستخدمها حفنة من الموظفين المستهترين بغلي الشاي والقهوة، وتسخين الماء الملازم لتعاطي المتّـة «الإدمان»...». كانت تشنّف أذنيها، وهي تتلقّف بعقلها هذه الكلمات، التي ربما كانت غائبة عنهـا، أو لـم تكـن تحسب لعواقبها حسابـاً من قبل.. قاطعتنـي لتقول: «ولكن مـاذا أفعل مع نوع مـن البشر الفارغين، الذيـن يريدون هدر كرامة المرأة، وتضييعها فـي سراديب الحياة.. اسمع يـا أستـاذ هذه الحكاية التي حصلـت معي: منذ شهرين تعرّف إليّ شـاب ثلاثيني، وسيم، جسماً ولياقـة، لا بأس بمستـواه الفكري، يعمل مهندساً في دائرة حكوميـة، حالته المادية ممتازة، لديه شقّـة مفروشة اشتراها من حـرّ ماله، مؤثثة بأثاث فاخر، كلّ هذا جاء على لسانه... قبل انقضاء الشهريـن، جرّنا الحديث إلى قضية الزواج، وبناء أسـرة، كبقية خلق الله.. قلتُ له: «دعني أفكر فـي الأمر، في اللقاء القادم أعطيك الجواب».. وتشاء المصادفة الخيّرة أنْ ألتقي صديقة قديمة من أيام الثانوية، وفي أول زيارة لبيتها، وبالحوار المتبادل، عرفَتْ صديقتي «المهندسَ» المحتال وعائلته: (فهو يسكن قريباً من هنـا، لا يملك سوى شهادة الثانوية، متزوج من ابنة عمه «سهيانة»، لـه منها ولدان، قاطن عند أهلـه في غرفة يتيمة، يعمل في محلّ لبيـع الأثاث والمفروشات، تعود ملكيتـه لأحد أصدقائه).. قالت الضيفة «حزينة»: (في لقائنا الأول قال: «إنه عازب»، في الثاني: «سنتعـرف على بعضنا أكثر فأكثر، نترك هذا للأيام»، في الثالث، حاول أنْ يمسك يدي، تمنّعت، أبدى استياء من تمنّعي، لاحظت علائم انزعاج يتدلّى من عينيه جرّاء ذلك.. في المرة الرابعة.. الخامســة، كشف عن المضمر من شخصيته، الرجل يريـد أن يتسلى بأعراض البنات وشرفهنّ، وخمّـن حسـب فلسفته الغوغائية، «أنّ كلّ اللحم يُؤكل».. من ساعتهـا «حلقْتُ له» بالتعبير الدّارج، «قطعتُ له تذكرة لخطٍّ واحدٍ دونما عودة»، فقد اكتشفتُ لاحقاً من عدد من زميلاتي في العمل، أنه «زير نســاء»، فتركته بحاله ولحاله).. أخذتْ شهيقاً وزفيراً عميقين، أردفت: «أنا يا أستاذ متعبة مـن قمّة رأسي حتـى القدمين، في البيت وخارجـه.. أنا عاجزة عن إيجاد حـلّ منطقي لعلاقتي بأمـي، والأم دنيـا كما يُقال، وهـذه الدنيا ما تبرح تلطمني يمنة ويسرة، لمـاذا كلّ هذه القسوة يا أمـي؟! بصريـح العبارة ودونما مواربة، أنا امـرأة مطلقة، أعرفُ أنكَ يا أستـاذ لا تعرف.. ألهذا السبب تعاقبينني يا أماه؟ ألم يكن لكِ دور مهم في عمليتي الزواج والطلاق، مع أنه لي بنت وحيدة

منه، تعيش عنده اليوم ودائماً؟ ألمْ تقولي لي بعظمة لسانك: البخلُ أقبحُ صفة في الرجل؟ أخشى يا أمي أنْ يفوتني قطار العمر، وأذوي مثل وردة مقطوفة من عودها، عندها لن أسامحك! لا شيء يفرحني بهذه الحياة يا أستاذ، لم أعدْ أثق بجنس الرجال بتاتاً، عقلي لم يعد يجمّع، ما قولك في مــرارة حكايتي؟ أنا اليوم خائفة من الآتــي، كياني سفينة مضطربة وسط عاصفة بلْهاء.. جسدي الفتيّ يعاتبني «فأعزب دهر، ولا أرمل شهر»، كما يقولون، ينظر إليّ بتحدّ غريب، وانزعاج أغرب، وأنــا صائنتُــه ما دمــت حيّة.. مرآتي هي الأخــرى توبّخني، تسفّهني كلما نظــرتُ في وجهي، تملأ زجاجَهــا استنكاراً واستهجانــاً، تتجاهلني في كثير من الأحيان، وهي تــرى وجهي يذوي يوماً إثر يوم... بتمعّن نظرتُ الوجهَ الجميل، لم يكن وجهاً مقعّراً ولا مُحدّباً، كان وجهاً طفولياً على الرغم مــن تأسّيه البادِي، هكــذا رأيته، أو هكذا خُيّل إليّ.. لم أكمل هــذا المونولوج الذاتي، حتى رأيتُها تتطــاول بجسدها، تلملم حقيبتها النسائيــة ومفاتيحها و«الموبايل»، الذي كان يتربّع على الطاولة الكبيــرة الفاصلة بيننــا، يتسمّع إلى حديثنا صامتــاً، لتقول بأسىً: «لن أتأخر عن البيت أكثر، فقد مضــى على مجيئي ما يقــارب الساعة، فصراخ أمــي ينتظرني، وأنا لا أريــد أن أفوّت عليها نعمة الســبّ ونوبات النرفزة المعتــادة، فكلّ هذا يثلج صدرها، ويفرح روحهــا، وأنا أشفق على صحتها النفسيــة مــن كلّ خدش أو عطب، لأنني أريدها فرحة».. مودّعاً تطاولتُ بجسدي، دون أنْ تصافح يدُها يدي.. في زحمة الأفكار واضطرابها، لم تسألني عن الكتاب الذي جاءت من أجل استعارته، وأنــا بدوري نسيتُــه تماماً... بعد مغادرتها المــكان، قلت في سرّي: مَنِ الذي أعــارَ كتاباً للآخر؟ أليســت قصتها كتاباً مفتوحاً للحياة، وعن الحيــاة؟ ألم تعمل حكايتها الإنسانية على كبْت وتبريد حالة الاهتيــاج والتأهّب لديّ كرجل شرقيّ؟ ألم يمنحني «كتابها الخاص» وحكايتها «الرواية» قوةً إضافيةً لأبقى هناك متسامياً متربّعاً على جبل النّقاء، كما هي سيرتي الذاتية في الحياة؟!

❁ ❁ ❁

غربة الأحلام

وفاء حمود

كانت ترفرف على أجنحة الأمل عند سفرها إلى بلاد النور والحرية، بعد أن ابتسمت لها الدنيا لتحقّق حلم الارتقاء بعلمها، عسى أن تتعرف إلى بعض من غموض الحياة، أدهشتها هذه البلاد برقيها وجمالها، مرّت الأيام بهجةً وأملاً منعشاً، وفجأة بدأت غصة تجتاح قلبها الندي، هاجمتها الوحدة بريح عاصفة بالمرارة والوحشة! غمرها خواء، لم تعد قادرة على تجاهله! ترى ماذا حلّ بها؟ ما هذا البركان من الحنين إلى أدق تفاصيل حياتها في بلدها؟ ما أحلى الصباحات هناك حيث يزور شرفتها الحمام، فتطعمه وتسقيه بفرح!

انتزعها من وحشتها صوتٌ بلغة بلدها، فكأن إكسير الحياة أحيا روحها، يسألها: هل تحتاجين إلى مساعدة؟ فقد شاهدها تحمل حقيبتين تتعثر بهما، فانفرجت أسارير وجهها، وقالت: شكراً لك! هل يمكن أن تساعدني في حمل إحدى هاتين الحقيبتين؟ وبكلّ حماس انتشل الحقيبة وحملها.

وفي الطريق إلى سكنها الجامعي بدأ التعارف بينهما، وشعرت عندها بدفء وسلام، يسريان في وجدانها، فانزاح التوتر عنها، حين سمعته يخبرها ببعض من تفاصيل حياته! ثم قال لها بكل

صدق وشهامة الشرقي: لك أخ في هذه البلاد يمكنك الاعتماد عليه، وبدأت اللقاءات في استراحة السكن، لتبثه همومها، وليصغي إليها بكل حنو وطيبة، إلى درجة باحت له بمكنونات قلبها وحدثته عن رجل احتوته بكامل قلبها، وسافرت معه في عالم ممتع من الخيال، وبدأت تخطط معه لبناء أسرة يغمرها الألفة، وقد أقنعها بطيب كلامه وصدق كفاحه بأن هذا الحلم سيصبح حقيقة.

وفي يوم شؤم ذهبت واللهفة تسبقها إلى الموعد المعتاد بينهما، انتظرته دون جدوى، مباشرة اتصلت به لم يجب، اتصلت بأصدقائه فأخبروها أنهم لم يلتقوا به اليوم، زاغت روحها وانتفضت الأسئلة داخلها، فعرضت عليها إحدى صديقاتها أن تساعدها، فاتصلت بأهله، وفعلاً جاءت لها بالخبر الذي زلزل كيانها، كان يعد العدة للسفر منذ مُدَّة طويلة، فولّى هارباً خارج البلاد، بكت وانهارت، شعرت كم هي غبية! كيف لم تنتبه أو تلاحظ شيئاً عليه كل هذه الفترة؟ فانكفأت تجلد ذاتها تارة وأخرى تهدِّئها، وقررت تسميته الهارب من الصدق، انتشلها من أحزانها، خبر قبولها بمنحة للدراسة في بلد النور، فبدأت تلملم جراحها، وتفتح أبوابها لرياح أمل جديد.

بعد أن سردت له قصتها، أطرق رأسه مفكراً، وقال لها: أكيد لم يبق من ذكراه عندك إلا الاحتقار؟ فابتسمت بحزن قائلة: لماذا الخيانة؟ هل أغرته طيبتي بفعلته؟ أخذ يحلل بكل هدوء شخصية هذا الهارب من الصدق والإخلاص، وأوضح لها عدم نضجه واضطراب نفسه المشوشة التي لا تعرف ماتريد، وقال لها: افرحي لأنك تحررت من وباء قد يسمّم حياتك، فأمثاله لا يمكن أن يعطوا الأمان، على العكس فطيبتك هي التي سارعت في كشف أوراقه، وأظهرت بشاعة طَويَّته، إنَّ ما تحصلين عليه في هذه البلاد هو الذي سيكشف لك كنزك المخفي، فأنت من الواضح تجاوزت مرارة التجربة، وكل من يعرفك ويمتلك الشفافية والإحساس المرهف لن يفرط بك، قالها بكل رقة وعذوبة.

عندما عرفت داءها ودواءها، صارت تصغي لكل همسة من حولها، عسى أن تطرب بسماع لغة بلدها، فرقص قلبها فرحاً، عندما وضع القدر أمامها صَبِيَّةً توحي بطيب النفس، وجميل الكلام، يوحي لباسها بالتَّديُّن، وتبادلتا المحبة بكل جمالها. لكن في أثناء جلسة صفاء بينهما قالت لها: إنك تكلمين رجلاً غريباً عنك وهذا حرام! فأجابتها مستغربة: لكن الحرام من يعمل حراماً!!!! فقالت لها: إنه ليس مسلماً فأجابتها بكل براءة هو حرٌ أن يعتنق ما يشاء. يهمني أنه يتعامل معي بكل

نبل، فامتقع وجهها وأبدت سخطها وهبَّت واقفة تريد الذهاب متذرعة بأن لديها موعداً، فتركتها على حريتها تذهب بطيب خاطر، واعتقدت أن الخلاف في الرأي لن يفسد للود بينهما قضية، بعد فترة قررت دعوتها إلى مشاركتها طعام الغداء، لكنها دهشت عندما اعتذرت منها بحجج واهية، أرادت تجاهل الأمر ملتمسة لها الأعذار، فقد عرفت معها كثيراً من الطيبة والمواقف النبيلة، فقالت في نفسها: لا بأس سأطلب منها أمراً هي أقدر مني على معرفته بحكم قِدَمها في المكان، فاتصلت وطلبت مساعدتها في استلام بريد قادم لها من دمشق والمطلوب من هذه الصديقة الاتصال بالبريد فحسب، وإخبارهم بالعنوان الجديد لها، انتظرت مُدَّة لتعرف الجواب، فكأن الأمر يحتاج كل هذا التفكير الطويل!! فقالت لها صديقتها: أنا مشغولة جداً وبصراحة أنت لا تفكرين في مصلحة بلدك ولا تشاركيننا في المظاهرات!!! أنت مع المعسكر الآخر الذي سبب الخراب والذي لا يرغب في إعلاء كلمة الدين، لا تشرفني صداقتك، أنت تجالسين الرجال الغرباء من دون حياء، لم تصدق ما سمعته، ارتجفت يدها وهي تكتب على جوالها، فأغلقته وقد اجتاحت نفسَها سحابةُ حزنٍ صفعت قلبها، وأدمعت عينيها، تنبهت لصوت في أعماقها يقول لها تشجعي، إن ما تسميه صداقة لا مكان له في عالم المصالح، وخاطبت نفسها بكلمات خرجت من فمها وعقلها دون أن تقنع قلبها... لن تكون آخر التجارب المؤلمة، لها دينها ولي ديني.

خرجت من غرفتها تجر خيبتها تستنشق هواء نظيفاً يعيد لها توازنها، مشت مسافات طويلة دون أن تدري، وعادت والغصّة تكاد تخنقها فتجسد أمامها من توسّمت فيه كل الخير، فألح عليها أن تقول ما بها، هنا هدأت نفسها قليلاً واستجمعت شتاتها، وقالت: الآن أنا غير قادرة على الكلام، غداً سأخبرك بكل ما حصل معي، الآن يصعب علي ذلك، وفي الغد قالت له: كنت أعاني من شوق إلى أهلي ومعارفي واستنزفتني قسوة الحنين والشوق لأكون في أحضان بلدي، فهدأها قائلاً: كلنا تكوي قلوبنا الغربة، ليس أمامنا إلّا التجمل بالصبر، وأصرّ عليها أن تطلب ما تشاء فقالت له أعرف مدى انشغالك، فاستحلفها بكل غالٍ فطلبت منه ما طلبته من صديقتها فضحك قائلاً: ما هذا الطلب السخيف، أنا أعرف أمورَ البريد أكثر منك، ولا يهمك.

بقيت الغصة في حلقها، فهي بحاجة لصداقة تطفئ بعض حنينها لأهلها، فالفراغ الذي اجتاح روحها بعد خيبتها المريرة بصديقة كانت بلسماً لجراحها، لكن أين هو ذلك الشهم الذي منحها

وجهاً مشرقاً للحياة؟ لقد اضطر إلى ترك المكان، والذهاب إلى أهله، وقد أخبرها بذلك والحزن يطوف في عينيه، وكان لا بدّ من فراق إنسان جعل الغربة أكثر احتمالاً.

انتظرت خبراً جميلاً، ينقلها إلى حلمها بمزيد من العلم والمعرفة، فزف لها الخبر الجميل، وانطلقت إلى جامعتها الجديدة والأمل يزغرد في أعماقها، وصلت إلى سكنها الجديد، وإذ بشخص يقف أمامها في حافلة الركاب. لم تصدق ما تراه، أيعقل ذلك؟؟؟ تسارعت نبضات قلبها، وكادت تقع مغشياً عليها، عقدت الدهشة لسانها، هذا هو الهارب من الصدق والمحبة، فماذا هي فاعلة؟

❁ ❁ ❁

موتي الأخير

وليد شعيب

المرة الأخيرة التي متُّ فيها، كانت مختلفة..! فقد مات فيها جسدي أيضاً!

كنت في أمسية عامة، دارت فيها حوارات مختلفة. احتدم النقاش بيني وبين أحدهم، ويبدو أن كلامي أغضبه قليلا! رغم أنه رجل طيب، لكنه عصبي، تخنقه الحرية وتقتله الجرأة في الرأي، فما كان منه إلّا أن سحب مسدسه الذي يعتزّ به! ولا يفارق خصره، وأطلق النار، فأصابني في صدري!

أُسعِفْتُ إلى المشفى، ونُقِلْتُ إلى غرفة العمليات على الفور، وسمعت الأطباء يقولون:

- لابدّ من العملية بسرعة، يبدو أن الرصاصة استقرّت في القلب.

وبعد أن حقنوني بإبر التخدير، شعرت بالنعاس، وأحسست بالمشرط يشق لحمي. لكن بقيت أسمع أحاديث الفريق الطبي، لم يزعجني اجترارهم للقضايا السخيفة...! كالأكل والشراب واللباس وتعليم الأولاد...إلخ! بقدر ما أزعجني صوت جهاز تخطيط القلب: بب.. بب.. بب!. وكم شعرت بالراحة، عندما حرَّكوا القلب قليلاً، وكان ذلك أشبه براحة المتجشئ، بعد غداء ثقيل من الفاصولياء اليابسة.

العمل الفني: الفنان ناصر نزين الدين.



كانوا يعملـون بسرعة لانتزاع الرصاصة، وفجـأة، توقـف صـوت دقـات القلـب، فارتحـت..! وسرعـان مـا سمعـت صفيراً متصـلاً مزعجـاً: طـوووووط «تمنيـت لو بقيت علـى صوت بب.. بـب..!» ثم سمعت الطبيب الجـرَّاح يصرخ: صدمة كهربائية! صدمـة كهربائيـة! شعرت بعدهـا برعشة قويـة، لكنهـا لـم تزعجنـي، فقـد اعتدت علـى صدمـات كهربائية أقوى، فـي أماكن أخرى! لكن القلب أبى أن يعمل ثانية «عنيد كصاحبـه» تخيّلـت أن يجربـوا «الـدولاب مثلاً!» إلا أنهـم صدموني عدة مرات « فلم أشتغل!» فصدمتهم ومت!. وسمعت الجرَّاح يزفر قائلا:

- «الله يرحمـه!». كذلك سمعت عبارات الفريـق الطبي الآسفة، فكنت مـا أزال شابا، وتليق بي الحياة..!. أخاطوني «ع الماشي» فلا خوف من «فرفطة القطب»، وأمَرَ الجراح قائلا:

- إلى البرّاد، ولا تنسوا تسليم الرصاصة إلى قسم الأدلة الجنائية«بكرا بيعملوها قنبلة.!».

سمعت وقع أقدامه خارجاً. كنت أحسّ بكل شيء، إنما لا أستطيع الكلام!

أُدخلـت إلى البراد، وأدركـت أني سأموت من البرد، لكن، لسوء الحـظ «فطست» من الحر لأن الكهرباء - على ما أظن - كانت مقطوعة! فأمضيت ليلة لا أتمناها لبائع غازززز!. شعرت بالعطش الشديد، فاشتهيت كأساً من عصير المانغا البارد، لم أتذوّق مثله في حياتي!

عندمـا سمعـت صوت فتح باب البـراد، شعرت بنسمة لطيفة، فقلت فـي نفسي: طلع الصباح، فُرجـت..! تعـاون الأصدقـاء - على ما أظـن - ووضعوني فـي صندوق الخشب، ثـم في صندوق السيـارة، وسـاروا بي باتجاه صالة النساء اللواتي سيلقين علي نظرة الوداع الأخيرة، قبل أن أُنقَل

إلــى «مدرَّج الرجال» حيث سيقــام الاحتفال على شرفي! أقصد على روحي!. هكذا الطقوس، فأنا أعرفهــا تماما، وكنــت أشارك فيها كثيراً. وفــي أثناء الطريق، سمعت صــوت الميكروفون يجوب الشوارع معلناً وفاتي. انزعجت من زعيقه.. ومن عدم تنفيذ وصيتي، بعدم استخدامه، واستخدام وسيلــة أخــرى إذا كان لابد مــن ذلك، وتخيلــت آلاف الأطفال، الذين سيستيقظــون هلعين، لدى سماعهــم نعيــق الموت اليومــي، مذكِّراً بالمدرســة «هيا إلــى المدرسة»! ولكن فــي الوقت نفسه اعترتني قشعريرة، فحزنت عليّ!

آلمنــي عويــل النساء عندما مُدّدتُ بينهــن، لا ريب أنّه من الممتع للمــرء التمدد وسط بحر من النساء..! إنما وهو حي ويجيد السباحة! فقد ذرفن علي دموعا كثيرة، وشعرت بحزنهن الصادق، فلم أسمع ثرثراتهن المعتادة، فقد كنت شاباً محترماً ويؤسف عليّ!

فــي الموعد المحدد، جاء الرجال وانتزعوني من بينهــن. ويشهد الله إنها المرة الوحيدة، التي سررت فيها لفراقهن... حُملت على أكف الرجال، وساروا بي باتجاه المدرج، وكان بينهم أصدقاء عرفتهم من بكائهم، وسمعت أحدهم يهمس:

– « شوف حظه شو حلو امبارح دينته ٢٠٠٠ ليرة..!».

شعــرت أننا وصلنا إلى المدرّج، لأني لم أعد أهتز، حتما وضعت على مصطبة الصلاة! المكان الذي لن يزاحمني عليه أحد!

تخيّلــت نفسي واقفاً قرب بعض الأصدقاء، الذيــن اعتدت، أحيانا، أن أُضَحِّكهم في بعض تلك المواقــف. فكانوا يتجنّبون النظر إلــيّ أو سماع تعليقاتي، وتخيلت أنهــم تذكروا ذلك، فابتسموا. بــدأ الاحتفــال، وأُلقيت الكلمات التي أشادت بمناقبي، كان بعضهــا مبالغاً فيها، وأكثرها كاذبة.. أصابت الكثيرين بالملل، وقد أدركت ذلك من كثرة «النحنحة والقحقحة والبسبسة» مما أزعجني وأحرجني.. بصراحة.. لم يعجبني موتي..!

وأخيــراً، أقيمــت الصلاة على روحــي، وانتهت القصــة فتراكض الرجال لحملــي، وأخذي إلى المدافــن. آنئذٍ، أحسست بالاكتئاب.. لأني كنت أكره تلك الغــرف البيتونية الصغيرة، المنتصبة بــكل وقاحة فــوق الأرض، المظلمــة، الحقيرة، سيئة التهويــة! التي يشتهي الميــت فيها التراب.. ويركــن فيهــا إلى جانبي زملاءٌ موتى سابقون، ويقدِّد «كالبسطرمــا»! وربما يلتقي بأموات لم يكن يستلطفهم وهم أحياء!

أمضيت فيها أربعين يوماً «مثل قرط الصوان» بعدها، انعتقت منها كما ينعتق طائر حبيس في غرفة مغلقة، فُتحت له، فجأة، كوة باتجاه السماء.

استحلت شعاعاً، في فضاء واسع رحبٍ، شعاعاً لا بداية له ولا نهاية. له حرية الانبثاق.. في أي اتجاه، في أي مكان، وفي أي زمان.

وبعد مدة، خطر لي ملامسة الأرض، والاطمئنان على وطني وأسرتي:

- لامست رأس زوجتي الأولى، فأحسست بحزنها، وبهمها، وبقلقها على الأولاد ومستقبلهم...

- لامست رأس زوجتي الثانية، فأحسست ببقايا حزنها، وبقلقها حول حصّتها من الميراث!؟ وحول حصر الإرث!؟ وهل يمكنها الزواج قبل ذلك..!؟

- لامست رأس زوجتي الصغيرة، فلامست معه رأس عشيقها الشاب.

- لامست رأس ابني الكبير، فأحسست بحزنه، فسوف يترك دراسته الجامعية، ويسافر ليعمل ويعيل إخوته، ويسدد الديون التي أورثتهم إياها.

- لامست رأس ابني الصغير، فأحسست برائحة خفيفة لبقايا حزنه، ولكني لامست معه رأس فتاة، وشعرت أنه يخطط لاصطياد فتاة أخرى!

- لامست رأس ابنتي الكبيرة فأحسست بحزنها، وشعرت بهمها، وبتصميمها على الوقوف إلى جانب أمها، والتفتيش عن عمل بعد أن تركت خطيبها الذي لم يقدِّر ظرفها.

- لامست رأس ابنتي الصغيرة، فأحسست بأثر لبقايا حزنها، وشعرت بفرحها العارم وهي تخطط للزواج من الشاب الغني «الصايع» الذي كنت قد رفضت أن يكون عريساً لها.

- لامست رأس الرجل س، فأحسست بحبه للأذى وللوصول إلى أي منصب على حساب أغلى شيء لديه.

- لامست رأس الرجل ف فأحسست بقلقه من أجل تأمين رغيف الخبز، وشعرت بسذاجته، فأشفقت عليه، فما زال ينتظر أن يأتيه العدل وتأتيه الحرية، ويدقان عليه الباب.. إن لم يكن في الدنيا ففي الآخرة...

- لامست رأس الرجل ح، فسمعت: وششششششش...

- لامست رأس الشاب م، فأحسست بعنفوانه، وبآماله، وبرغبته في تغيير العالم بعزم وإصرار، وبقوة الشباب..

تركت الأرض، وانطلقت باتجاه فضاءات وكواكب أخرى، التقيت ملايين الأشعة التي تسبح بحرية ومتعة وصفاء، عرفت بعضاً منها، وتعرفت على بعضها الآخر، والتقيت أحبةً سبقوني منذ زمن بعيد.

وصرت أتوجه صوب الأرض بين الحين والآخر، لأطمئن على أحبائي، فكنت أخترق رؤوسهم، فأمر، حينها، في ذاكرتهم كومضة برق، أو أَعْبُرُ أحلامهم كنسمة صيف، فأشعر بهمومهم التي لا تتغير: الأكل والشراب واللباس والعدل والحرية..، فتحزنني عيشتهم، وتضحكني أحلامهم!!

❁ ❁ ❁

الشهيد علاء

يونس محمود يونس



منذ أن تحركت السيارة بمجموعة الاقتحام الذين تطوّعوا من تلقاء أنفسهم للقيام بمهمة جديدة تحت إمرة قائدهم المعروف بنبله وشجاعته، وعلاء يرى أمه تجري خلف السيارة وسط الغبار المتطاير من تحت عجلاتها التي تدور.

ابتسمَ لهذه الرؤيا جرياً وراء عادته حين يفاجأ بأمر يعجز عن فهمه أو تفسيره، وحين تحوَّلت ابتسامته إلى ضحكة مثيرة للاستغراب. لكزه زميله محمد، ثم أعقب لكزته بسؤال: ما بك يا علاء؟ ما الذي يضحكك؟

لم يرد علاء على سؤال رفيقه محمد.. إلا أنه عاد ليبتسم لأمه التي ظل يراها

العمل الفني: الفنان مطيع علي.

خلف السيارة المسرعة، ولولا اقتناعه بأنّ أمه التي يراها ليست حقيقية - لأنها ميتة منذ سنوات عدة- لما استطاع أن يبتسم، وربما لم يمنعه الواجب من القفز من السيارة ليوقفها ويضمها.. لأنّ الطريق كان ترابياً موحشاً، والأرض قاحلة. رمادية. صفراء، وكانت السيارة المكشوفة ترتج عند كل انخفاض وارتفاع مثيرة الغبار من تحت عجلاتها التي تدور وتدور..

وبقيت ابتسامته عالقة بوجهه. حيث حمله خياله إلى البيت الذي عاش فيه، وإلى حنان كان موجوداً في كل أرجائه.. في الأسرّة.. في المقاعد.. في الزوايا.. في أواني المطبخ.. في وجه والده، ووجه شقيقه، ووجه شقيقته.. إلى أن جاء ذلك اليوم المشؤوم ودفن جزءاً غالياً من ذاك الحنين في مقبرة العائلة إلى الأبد، ومنذ ذلك اليوم.. رأى بعينيه كيف كسر الدهر قلبه الغضّ، وما عاد بإمكانه أن يعود كما كان..

ابتسم بحزن وهو يقول لنفسه: «القلب لا ينكسر. لكنّ شيئاً ما يشبه الكسر يصيبه دائماً».

ثم تابع قائلاً: «ليتها ذهبت لرؤية أخي وأختي فهما بحاجة لها أيضاً».

كان الوقت لا يزال باكراً، والفجر رطب بارد كأنه غيمة بيضاء مثلجة عجزت الشمس عن إذابتها، وحتى الجبال والوديان كانت متداخلة ممتدة مثل كل متاهات هذا الوجود. أما المسلحون وما يُحكى عن استقدامهم من كل دول العالم، فكان يدخل أيضاً في سجل هذه المتاهات التي لا يستطيع المرء أن يتأخّر عن التعامل معها بالجدية الضرورية.

صوت آخر فاجأه بغتة.. «كن حذراً يا علاء. فأنا أعرف توقك لامتلاك ناصية الخلود، وأنت تعرف أنّ كأساً واحدة توقظني من الموت لأرتشف من آلام هذه الحياة ما يكفيني ليوم جديد.. فلا تجعلها كأسين أو ثلاثة»..

ضحك علاء وهو يتذكر كأس عمه التي تشبه غيمة الفجر الباردة.. لكنه لم يقل شيئاً. بل عاد ينظر إلى أمه التي رآها وقد تأخرت عن السيارة مسافة لا تقل عن مئتي خطوة.

فاجأه تأخرها كل هذه المسافة، ولم يعجبه أن يراها منهكة متعبة. فسقطت ابتسامته كما تسقط الورقة الصفراء من أعلى شجرة الحور وسط زوبعة من الغبار الكثيف، والأهم أنه تركها تسقط لتضيع وتضيع. فقد كان هناك وعلى مسافة ليست بعيدة وحوشٌ من نوع جديد، وما جاء مع رفاقه إلا لتنظيف الأرض - التي هي وطنه- من رجسهم..

إنــه القــدر بكل اتساعــه وغموضـه.. مضافاً إليــه إرادته الحرة التي فرضت عليــه أن يهب دمه مختاراً لتراب وطنه بغية الحفاظ عليه طاهراً.. كريماً.. عزيزاً.. كما يحب أن يراه، وكما يجب أن يكـون.. ليس من أجله فحسب، بل من أجل كل العاجزين.. أطفالاً، ونساء، وكباراً، وحتى من أجل كل العاجزين المتخاذلين.. لأنّ الله موجود، وهو من خلقهم، وهو الأولى بهم.

كان رفاقه يفكّرون ويتكلمون أيضاً. (دزّينة) كاملة من الشباب النخبة وصلوا قبل شروق الشمس إلــى مــكان لا يشبه أي مــكان عرفوه قبل الآن، ربما لأنــه كان مسكوناً بالخطر كمــا قال قائدهم. فغادروا السيارة بحذر، ثم انتشروا في المكان وفق توجيهات القائد الذي تقدمهم منذ البداية إلى أن بدأ الهجوم، ومنذ أن ضجّ المكان بأصوات القذائف، والرصاص الذي انهمر غزيراً من فوهات البنادق، أصبح لكل منهم تقدير الموقف الذي هو فيه.

المهم هو متابعة القتال حتى آخر رصاصة. فإما النصر، وإما الشهادة، وما كان علاء إلا واحداً من أولئك الشهداء الأبطال.

عندمــا أصيــب وسقط على الأرض. كانت أمه أوّل الواصلين إليــه. فرآها وهي تحتضنه، ورغم شــدة وتعاظم لهفتها خلال سنوات الفراق.. احتضنته برفق. حتــى إنّه أحس بأنفاسها، وامتلأت رئتاه برائحتها ما إن رفعت رأسه إلى صدرها، وإذ ذاك سقطت دمعتان من عينيه..

ثم بدأ فصل جديد. فقد سمعها تولول، وفي لحظة أخرى سمعها تزغرد وتغني..

(زفوا العريس يا أهله.. زفوا العريس.. شيلوا الحبيب لبيته.. شيلوا الحبيب).

فيمــا بعــد حضرت أصــوات كثيــرة. تداخلت وتناغمــت في مشهــد غريب. فها هــم أشبال الكشافــة بطبولهــم وأطباقهم النحاسيــة يتقدّمون موكباً مهيباً، ومن مكان مــا كانت تأتي إلى سمعه موسيقا جنائزية لطالما أحب سماعها، وها هي أشجار السنديان تظلل مئات الأشخاص الذين اجتمعوا ليودّعوا أحداً منهم.. إضافة إلى أصوات التكبير والزغاريد، وأصوات الرصاص المنطلق في الجو.

وها هي الشمس تشرق أخيراً.. أشرقت بخيوطها الحمراء الخجولة.. فأسلمها روحه وهو مستلقٍ حيث كان على ذلك التراب.

❁ ❁ ❁

مقدّمة تصيرُ خاتمة

د. ثائر زين الدين

إذن، فقد قرأتم نحو خمسين قصة قصيرة، وربّما لاحظتُم أن كتّابها ينتمون إلى أجيال مختلفة من المبدعين السوريين، فقد بدأ بعضهم الكتابة قبلَ ما لا يقلُّ عن خمسينَ عاماً.. وصولاً إلى بعض الأصوات الشابة التي قدّمت نصوصها الأولى خلال بضع من السنوات الماضية..

ولا بُدّ أنكم لاحظتم أيضاً هذا التنوّع اللافت في موضوعاتِ النصوصِ، وتقاناتها الفنيّة التي تتوزّعُ ما بين أساليب السرد التقليديّة المستندة بصورةٍ رئيسةٍ على مُحاكاةِ الواقع؛ الواقع المعيش خلال السنوات الست الماضية التي يطغى عليها شبح الحرب الرهيب، وينعكس ذلك على الشّخصيات المتنوّعة التي تتحرّك فيه مُتّسمَةً بسماتٍ نفسيّة واضحة إلى حدٍّ بعيد. وما بين أساليب السرد الحداثيّة والجديدة اللمّاحة التي تعتمدُ تفكيكَ مُعطياتِ ذلك الواقع.. وإعادة تركيبها مركّزةً اهتمامها الأقصى على الكتابةِ المبتكرة.

لقد بدا لي معظم كُتّابُ القصص التي قرأتموها أسرى حكايةِ الإنسان الفرد الذي طَوّحت بهِ الحياة ورمَتهُ بعيداً في حمأة العُزلة والانخلاع والخروج على / وعن مجتمعه على الرغم من فضاءات السردِ المتعدّدة التي قَدّمت مأساة الإنسان السوري بطريقةٍ ما..

نمـاذجُ قليلة جـداً مما بين أيدينا حاول أصـحابُها أن يقدّموا فيها رؤيـة جماعيّة اجتماعيّة على نحو ما، وليس حكايةَ الفرد المسحوق.. المهمّش.. الذي لا حول له ولا قوّة تارةً.. والـذي يُكافح أحيانـاً دون أن يحقق نتيجة.. تلك النماذج القليلـة (وأنا هنا لا أُقدّم حكم قيمة؛ بمقدار ما أوصّف) تعاملت مع مشروع القصة القصيرة من وجهة نظر الرواية؛ بمعنى أنهم أرادوا لقصصهم تلك أن تقدّم رؤى اجتماعيّة شاملة مستخلصة من واقع البلاد خلال المرحلة العصـيبة التي عاشـتها منذ سـت سـنين حتى يومنا هذا؛ رؤى ذات طابع تاريخي اجتماعي إلى حدٍّ بعيد..

إنَّ بعض قصـص هذا العدد مدهشـة؛ إنها تؤكد أن من واجب الفنان ألا يستسلم للموت؛ بل عليه أن يجدَ ترياقاً خاصّاً لفراغ الوجود.. عليه على الأقل أن يدقَّ مسماراً ذهبياً – لا يَصدأ ولا تؤثّر فيه عوامل الطبيعة – في نعش الزوال...

حين طَرحتُ مشـروع إصدار هذا العدد على صديقي القاص ناظم مهنّا رئيس التحرير رأيتُ للوهلة الأولى على ملامحه علائم التردّد، والخشـيةَ مما نحن مقدمون عليه.. ثُمّ ما لبثَ أن تحمّس للأمر وعَملَ عليه ونَشَـرَ إعلانات متعدّدة تدعو القصاصين السوريين إلى المشـاركة فيه. واليوم نرى أننا نجحنا إلى حدٍّ بعيد في تقديم صورة للمشهد القصصي في البـلاد في مرحلة تاريخيّة هي الأخطر والأصـعب منذ خَـرَجَ العثمانيون من بلادنا قبل مئة سنة من يومنا هذا..

إننا بما فعلناه نؤدي دور آلة التصوير، التي تثبّتُ الزمان والمكان في لقطاتها المتنوّعة.. لتتـركَ بين أيدي الناس وثيقةً بصـريّة عن حقبة معيّنة... إن وثيقتنـا هذه تقتربُ إلى حدٍّ ما من الشـموليّة.. ولكنّها لا تبلغها فهناك بعض الأصوات الجميلة والمهمّة قديمةً وجديدةً؛ شـابةً وكهلةً لم تسـهم معنا في رسم المشهد لسـبب أو لآخر.. لكن حسبنا أننا نضع بين أيدي محبّي الأدب.. محبّي القصـة القصيرة قُرّاءً ونقّاداً إضمامةً مهمّةً من إبداع كتّابنا في هذه المرحلة.

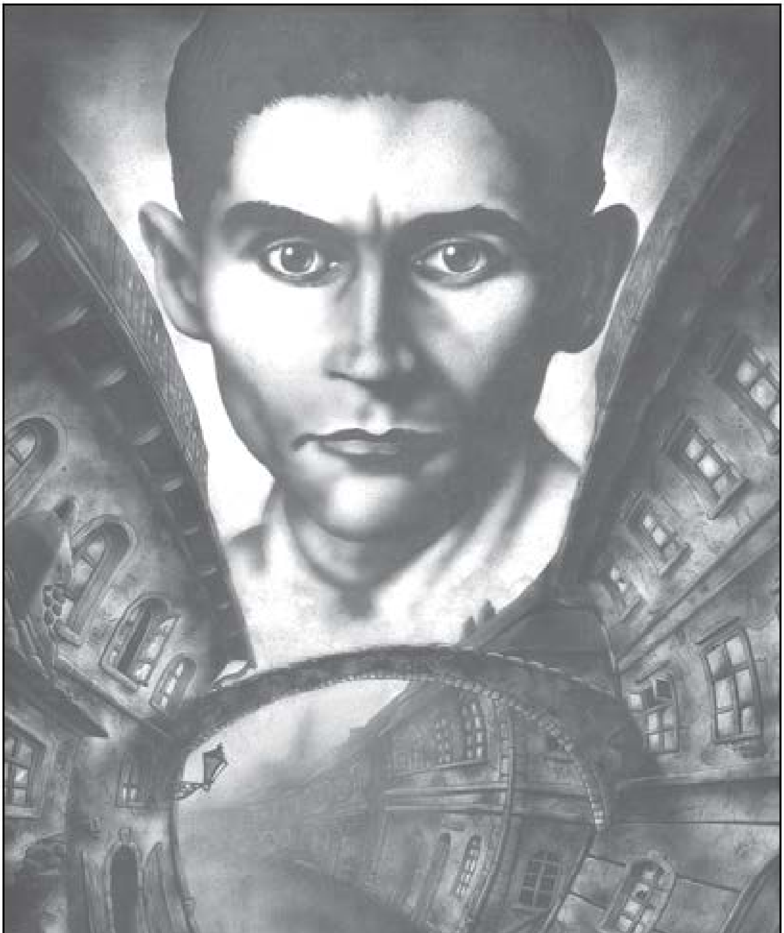
❀ ❀ ❀

كتاب المعرفة الشهري

/٢٢/

مستوطنة العقاب

فرانز كافكا



فرانز كافكا

مستوطنة العقاب

ترجمة: سعيد أحمد الحكيم

اختيار وتقديم: ناظم مهنا

رئيس مجلس الإدارة

محمد الأحمد

وزير الثقافة

المدير المسؤول

ثائر زين الدين

رئيس التحرير

ناظم مهنا

الإشراف الطباعي

أنس الحسن

التصميم والإخراج

ريما محمود

التدقيق اللغوي

أماني الذبيان

التنضيد

ابتسام عيسى

فرانز كافكا

(١٨٨٣-١٩٢٤م)

الكاتب التشيكي فرانز كافكا من كبار كتّاب الرواية والقصة في القرن العشرين، مؤسس لسلالة أدبية طبعت بطابعه، يطلق عليها نقّاد الرواية :الرواية الكابوسية . إلا أن كافكا لا يختصر بالكابوس فحسب فهو من أكثر الروائيين رمزية وسرانية، وأعماله من هذا الجانب تتسم بالتعقيد والصعوبة في كشف مغازيها ومراميها وقد حيرت المفسرين، ومع ذلك تحظى أعماله بجاذبية عند الأدباء وربما هو من أكثر الكتّاب تأثيراً على غيره . للفيلسوف الفرنسي روجيه غارودي رأي في أعمال كافكا فهو يرى أن التجربة الأساسية عنده تكمن في بحثه الدؤوب عن معنى الحياة، وفي سعيه للحصول على تصريح إقامة في الوجود .

والحقيقة لا يمكن فصل يهودية كافكا عن بنيته الرمزية، ولذلك ندعو إلى قراءته بحذر شديد أو بيقظة . وعن يهوديته يقول غارودي

أيضاً: كان كافكا يهودياً صميماً، ولكنه في الوقت نفسه يهودي مقطوع الصلة بالطائفة اليهودية، ويتسم نقده الموجه ضد الديانة اليهودية بالشراسة والعنف.

عبّر كافكا ببراعة عن الإنسان المذعور، الغريب عن عالمه والمزدرى من الآخرين، الإنسان الضحية، تتهدده المنظومات المتسلسلة التي تبدأ من أصغر سلطة (الأب) إلى أعلى سلطة في الأرض وفي السماء.

أمّا عن هذه القصة «مستوطنة العقاب» التي اخترناها لكافكا، ولها ترجمات عربية عديدة، اخترنا هذه الترجمة للأستاذ سعيد أحمد الحكيم نشرت في مجلة الأقلام العراقية - العدد التاسع السنة الرابعة عشرة عام (١٩٧٩م) وهو عدد خاص عن الأدب الصهيوني. ونحن هنا لا نبرّئ كافكا ولا نروّج له فهو روائي له قيمة أدبية لا يمكن إغفالها، وعالمه قائم على الرمز والتكثيف الإيحائي ومزج ما هو واقعي بما هو نفسي ونشدد على ضرورة قراءته بتنبه. ونذكر بأنه ابن بيئة يهودية وعاش في فترة نشاط الحركة الصهيونية وله مواقف متناقضة حول ذلك. من أشهر أعماله الروائية: المحاكمة، القلعة، المسخ، أمريكا.

***

مستوطنة العقاب

- جهاز رائع.

قـــال الضابط ذلك للباحـــث وقد تفحّص بنظرة إعجاب ذلك الجهاز الذي كان، مع كل ذلك، مألوفاً لديه تماماً.

بدا على الباحث أنّه قد قَبِل نتيجة لأدبه الجم دعوة من الحاكم العســكري لحضـــور عملية تنفيذ حكم الإعدام بجندي حُكِمَ عليه بذلك لعدم إطاعته الأوامر وســوء تصـــرفه مع رئيســـه، ثم إنَّ المســـتوطنة نفسها لم تعبأ بأمر هذا التنفيذ، أو على الأقل، لم يحضر في ذلك الوادي الرملي الصغير الذي يمثل تجويفاً عميقاً في داخل الأرض، تحيط به الصخور الجرداء الشـــامخة من جهاته كلها، أي شخص غير الضابط والباحث والمتهم الذي كان محلوقاً ذا سيماء بلهاء وفم واسع ووجه مرتبك يكسوه شعر أشعث.

كان الجندي يمســك السلســلة الثقيلة التي تضبط الأصفاد الصــغيرة المقفلة على كاحلي السجين ورسغيه ورقبته وقد اتصلت تلك الأصفاد بحلقات رابطة فيما بينها. ومع ذلك فقد بدا الســجين وكأنه كلب مخذول يخيَّل للمرء أنَّه من الممكن إطلاق ســراحه بين الجبال المحيطة حيث لا يحتاج الأمر لغير صافرة تدعوه إلى الحضور حينما يقترب موعد تنفيذ الحكم عليه.

لم يهتم الباحث بأمر الجهاز كثيراً فقد ســار خلف الســجين جيئة وذهاباً بلا مبالاة ظاهرة، بينما كان الضــابط منهمكاً بإجــراء التنظيمات الأخيرة على الجهاز، فهو يزحف أسفل الجهاز الذي ثبت عميقاً في الأرض تارة، ليتسلق إلى ما فوق السلّم يفحص الأقسام العليا منه تارة أخرى.

ربما كانت تلك الأعمال من اختصـــاص عامل ميكانيك إلا أن الضابط قد تحمس كثيراً للقيام بها مما يدل على أنه إما أن يكون مفرطاً في إعجابه بذلك الجهاز، أو أن أسباباً أخرى تجعل غيره ممن يقوم بهذا العمل شخصاً غير جدير بالثقة.

– كل شيء جاهز الآن!

قال الضـــابط ذلك ثم أخذ بالنزول من على الســـلّم فبدا مترهل الأعضاء رخواً على غير عادتـــه. كان فمه مفتوحاً وقد طوى منديلين، مما تســـتعمله النســـاء، تحت ياقة بدلته فقال الباحث بدلاً من أن يتساءل عن الجهاز كما توقع الضابط:

– هذه الملابس، بالتأكيد، أثقل من أن تستعمل في المناطق الاستوائية.

فأجابه الضـــابط وهو يغســـل يديه الملوثتين بالزيت والشحم في وعاء من الماء معدّاً لهذه الغاية.

– بالطبع، غير أنها تعني الوطن بالنســـبة لنا. نحن لا نريد أن ننســـى كل ما له صـــلة بالوطن، والآن، انظر إلى هذه الماكنة.

ثم أضاف على عجل وهو يجفف يديه بمنشفة ويشير إلى الجهاز في الوقت نفسه:

– يجب أن يتم كل شيء بوساطة اليد حتى الآن، لكنها سوف تبدأ عملها من هذه اللحظة بصورة تلقائية.

أومأ الباحث برأســـه ثم تابعه، نظراً إلى أن الضـــابط كان يرغب في ضمان عدم حدوث أي أمور طارئة قال:

– بالطبع، يمكن أن يحدث خطأ في بعض الأحيان وكل ما أرجوه أن لا يحدث شيء في هذا اليوم، ومع ذلك ينبغي علينا توقع شتى الاحتمالات. يجب أن يواصل الجهاز عمله دون انقطاع مدة اثنتي عشرة ساعة متوالية، أما إذا حدث ما يؤكد وجود أي خلل فسيكون أمره بسيطاً ومن الممكن إصلاحه في الحال –ألا تريد الجلوس؟

قال الضـــابط ذلك أخيراً وهو يســـحب كرسياً من القصـــب اختاره من مجموعة كراسٍ أخرى وقدّمه إلى الباحث الذي لم يستطع رفضه.

الباحث يجلس الآن على حافة قبر كان يجول ببصـــره في داخله للحظة عابرة. لم يكن القبر عميقاً فعلى جهة منه تكوّم التراب الذي أزيل منه على شـــكل حاجز أو متراس بينما انتصب الجهاز شامخاً في جهته الأخرى- وبعد ذلك قال الضابط معقباً:

- لســـت أدري ما إذا كان الحاكم العسكري قد شرح لك طبيعة هذا الجهاز. وعند ذاك أشار الباحث بيده إشارة غامضة، فلم يسأله الضابط أي سؤال آخر أفضل مما سأل لأنه الآن بصدد شرح عمل الجهاز بنفسه فقال وهو يستند على مقبض ذراع دوّار:

- اخترع الحاكم السابق هذا الجهاز وقد ساعدته في إجراء التجارب الأولى عليه. كانت لي حصـــة في ذلك العمل حتى الانتهاء منه، ومع ذلك فإن براءة الاختراع تعود إلى الحاكم وحده. بالمناســـبة، هل سمعت شـــيئاً عن حاكمنا السابق؟ حســـن، ليس كثيراً أن أخبرك أن تنظيم أمور مســـتوطنة العقاب جميعها يعود إليه فحســـب، وكنا، نحن أصدقاءه، ندرك حتى قبيل وفاته أنَّ تنظيم هذه المستوطنة من الكمال بحيث إن خلفه، وإن كان يحمل آلاف المشـــاريع في ذهنه ســـيرى من الصعب القيام بأي تغيير ممكن، على الأقل لسنوات طويلة قادمة وقد تحققت نبوءتنا لأن الحاكم العســـكري الحالي اضـــطر للاعتراف بهذه الحقيقة، ومن المؤسف حقاً أنك لم تحظ بمقابلة الحاكم السابق.

وأراني أبالغ في القول مع أن جهازه هذا ينتصب أمامنا في هذا المكان. إنه يتألف، كما ترى من ثلاثة أقســـام وقد أصـــبح لكل قسم منه لقب محبب خاص به بمرور الوقت فالقسم الأسفل منه يسمى «المضجع» والقسم الأعلى يسمى «المنظم» بينما يسمى القسم الأوسط الذي يتحرك إلى الأعلى والأسفل بـ«المسلفة».

ســـأل الباحث لأنه لَمْ يكن يصـــغي جيداً بسبب أشعة الشـــمس القوية في ذلك الوادي الأجرد، تلك الأشعة التي لا يمكن للمرء فيها أن يجمع شتات أفكاره. فقد استحوذ الضابط على إعجاب الباحث، الضـــباط الذي كان على الرغم من ســـترته الرسمية الأنيقة بجدائلها والمثقلة بأشرطتها، يتابع حديثه بحماسة بالغة والذي استمر في أثناء حديثه يشد على هذا اللولب أو ذاك بمفتاح خاص.

أمّا الجندي فقد كان في حال تشـــابه حال الباحث تماماً. أحكم مغالق الأصـــفاد حول رسغي السجين واستند ثابتاً على بندقيته مرفوع الرأس لا يأبه بما كان يجري حوله.

لم يكن ذلك مما يثير دهشة الباحث لأن الضابط كان يتكلم اللغة الفرنسية التي لم يفهم كل من الجندي والسجين أي كلمة منها بالتأكيد، وبات من الواضح، على هذا الأساس، أنَّ السجين قد بذل مع كل ذلك، جهداً في متابعة الإيضاحات التي أبداها الضابط فهو قد حوّل نظراته بإصرار يشوبه النعاس إلى كل جهة أشار إليها الضابط وهو أيضاً، حينما قوطع سؤال الباحث التفت كما التفت الضابط نفسه.

- نعم، المسلفة، اسم جميل لأن الإبر قد ثبتت فيها كأنها أسنان مسلفة الزرع ثم أنّها تعمل كما تعمل المسلفة على الرغم من أنها قد حددت للعمل في مكان واحد وصممت للعمل بكفاءة فنية عالية سوف تفهمها على أي حال.

يوضع المتهم أولاً على هذا المضجع، وسوف أصف لك الجهاز قبل تشغيله ليتهيأ لك متابعة الإجراءات على نحو أفضل. وإضافة إلى كل ذلك فقد استهلك أحد الدواليب المسننة في «المنظم» تماماً ولذا فقد أخذ يصر صريراً عالياً خلال العمل لدرجة لا تستطيع أن تسمع حديثك بنفسك، كما أن الأدوات الاحتياطية جميعها يصعب توافرها هنا لسوء الحظ. حسن، هذا هو المضجع كما أخبرتك وقد غطي بطبقة من القطن والصوف وسوف تعرف السبب فيما بعد. يوضع المتهم على الطبقة وهي مزيج من الصوف والقطن، عارياً تماماً ووجهه إلى الأسفل طبعاً، وهناك أحزمة لربط الأيدي والأرجل والرقبة لكي تشده شداً محكماً. وعلى رأس الفراش هنا، حيث يضع الرجل رأسه كما أخبرتك، توجد كمامة صغيرة من اللباد يمكن توجيهها بسهولة من أجل أن تدخل في فمه حتى تمنعه من الصراخ أو قضم لسانه. وبالطبع، فإن الرجل يجبر على وضع قطعة اللباد في فمه وإلّا فالحزام الذي يشد رأسه لا بدّ سيكسر رقبته.

وعند ذاك سأل الباحث وهو ينحني إلى الأمام:

- هل هو مزيج من الصوف والقطن؟

- بالتأكيد المسه بنفسك.

قال الضابط ذلك وهو يبتسم ثم أخذ يد الباحث وحركها فوق الفراش قائلاً:

- قد صنع ذلك بصورة خاصة ولذا تراه يختلف تماماً، ثم إنني سوف أخبرك الآن عن الغرض الذي يستعمل من أجله.

أظهر الباحث اهتماماً ظاهراً بهذا الجهاز، ثم وضع إحدى يديه فوق عينيه ليقيهما أشعة الشمس وألقى نظرة فاحصة عليه- كان عملاً فذاً بدا فيه المضجع والمنظم وكأنهما صندوقان خشبيان معتمان لهما الحجم نفسه. كان المنظم معلقاً على علو مترين من المضجع وقد ثبّت كل منهما في الزوايا بأربعة أعمدة من البرونز توشك أن تشع فيها حزم من الضوء في أشعة الشمس وقد تحركت المسلفة جيئة وذهاباً تحت ذينك الصندوقين على شريط من الفولاذ. بات من الصعب على الضابط ملاحظة عدم اهتمام الباحث في بادئ الأمر، أمّا الآن فقد شعر باهتمامه الظاهر كثيراً، ولذا فقد توقف عن القيام بالإيضاح لكي يترك له متسعاً من الوقت في مراقبة كل شيء بنفسه أمّا المتهم فقد قلّد الباحث في ذلك، ونظراً إلى أنه لم يستطع تحريك يده ليحمي بها عينيه من وهج الشمس فقد اكتفى بتركيز نظراته إلى الأعلى.

قال الباحث وهو يسند ظهره على الكرسي بعد أن عقد ساقيه:

- حسن، يضطجع الرجل في الأسفل.

- نعم.

أجابه الضابط وقد دفع قبعته قليلاً ومرر إحدى يديه على وجهه الذي لفحته حرارة الشمس.

- والآن، أرجو أن تصغي إليّ. إن كلا القسمين، المضجع والمنظم يحتوي على بطارية كهربائية، فالمضجع يحتاج إلى تلك البطارية لنفسه، أمّا المنظم فيحتاجها من أجل المسلفة، وحالما يحكم وثاق الرجل في الأسفل يبتدئ تشغيل المضجع فيهتز في خلال دقيقة اهتزازاً عنيفاً من جهة إلى أخرى ومن الأعلى إلى الأسفل. إن بإمكانك مشاهدة مثل هذا الجهاز في المستشفيات غير أن حركات المضجع هنا قد تم حسابها على نحو دقيق لأنها يجب أن تتساوق بدقة مع حركات المسلفة نظراً لأن المسلفة هي آلة تنفيذ الحكم الفعلية. وبعد ذلك سأل الباحث:

- كيف تتم إجراءات الحكم إذن؟

- ألا تعرف ذلك أيضاً؟

قال الضابط ذلك وقد أخذته الدهشة فعضّ على شفتيه ثم تابع:

- اغفر لي إن كانت إيضــاحاتي غير مترابطة. فقد اعتاد الحاكم العسكري السابق أن يقوم هو بالشـــرح دائماً، ولكن يبدو أن الحاكم الجديد يتنصـــل من هذا الواجب، ومع ذلك فإن زائراً عظيم الشأن مثلك...

وهنا رفع الباحث كلتا يديه معترضـــاً على إسباغ ذلك الشرف عليه، لكن الضابط أصرّ على ذلك قائلاً:

- إن زائراً عظيم الشأن مثلك لا بد أن يخبر عن طبيعة الحكم الذي نصدره، فهو تطور جديد حيث... وهنا كان الضابط على وشك أن يتفوّه بلغة حادة، إلا أنه ضبط نفسه واكتفى بالقول:

- لم تصـــدر لـــي التعليمات بذلك وهو أمر ليس لي يد به، ثـــم إني، على أي حال، خير من يقوم بشـــرح الإجراءات منذ أن نلت هنا، وهنا ضـــرب بيده على جيب صـــدره، الصور المناسبة التي قام بتصميمها الحاكم العسكري السابق نفسه، وعند ذاك سأل الباحث:

- هل هي رسوم خاصة بالحاكم السابق؟ هل استقطب كل شيء في نفسه إذن؟ هل هو عسكري وقاض وميكانيكي وكيميائي ورسام؟

- نعم، فقد كان في الحقيقة كل ذلك.

أجابه الضـــابط وهو يومئ برأسه إيجاباً وينظر بجمود إلى بعيد ثم يفحص يديه متبرماً لأنها لا تبدو نظيفة بما يكفي من أجل ملامســـة الرســـوم، ولذا فقد اتجه نحو جردل الماء وغسلهما ثانية وسحب حقيبة صغيرة من الجلد وقال:

- إنَّ الحكم الذي نصدره لا يتسم بالقسوة لأن كل ما اقترفه المتهم سيكتب على جسمه بوساطة المسلفة. إن المتهم هنا مثلاً... (وقد أشار الضابط إلى الرجل). سوف تكتب على جسمه العبارة الآتية «احترم سادتك».

ألقى الباحث نظرة على الرجل الذي وقف حيث أشار إليه الضابط. كان خفيض الرأس يصغي بكل جوارحه محاولاً إدراك ما يقال، ومع ذلك فإن حركة شفتيه الغليظتين المطبقتين بإحكام أظهرت أنّه لم يفهم شيئاً على الإطلاق. فقد أربكت الباحث أسئلة كثيرة إلا أن منظر المتهم جعله يكتفي بسؤال واحد فحسب:

- هل للمتهم فكرة عن الحكم الصادر عليه؟

- كلا.

أجابه الضابط تحدوه الرغبة في الاستمرار بإيضاحاته إلا أن الباحث قاطعه بقوله:

- لايعرف الحكم الذي صدر عليه؟

- كلا.

أجابه الضابط مرة أخرى وقد توقف للحظة كما لو أنه أراد فسح المجال للباحث أنْ يجعل سؤاله أكثر دقة، ثم تابع:

- ليس هناك ما يبرر إخباره بشيء، لأنه سوف يدرك ذلك بجسمه شخصياً.

لم يرغب الباحث في الإجابة عن شيء، ولكنه شعر بأنَّ نظرة المتهم كانت موجهة نحوه تتساءل عما إذا كان يقرّ مثل هذه الإجراءات. وهكذا أطرق الباحث رأسه إلى الأمام وقد اتّكأ على كرسيه وهو يطرح سؤالاً آخر:

- لكنه بالتأكيد يعرف بأن حكماً قد صدر عليه؟

- ولا حتى هذا.

قال له الضابط ذلك وهو يبتسم كما لو أنه كان يتوقع منه أن يبدي ملاحظات مفاجئة أخرى.

- كلا؟

- سأل الباحث ذلك وهو يمسح على جبهته ويتابع القول:

- إذن لا يستطيع هو الآخر معرفة مدى تأثير دفاعه؟

- لم تتح له فرصة الدفاع عن نفسه.

أجابه الضابط وهو يشيح ببصره عنه كما لو كان يكلم نفسه موفراً على الباحث بذل الجهد في سماع تفسير الأمور التي باتت واضحة للعيان، ومع ذلك فقد قال الباحث وهو ينهض من مجلسه:

- ولكن يجب أن تهيأ له فرصة للدفاع عن نفسه.

وهنا أدرك الضابط خطورة الإيضاح الذي قدمه حول الجهاز، ذلك الإيضاح الذي استغرق وقتاً طويلاً ولذا فقد اتجه نحو المتهم الذي وقف منتصباً لدرجة أصبح فيها محط الأنظار بصورة واضحة- وعند ذاك حرك الجندي السلسلة تبعاً لذلك.

هذا هو الموقف. فقد عيّنت قاضياً في مستوطنة العقاب هذه وعلى الرغم من أنيّ شابٌّ فقد كنت مساعداً للحاكم العسكري السابق في قضايا العقوبات جميعها، كما وأنني على معرفة بالجهاز أكثر مما يعرفه أي شـخص آخر. إنَّ المبدأ الذي أسـير عليه هو أن الذنب يجب أن لا تساور حيثياته الشكوك.

أمَّا المحاكم الأخرى فلا تسـير وفق هذا المبدأ لأن الآراء فيها عديدة ولها محاكم عليا تتحرى الدقة في تلك الآراء. الحال هنا ليسـت على هذا النمط، كما أنها تختلف عما كانت عليه في عهد الحاكم العسـكري السابق على الأقل. فقد أظهر الحاكم الجديد ميلاً للتدخّل في الأحكام التي أصـدرها، ولكنني نجحت لحد الآن في تحاشـيه، وسوف أستمر في هذا النجاح. والآن، لعلك تريد إيضـاحاً حول هذه القضـية. إنَّ الأمر بسيط كما هي الحال في القضايا الأخرى.

عرضَ علي أحد النقباء في الجيش تقريراً صـباح هذا اليوم موضـحاً أنَّ هذا الرجل الذي عين خادماً له، واعتاد النوم أمام بابه قد استسلم للنوم فعلاً ولكن في أثناء الواجب، إن الواجب يقضـي، كما تعلم، أنْ ينهض هذا الرجل كلما تدق السـاعة معلنة نهاية ساعة زمنية واحدة ليؤدي التحية في باب النقيب، إنه بصـراحة لم يقم بواجبه على ما يرام، فهو يجب أن يكون حارسـاً إضـافة إلى أنّه خادمٌ، كما أنه يجب أن يتّسـم بالنشـاط في كلا الواجبين.

وفي الليلة الماضية أراد النقيب أن يرى ما إذا كان الرجل مهتماً بواجبه أم لا، ولذا فتح الباب عندما أشـارت الساعة إلى الثانية فوجد الرجل قد تكوّر على نفسه وراح في سبات عميق. أخذ سـيده سوطاً وضـربه على وجهه، غير أن الخادم بدلاً من النهوض والاعتذار تعلّق بساقي سيده ثم هزه وصاح «ارم السوط وإلا أكلتك حياً». هذا هو الدليل.

جاءني النقيب قبل سـاعة فدوّنت إفادته وأضـفت قرار الحكم إليها، ثم أمرت أن يقيّد الرجل، فكان الأمر في غاية البسـاطة. أمَّا لو أنني اسـتدعيت الرجل أمامي واسـتجوبته لتعقّدت الأمور ولأخبرني بأكاذيب إذا كشفتها له سيدعمها بأكاذيب أخرى وأخرى وهكذا... فقد أحكمت قبضـتي عليه الآن ولن أدعه يفلت مني أليس الأمر واضـحاً؟ إننا نبدد الوقت فتنفيذ الإعدام يجب أن يبدأ وأنا لم أنته بعد من شرح الجهاز لك.

دفع الباحث للجلوس على كرسيه ثم سار الضابط نحو ذلك الجهاز ثانية وهو يقول:

– وكما ترى، فإن شـــكل المسلفة يناســـب جسم الإنسان، فها هو المشط للجسم وهنا الأسنان للسيقان، أما الرأس فله هذه الحرية فحسب، هل هذا واضح الآن؟

ثـــم انحنى الضـــابط بتودد إلى الأمـــام باتجاه الباحث تحدوه رغبـــة ملحّة في أن يمده بإيضاحات كاملة.

تأمل الباحث تلك المســـلفة مقطب الجبين إذ إن قلب مثل هذه الإجراءات وتحويرها قد أغضباه كثيراً، ومع ذلك فقد اضطر أن يذكّر نفسه أن هذه إنما هي مستوطنة العقاب على أي حال، مســـتوطنة يتطلب الأمر فيها مثل هذه المعايير الغريبة وأنَّ الضـــبط العســـكري يجب أن ينفّذ فيها إلى أبعد الحدود، ثم شعر مع كل ذلك بأنَّ هناك أملاً يعلق على الحاكم العســـكري الجديد لأن له، كما هو واضـــح، من رجاحة العقل ما يجعله يطبق، ولو بصورة تدريجية، نوعاً من الإجراءات يقصر ذهن الضابط الضيق عن فهمها فقد سبق هذا السياق من التفكير سؤال الباحث الآتي:

– هل سيشهد الحاكم العسكري عملية تنفيذ الحكم؟

– ليس على وجه التأكيد.

قال الضـــابط ذلك وهو ينتفض من هذا السؤال المباشر وقد تغيّرت تعابيره الودّية إلى عبوس ظاهر، ثم قال:

– وهـــذا ما يجعلنا نبدد الوقت، ثم إنني بقدر ما أكره ذلك، أجد نفســـي مضـــطراً على الاختصـــار في إيضـــاحاتي. وغداً، بالطبع حينما يتم تنظيف الجهاز، لأن عيبه هو أنه كثير التعرض للفوضـــى والقذارة بعد كل اســـتعمال، ســـيكون بإمكاني الدخول في التفاصـــيل جميعها لأنني الآن في صـــدد شـــرح الأشياء الضرورية فحســـب. حينما يمدد الرجل على الفراش وتبدأ الآلة بالحركة تنخفض المســـلفة على جسمه فتقوم بتنظيم عملها أوتوماتيكياً لكي تمس الإبر جسمه مساً خفيفاً، وحينما يحدث ذلك التماس يتحوّل الشريط الفولاذي إلى رباط شـــديد الصلابة ثم يتواصل العمل بعد ذلك. لا شك بأن المُشاهِد الجاهل لا يرى فرقاً بين نوع من العقاب وآخر. إن المسلفة تبدو وكأنها تقوم بعملها بنسق مطرد، فحينما تهتز، تنغرز أســـنانها بجلد الإنسان الذي يرتجف بدوره تبعاً لاهتزاز المضجع. ومن أجل مراقبة

المراحل التي يتم بها تنفيذ الحكم الفعلي تصنع المسلفة من الزجاج، كما أن تثبيت الإبر في ذلك الزجاج كان مشــكلة فنية ولكننا بعد تجارب طويلة استطعنا التغلّب على تلك المشاكل، حيث لا توجد صعوبة بالغة بالنسبة لنا كما ترى. إن باستطاعة أي شخص النظر من خلال الزجاج ليرى النقش وهو يتشكل على الجسم -ألا ترغب في الاقتراب قليلاً لتشاهد الإبر؟

نهض الباحث ببطء واخترق المكان ثم انحنى فوق المسلفة فقال الضابط:

- لعلــك ترى أنَّ هناك نوعين من الإبر تنتظم بصــفين بحيــث تكون إلى جانب كل إبرة طويلة إبرة قصــيرة. الإبرة الكبيرة هي التي تقوم بالكتابة بينما تقوم الإبرة القصــيرة برش رذاذ من الماء يزيل الدم حتى يظهر النقش على الجســم واضحاً ثم يندفع الدم والماء بعد ذلك إلى هنا، من خلال مجار صــغيرة، أي إلى داخل المجرى الرئيس ثم إلى الأســفل في قناة الأوساخ ومنها إلى القبر.

تابع الضــابط بإشــارة من إصبعه الطريق الذي يســير فيه الدم والماء بالضبط، ولكي يجعل الصورة أكثر وضوحاً بقدر المستطاع وضع الضابط كلتا يديه في أسفل مخرج قناة الأوساخ كما لو أنه أراد اغتراف شيء مما يمكن أنْ يتدفق.

حينما قام الضابط بذلك تراجع الباحث إلى الخلف وهو يتحسس الفراغ فيما وراءه بيد واحدة متلمساً طريقه إلى المقعد. فقد وجد، وسط الرعب الذي اجتاح كيانه، أنَّ المتهم هو الآخر قد اســتجاب لدعوة الضابط في فحص المسلفة من مكان قريب حيث كان يتابع كل ما قاله الضــابط حولها، ثم ســحب الجندي الذي غالبه النعاس إلى الأمام ومعه الأصفاد، وألقى نظرة على الزجاج. يســتطيع المرء ملاحظة عينيه الزائغتين وهما تحاولان إدراك ما كان يشــاهده السيدان، ولكن بما أنه لم يفهم شيئاً من ذلك الإيضاح فقد ظل جاهلاً للأمر كله. كان السجين يتطلع هنا وهناك ومن ثم أخذ يمعن النظر على طول الزجاج. أراد الباحث أن يبعده عن المكان، لأن ما قام به ربما كان يدخل تحت طائلة العقاب، غير أن الضابط منع الباحــث بحركة مــن يده ورفع باليد الأخرى قطعة من الطين تناولها من الحاجز الترابي ثم رمى بها الجندي فجعلته يفتح عينيه فجأة ليرى ما تجرأ به المتهم، أخفض الجندي بندقيته، وركل الأرض بكعبيه ثم ســحب الســجين إلى الخلف بسرعة حتى اضطره للتعثر والوقوع فجأة، ثم وقف ينظر إليه بازدراء وهو يكافح مجلجلاً في أصفاده.

- دعه يجلس على قدميه!

صاح الضابط لأنه رأى أن المتهم قد جلب انتباه الباحث كثيراً وعلى نحو مذهل. والحقيقة هي أن الباحث كان متكئاً على المسلفة بلا وعي منه لأن تفكيره كله كان مركزاً على ما يجري للمتهم.

- اهتم بأمره!

صاح الضابط مرة أخرى ثم استدار حول الجهاز، وأمسك المتهم من تحت إبطيه، وبمساعدة الجندي أنهضه على قدميه دون أن ينزلق من بين يديه.

- أنا الآن أعرف كل شي عنها.

قال الباحث ذلك حينما عاد الضابط إليه.

- كل شيء ما عدا أهم شيء.

قال الضابط وهو يمسك بذراع الباحث ويشير إلى الأعلى:

- توجد في المنظم الدواليب المسننة جميعها التي تضبط حركات المسلفة، وقد نظمت هذه الماكنة وفقاً للكتابة التي يمليها الحكم. أمَّا فيما يخصني فإنني لا أزال أستعمل الخطط التي ترشدني إلى ذلك وهي الخطط التي كان الحاكم العسكري السابق قد وضعها... وها هي.

أخرج بعض الصفحات الموجودة في حقيبة جلدية صغيرة وقال:

- يؤسفني ألا أستطيع السماح لك بلمسها لأنها من خصوصياتي الثمينة جداً. إنك لو جلست فسأنشرها أمامك ليكون بإمكانك مشاهدة كل شيء على ما يرام. نشر الصفحة الأولى من الورق فأراد الباحث أن يقول شيئاً يظهر به استحسانه إلا أنه لم يشاهد سوى متاهة من خطوط متقاطعة لتتقاطع فيما بينها ثانية بحيث غطت الورقة إلى درجة أصبح من الصعب تمييز الفراغات البيض فيما بينها.

- اقرأها.

فأجابه الباحث.

- لا يمكنني ذلك.

- لكنها واضحة بما فيه الكفاية.

- إنها عمل فذ، ومع ذلك فلا أستطيع فهم شيء منها.

قال الباحث ذلك مراوغاً.

- نعم.

أجابه الضابط ضاحكاً وهو يبعد الورقة مرة أخرى ويقول:

- إنــه، بالتأكيد، ليس درســاً من دروس الخط يُعطَى لطــلاب المدارس- إنَّ هذه الأوراق تتطلب دراسة عميقة، كما أنني على ثقة بأنك ستفهمها. وبالطبع فإن النسخة المكتوبة لا تتسم بالبســاطة، إذ ليس المفروض القضاء على أي رجل مباشرة بل بعد فترة من الوقت تكون في المعدل اثنتي عشــرة ســاعة. إنَّ نقطة التحوّل في هذا الجهاز يكــون مقدّراً لها الحدوث في الســاعة السادسة، ولذا فإن هناك أشياء وأشياء يجب إضافتها لتزويق النسخة الحقيقية. إن الخط نفسه يدور حول الجسم في حزام ضيّق، أما ما يتبقى من الجسم فيترك لإجراء الزخرفة عليه، والآن، هل يروق لك العمل الذي تقوم به المسلفة والجهاز كله؟ انظر إليه فحسب.

ثم صعد الضابط إلى أعلى السلم فأدار عجلة وصاح وهو ينظر إلى الأسفل:

حذار، ابتعد جانباً!

بدأ العمل فيها، في كل جزء منها، ولو لم ينبعث الصــرير من ذلك الدولاب فلا شك كانت ستبدو في غاية الروعة. والضابط نفسه، كما لو أنّه قد أصابته الدهشة من جرّاء الضجة التي أحدثتها تلك العجلة، هزّ بقبضــة يده نحوها ثــم فتح ذراعيه كمن يطلب الاعتذار من الباحث ثم أسرع في النزول ليلقي نظرة على عمل الجهاز من الأسفل. يبدو أن شيئاً ما، لا يمكن أن يميّزه أحد سواه، ما زال عاطلاً مما حدا به لأن يصعد ثانية فيدخل يديه الاثنتين داخل جهاز التنظيم ويمســك بشيء وبعد ذلك نزل إلى الأرض بوساطة أحد القضبان بدلاً من النزول عن طريق الســلم توخياً للســرعة، ثم صرخ بكل ما يســتطيع من قوة في أذن الباحث لكي تكون كلماته مسموعة في تلك الضجة العالية على أي حال:

- أيمكنك متابعة العمل الذي يقوم به الجهاز؟ فقد بدأت المســلفة بالكتابة وهي عندما تنتهي من نقش النســخة الأولى في الخلف ســتبدأ الطبقة المصنوعة من الصوف والقطن بالدوران فتدير الجسم بدورها تدريجاً لكي تمنح المسلفة حيزاً جديداً من الجسم من أجل

الكتابة، وفي أثناء ذلك فإن الجزء الذي اكتسى بالكتابة سيمتد على خليط الصوف والقطن الذي أحضـــر خصيصـــاً لإيقاف نزف الدم وتهيئة كل شيء من أجل غرز جديد أعمق لتلك النســـخة من الجسم. أمّا الأسنان الموجودة على حافة المسلفة فتأخذ، حينما يبدأ الجسم بالدوران، في تمزيق الصـــوف القطني ورميه بعيداً عن الجـــروح ومن ثمَّ إبعاده إلى داخل القبر. إنَّ للمسلفة عملاً إضافياً، فهي تستمر في الكتابة أو الغرز أعمق فأعمق لفترة اثنتي عشرة ســـاعة كاملة يبقى فيها المتهم على قيد الحياة خلال الساعات الستة الأولى تقريباً يقاسي من ألم الوخز فحسب. وبعد ساعتين يرفع الكمام المصنوع من اللباد من فمه لأنه لم تعد لديه القدرة حتى للصراخ أو الاستغاثة. وهنا، في هذا الحوض الذي يسخن بالكهرباء في مقدمة الفراش يصب بعض الأرز المنقوع الدافئ يستطيع الرجل تناوله إذا كان يشعر برغبة في ذلك وبقدر ما يستطيع لسانه أن يلعق، ولم يحدث أن فاتت أي متهم فرصة لتناول ذلك أبداً. لا أســـتطيع أن أتذكر واحداً منهم فاته ذلك مع أن تجربتي في هذا المجال طويلة جداً. ونحو الساعة السادسة تقريباً يفقد المرء الرغبة في الأكل فأركع في تلك اللحظة عادة لمراقبـــة تلك الظاهرة. لا يكاد الرجل يزدرد اللقمـــة الأخيرة حتى يبدأ في تدويرها في فمه ثم يبصقها في القبر فيتعين علي، في هذه الحال أن أدير رأسي تجنباً وإلّا فهو سيبصقها في وجهي. ولكن، كم يصـــبح الرجل هادئاً بعد الســـاعة السادسة. إن الإشراق ليبدو حتى عند أكثر الناس بلادة، فهو يبدأ من حول العينين وينشر من هناك إشعاعه في لحظة تغري الإنسان بأن يلقي نفسه تحت المسلفة معه.

لا شيء يحدث بعد ذلك لأن الرجل يبدأ يحس بذلك النقش على جسمه فحسب ثم ينقبض فمه كما لو أنه كان يصغي لشيء ما. إنك تلاحظ كم يصعب على المرء حل رموز تلك الكتابة بعينه، غير أن صـــاحبنا يحلهـــا بجراحه. ولأجل التأكد من ذلك، وهو أمر ليس باليســـير، يحتاج إلى ست ساعات لإكمال ذلك بينما تكون المسلفة في ذلك الوقت قد غرزت أسنانها داخل جسمه وألقت به في القبر حيث ينحدر فوق الدم والماء وخليط الصوف والقطن ويكون الحكم بذلك قد نفّذ فعلاً وأقوم أنا بمساعدة الجندي بدفنه.

مال الباحث بأذنه نحو الضـــابط ويداه في جيبي سترته ثم لاحظ الجهاز في أثناء عمله. كان المتهم هو الآخر ينظر إلى ذلك الجهاز ولكن دون أن يدرك من الأمر شيئاً.

وعندما مال إلى الأمام قليلاً ليراقب الإبر المتحركة طعنه الجندي، بإشارة من الضابط، بسكين اخترقت ثوبه وسرواله من الخلف، ثم سقط على الأرض، ولكن عندما حاول الإمساك بملابسه التي تهدلت ليغطي جسده العاري رفعه الجندي في الهواء ليخلع ما تبقى من ملابسه.

أوقف الضابط حركة الجهاز ثم وضع المتهم، خلال ذلك الصمت المفاجئ، تحت المسلفة وأرخيت أصفاده لتثبيت الأحزمة الجلدية بدلاً منها، حيث بدا الأمر، في تلك اللحظة، وكأنه فترة تخفيف آلام ذلك المتهم على العموم. أخفضت المسلفة عند ذاك لأن الرجل كان نحيف الجسم، وحينما لامست رؤوس الإبر جسده سرت في جلده قشعريرة، وفي الوقت الذي كان فيه الجندي منهمكاً بربط يده اليمنى، رمى الرجل يده اليسرى بلا هدف ولكن حدث أن كانت باتجاه المكان الذي كان الباحث يقف فيه.

كان الضابط يراقب الباحث جانباً كما لو كان يبحث عما يستطيع قراءته في وجهه من انطباع حول تنفيذ الحكم الذي سبق وأن شرحه بصورة سطحية على الأقل. انقطع الحزام الجلدي من حول الرسغ لأن الجندي ربما كان قد سحبه بقوة مما اضطر الضابط آنذاك أن يتدخّل في الأمر. رفع الجندي قطعة الجلد المقطوعة ليريها للضابط الذي سار نحوه، وقال له بينما وجهه لم يزل متجهاً نحو الباحث:

– إنه جهاز معقد، فبعض الأشياء فيه تتكسر على الدوام أو تكون عرضة للارتخاء، ومع ذلك يجب على المرء أن لا يسمح لنفسه باللهو في أثناء تنفيذ الحكم على الآخرين. على أي حال، من الممكن إصلاح الجلد، غير أنني سأستعمل السلسلة بكل بساطة. إنَّ الاهتزازات الضعيفة للذراع الأيمن ستكون على نطاق أقل.

عندما كان منهمكاً في ربط تلك السلسلة أضاف قائلاً:

– قد خفض المال المخصص الآن لإدامة الجهاز كثيراً، أما في عهد الحاكم العسكري السابق فقد كانت لي حرية التصرف بمال أكثر مخصص لهذا الغرض، كما كان هناك مخزن لحفظ الأدوات الاحتياطية للقيام بأنواع التصليحات الضرورية. فقد كنت، وهذا ما يجب الاعتراف به الآن، مسرفاً في استعمال تلك الأدوات في الماضي، ولكن الأمر يختلف الآن مع هذا الحاكم الجديد الذي يبدو وكأنه كثيراً ما يتحرى الأعذار لمهاجمة ما كنا نقوم به في السابق.

أخذ الحاكم العسكري الحالي على عاتقه مسؤولية الإشراف على صرف المال على هذا الجهاز، فلو حدث أن أرسلت في طلب قطعة جديدة من الجلد، سيطلبون مني القطعة القديمة كدليل على صحة ادعائي، وسوف تظهر القطعة الجديدة بعد فترة عشرة أيام، ولكنها من مادة متهرئة لا تصلح للاستعمال كثيراً. كيف يتسنى لي القيام بتشغيل الجهاز من دون قطعة جلد مثلاً؟ إنه شيء لا يعبأ به أي أحد.

فكر الباحث أنّه من الصعب التدخل في شؤون الآخرين بصورة حاسمة. إنه ولا شك عضو في مستوطنة العقاب هذه وليس مواطناً في الدولة التي تعود إليها. إذا كان بإمكانه فضح الأسلوب الذي يتم به تنفيذ العقوبة أو إذا حاول إيقاف هذا التنفيذ فإنهم لا بد سيقولون له:

– إنك رجل غريب. اهتم بشؤونك وحدك.

لاشك بأنه لن يستطيع الإجابة عن شيء، إلا إذا اضطر إلى القول إنّه كان مندهشاً ذاتياً بهذه المناسبة، لأنه قد قام بتلك الرحلة بصفة مراقب دون أن يكون القصد منها تغيير أساليب الآخرين في تحقيق العدالة أبداً، ومع ذلك فقد وجد نفسه في هذا المكان واقعاً تحت إغراء قوي. كانت تلك الإجراءات التعسفية اللاإنسانية في تنفيذ الحكم أموراً لا يمكن نكرانها أو السكوت عنها أضف إلى أن المرء لا يمكنه الافتراض بأن اهتماماً أنانياً كان يدفعه إلى هذا الموضوع، وذلك لأن المتهم كان شخصاً غريباً عنه تماماً ولا هو من أبناء وطنه أو ممن يشعر بأي نوع من العاطفة نحوه. فقد جاء الباحث إلى هنا بعد أن حصل على توصيات من الدوائر العليا واستقبل بكل لطف وكرم، ثم إنَّ مجرد حقيقة أنّه قد دعي لحضور تنفيذ الحكم توحي بأن وجهة نظره ستلاقي كل ترحيب، وسيزيد من احتمال ذلك الأمر هو أن الحاكم العسكري الحالي، كما سمع الباحث بكل وضوح، لم يكن يؤيد مثل هذه الإجراءات وقد تشبّث ذلك الحاكم بموقف يتّسم بالعداء تجاه الضابط.

وفي تلك اللحظة سمع الباحث صراخ الضابط الغاضب. فقد أدخل الآن وبصعوبة ظاهرة الكمام المصنوع من اللباد في فم الرجل عندما أغمض عينيه وبدأ يتقيّأ بعد أن داهمه غثيان لا يقاوم. أبعد الضابط الرجل عن ذلك الكمام بسرعة ثم حاول أن يمسك برأسه فوق القبر، غير أن ذلك كان بعد فوات الأوان فقد أخذ القيء يجري فوق الجهاز نفسه. وهنا صاح الضابط بلا شعور منه، وهو يهز القضبان النحاسية أمامه:

- إنه خطأ الحاكم. فقد أصبح الجهاد كأنه زريبة خنازير.

ثم أشار بيدين مرتجفتين إلى الباحث محاولاً جلب انتباهه إلى ما كان يحدث:

- ألـم أحاول في كل مرة ولساعات جعـل الحاكم يفهم أنَّ السـجين يجب أن يبقى صـائماً ليوم كامل قبل تنفيذ الحكم عليه؟ غير أن النظام الجديد المتسامح يعمل النقيض. إن وصـيفات الحاكم العسكري يملآن فم الرجل المتهم بالحلوى قبل أن يقاد لتنفيذ الحكم عليه. يا للسـخرية، فقد عاش على تناول السـمك النتن طوال حياته وهو الآن يضـطر إلى أكل الحلـوى، ومـع ذلك فالأمر لهذا الحد لا غبار عليه وينبغي عليّ أن لا أبدي أي ملاحظة ضـده، ولكن لماذا لم يعطوني كماماً جديداً كنت أتوسـل في الحصول عليه طوال الشهور الثلاثة الأخيرة؟ كيف لا يشعر المرء بالغثيان وهو يضع في فمه كماماً سال عليه لعاب مئات الرجال وقضموه في لحظات احتضارهم؟

ألقى الرجل المتهم برأسه إلى الأسفل وبدا عليه الاطمئنان بينما انهمك الجندي يمسح الجهاز بثوب المتهم نفسـه. تقدم الضـابط نحو الباحث الذي تراجع، تحت وطأة شـعور داخلي لا يعرف كنهه، خطوة إلى الوراء غير أن الضابط أمسكه من يده وأخذه جانباً.

أود أن أناقشك في بضع كلمات بكل ثقة، فهل يمكنني ذلك؟

- بالتأكيد.

قال الباحث ذلك وقد أصغى إليه بعينين خفيضتين.

- إن الإجراءات وطريقة تنفيذ الحكم التي تتاح لك فرصـة استحسـانها ليس لها من يؤيدها في مسـتوطنتنا علناً. إنني المدافع الوحيد عنها كما كنت في الوقت نفسه المشايع الوحيد للطريقة التقليدية القديمة. لم يعد بإمكاني افتراض أي توسـع فيها لأنها تسـتنزف كل طاقتي من أجل إبقائها على ما هي عليه الآن. كانت المسـتوطنة أيام الحاكم العسكري السـابق ملأى بالمؤيدين له وما أزال أتخذ من قوة الإدانة التأديبية لديه معياراً أسيرُ على هديه ولكن المعيار لا يسـاوي ذرة قياسـاً إلى الطاقة التي كان يتصف بها، وبناء على ذلك فقـد تـوارى أولئك المؤيدون عن الأنظار. صـحيح أن هناك كثيراً منهـم، لكن ليس بينهم من سـيعترف بقوة الإدانـة تلك. ولو قيض لك أن تزور أحـد المقاهي في هذا اليوم -يوم تنفيذ الحكم، وتصـغي إلى ما يقال فلن تسـمع سوى ملاحظات مبهمة فحسب. يردد هذه

الملاحظات أناس مشـــايعون، غير أن مثل هذه الملاحظات في عهد هذا الحاكم العسكري الحالي وأنظمته غير ذات جدوى بالنسبة لي. والآن أود أن أسألك، بسبب الحاكم العسكري الحالي والنســـاء اللواتي لهن تأثير عليه، مثل هــذا العمل الذي يمكن أن يقال عنه إنّه عمل العمر كله، يمكن أنْ يهمل ويتوقف؟ أينبغي على المرء السماح بحدوث مثل هذا الشيء؟ حتى إن جاء شــخص غريب إلى جزيرتنا لقضـــاء أيام قليلة. ومع ذلك فلا مجال لإضاعة الوقت، لأن أي هجــوم مــن أي نوع هو تهديد لوظيفتي كقاض. فقد عقدت حتى الآن اجتماعات في مكتب الحاكم أبعدت عنها، ويجب أن أقول إنّه حتى مجيئك إلى هنا، في مثل هذا اليوم، يبدو وكأنه خطوة ذات مغزى معين. إنهم جبناء يتخذونك، وأنت الغريب، ستاراً لأعمالهم.

آه، كم كان يختلف تنفيذ الحكم في السابق! إن يوماً بأكمله، قبل الاحتفال، كان الوادي يزدحم فيه بأناس يأتون للتفرّج، وكان الحاكم يظهر في الصــباح الباكر مع الســيدات وقد أثير المعسكر كله بالأبواق.

وبعد أن أعلن بأن كل شيء جاهز، ينتظم الحشد لدرجة لا يستطيع أي موظف مهما كانت منزلته عالية من التخلّف عن الحضور والوقوف حول الجهاز. إن هذه المجموعة من كراسي القصــب هي بقية بائســة تذكّر المرء بذلك العهد. كان الجهاز براقــاً ينظف باطراد واعتدت الحصول على الأدوات الاحتياطية اللازمة لكل عملية تنفيذ جديدة تقريباً ثم إن الحاكم نفسه هو الذي يضع المتهم تحت المسلفة أمام أنظار المئات من المتفرجين الذين يقفون على رؤوس أصــابعهم قريباً من المرتفعات هناك. إن ما يقوم به الجندي العادي في هذا الوقت كان من صــميم عملي في ذلك الوقت – عمل القاضي الذي يشرف على كل شيء ويوجهه، وكان ذلك شــرفاً لي. ويبدأ تنفيذ الحكم بعد ذلك حيث لا يســتطيع أي صــخب تعكير عمل الجهاز أو إرباكــه. إن كثيراً مــن الناس لا يهمهم ما يجري ومع ذلك فقد آثروا الاســتلقاء على الرمال وعيونهم مغلقة لأنهم كانوا يدركون أنَّ العدالة قد سارت في مجراها الصحيح حيث لا يسمع المرء في ذلك الصمت المطبق غير آهات الرجل الذي أخمد الكمام صوته إلى النصف.

أمّا الجهاز، في هذه الأيام، فلم يعد بإمكانه إخراج أي آهة لأي شخص أعلى مما يسمح به الكمام، أضــف إلى أن إبر الكتابة في تلك الأيام كانت تصــب سائلاً حامضاً لا يسمح لنا باستعماله الآن –حسن، وبعد أن تحين الساعة السادسة يصبح من غير الممكن إجابة

كل الطلبات لمشاهدة ما يجري عن كثب. كان الحاكم العسكري السابق، لحكمة منه، يقرر بأن الأسـبقية يجب أن تكون للأطفال، وبالطبع فقد كنت أحضـر على الدوام نظراً لمركزي الذي يؤهلني لمثل هذا الحضـور وكثيراً ما اعتدت أنْ أجلس القرفصـاء أحمل طفلاً على يدي، منشـغلين بمنظر التشويه المرسـوم على وجه الشخص الذي يقاسي من الألم، وكم كانت وجناتنا تتقد بإشـعاع تلك العدالة التي تضيء في آخر الأمر لتنتهي بسرعة -يا لها من أوقات أيها الرفيق!

نسي الضابط، كما هو واضح، الشخص الذي كان يخاطبه، لأنه في سورة الانفعال تلك ذهب فاحتضن الباحث ووضع رأسه على كتفه.

ارتبك الباحث كثيراً فحملق بجزع من فوق رأس الضابط الذي عانقه.

انتهى الباحث من تنظيف الجهاز وهو الآن يسكب الأرز السائل من وعاء يحمله بيده إلى داخل الحوض. وحالما شـاهد المتهم -وقد بدا أنّه قد استعاد بعض نشاطه- ما كان يجري بدأ يقترب من ذلك الأرز بلسانه. أبعد الجندي المتهم ومنعه من القيام بذلك لأنه قصد أن يكون ذلك بعد سـاعة من الوقت على وجه التحديد ومع ذلك فلم يكن مناسباً أبداً أن يغمر الجندي يديه القذرتين في داخل الحوض ليأكل منه قبل أنْ يتناول فم المتهم الشره منه شيئاً.

أسرع الضابط فاعتدل ثم قال:

لم أرغب في تكديرك لأنني أدرك بأن من المستحيل الآن تصديق ما كان يجري في تلك الأيـام الخوالـي، والماكنة، على أي حال، لا تزال تعمل بكفـاءة وفاعلية. تقوم بعملها على الرغم من أنها تنتصـب معزولة في هذا الوادي، وعلى الرغم من أن جسـد المتهم يسـقط في آخر الأمر في القبر على نحو رقيق لا يدركه المرء في موضـع لا يقف فيه مئات الناس محتشـدين حول الجهاز كأنهـم الذباب مثلما كان يحدث في السـابق، كنا في تلك الأيام نضطر إلى وضع سياج حول القبر، وقد تحطم ذلك السياج منذ زمن بعيد.

أراد الباحث أن يشـيح بوجهه عن الضـابط فنظر حواليه بالصدفة، وهنا فكر الضابط بـأن الباحث إنما أراد فحص عزلة الوادي وتفرده، ولذا فقد أمسـكه من يديه وأدار وجهه ليقابل عينيه وسأله:

- هل ترى العار الذي ألحق بالوادي؟

لكن الباحث لم يجب بشيء، ولذا فقد تركه الضابط يقف وحيداً لفترة من الوقت بساقين مفتوحتين وقد استقرت يداه على شفتيه وهو ينظر إلى الأرض دون أن يتحرك. ابتسم الضابط للباحث بعد ذلك مشجعاً وهو يقول:

– كنت البارحة قريباً منك تماماً حينما قدّم لك الحاكم العسكري الدعوة. فقد سمعته في الواقع، وهو يقدّمها إليك. أنا أعرف الحاكم وأدرك حقيقة ما يرمي إليه. إنه وإن كان كبير النفوذ بحيث يمكنه اتخاذ أي خطوات ضدي، لكنه مع كل ذلك لا يجرؤ على القيام بأي شيء. وبالتأكيد، فإنه يسعى لاستغلال رأيك فيما يجري هنا ضدي –رأي شخص أجنبي بارع– فقد حسب لكل شيء حسابه إن هذا اليوم هو اليوم الثاني الذي تقضيه في الجزيرة، كما أنك تجهل كل شيء عن الحاكم العسكري السابق والأساليب التي كان يسيِّر أموره وفقها، لأنك بالطبع، متأثر بأساليب التفكير الأوروبية. لعلكم تعارضون مبدأ عقوبة الإعدام بوجه عام والموت بمثل هذه الآلات الميكانيكية على وجه التحديد إضافة إلى أنك سوف تدرك أنَّ تنفيذ الحكم لا يحظى بتأييد الناس عامة –إجراء رث– ينفذ بجهاز قديم مستهلك نوعاً ما. أليس من الممكن، كما يظن الحاكم، وقد أخذت بنظر الاعتبار كل ما يجري هنا، أن تستهجن الأساليب التي أتبعها؟ وإذا استهجنت هذه الأساليب فإنك لن تخفي الحقيقة (لا أزال أتحدث من وجهة نظر الحاكم الحالي)، لأنك رجل واثق من استنتاجاتك المبنية على الخبرة والتجربة. والحق هو أنك شاهدت وعرفت كيف تبدي استحسانك بالأشياء المتفردة الغريبة عند كثير من الناس، وعلى هذا فليس من المحتمل أن تتخذ رأياً متطرفاً ضد إجراءاتنا كما هي الحال في بلادك. ومع ذلك فليس للحاكم حاجة بكل هذا.

إنَّ إشارة عابرة أو حتى غير متحفظة تبديها حول هذه الإجراءات سوف تفي بالغرض دون أن يحتاج الأمر لأن تكون الإشارة مطابقة لما يدور في خلدك فعلاً. سيكون ذلك شيئاً رائعاً طالما يمكن استخدامه ظاهرياً لخدمة أغراضه. إنني متأكد من أنه سيحاول استفزازك ببعض الأسئلة الماكرة وسوف تتحلّق سيداته حولك يصغين إلى كل ما تقول. من يدري؟ لعلك ستقول شيئاً مثل: «توجد في بلادنا طريقة مغايرة لتنفيذ العدالة أو أن السجين في بلادنا يمنح الفرصة للدفاع عن نفسه قبل الحكم عليه أو، نحن لم نمارس التعذيب منذ القرون الوسطى».

إنَّ هذه الأقوال حقيقية بقدر ما تبدو طبيعية بالنسبة إليك، ملاحظات ليس فيها ما يؤذي أو تكون سـبباً لإصدار حكم على ما اتّبع من إجراءات. لكن، كيف سيكون رد فعل الحاكم العسكري بالنسبة لها؟ أستطيع أن أتصور –حاكمنا الطيب– وهو يدفع، في الحال، كرسيه بعيداً ثم يندفع نحو الشـرفة وأسـتطيع أن أرى سـيداته يجرين خلفه كما يمكنني سماع صوته– وهو ما تطلق عليه السيدات «صوت الرعد»– حسن، هذا ما سوف يقوله: «إن باحثاً غريباً شـهيراً أرسل لدراسـة الإجراءات الجنائية في أقطار العالم جميعها قد قال تواً إنَّ التقليد القديم الذي نسـير عليه في تنفيذ العدالة تقليد لا إنساني. إن مثل هذا الحكم لمثل هذه الشخصـية يجعل من المسـتحيل عليّ إقرار مثل هذه الأساليب في المستقبل، ولذا فإنني ابتداء من هذا اليوم أقضـي بأن...إلخ. مهـلاً، ربما تريد الاعتراض أنك لم تقل مثل هذا الشـيء وأنك لم تصـف إجراءاتي بأنها لا إنسانية وأنه على العكس، تجد أن تجربتك العميقة في هذا المجال تقودك إلى التصـديق بأنها ملأى بالروح الإنسـانية وتتفق كثيراً مع الكرامة وأنك معجب بالجهاز أيما إعجاب، ولكن ذلك سيكون بعد فوات الأوان، إذ ليس بإمكانك دخول الشرفة لأنك –وهي مزدحمة بالسيدات– ربما جلبت أنظار الآخرين إليك، أو ربما أردت الصـياح غير أن يد سيده ستغلق شفتيك –أما الحاكم العسكري السابق وأنا فسوف يقضى علينا لوحدنا.

اضطر الباحث أن يخفي ابتسامة ومن ثم فكر بأن ما كان يحسبه شيئاً معقداً لا بد أنه في غاية البساطة فقد قال بمراوغة:

إنّـك تفـرط في تقدير ما أتمتع به من تأثير في هذه القضـية. فقد اطلع الحاكم الحالي على كتب التوصـيات التي اقترحها وهو يعلم بأنني لسـت خبيراً في الإجراءات الجنائية، وإذا كان لي أن أعرض وجهة نظري فإن ذلك سيكون رأياً فردياً خاصاً بي، رأياً لا تأثير له ولا يزيد عن رأي شـخص اعتيادي. وبقدر ما يخصني الأمر فإن ذلك الرأي لا يوازي رأي الحاكم الذي تهيأ لي أن أعلم بأنه يتمتع بسـلطات واسـعة جداً في مستوطنة العقاب هذه. وإذا كان موقف تجاه ما تتخذه من إجراءات موقفاً عدائياً صرفاً كما تعتقد، فإنني أخشى آنذاك بأن نهاية التقليد الذي تسـير عليه باتت قريبة حتى من دون أي مسـاعدة متواضعة أقدّمها بنفسي في هذا الشأن.

هل بدا على الضابط أنه قد أدرك شيئاً. كلا، فهو لم يزل يجهل كل شيء. هزَّ رأسه بعنف ثم رمق بنظرة عاجلة كلاً من المتهم والجندي اللذين ابتعدا عن موضع الأزر في داخل الجهاز وبعد ذلك اقترب من الباحث دون أن ينظر إلى وجهه لأن بصره كان مركزاً على بقعة في معطفه وقال بصوت أقل حدة من ذي قبل:

إنك لا تعرف الحاكم، فأنت تشعر بأنك، وأرجو أن تسمح لي بهذا التعبير، شخص لا منتم بقدر ما يهمنا الأمر جميعاً، ومع ذلك يجب أن تصدقني أن تأثيرك لن يكون ذا قيمة كبيرة.

فقد كنت ببساطة في غاية السرور حينما علمت بأنك ستشهد عملية تنفيذ الحكم بمفردك علماً بأن الحاكم إنما رتب ذلك لأنه استهدف إنزال الضربة بي، غير أنني سوف أحيلها لصالحي دون أن يعتريني الذهول نتيجة الهمسات الكاذبة والنظرات الممزوجة بالكبرياء والغرور –ذلك الذهول الذي لا يمكن تجنبه فيما لو حضر عملية التنفيذ جمهور كبير من الناس. وها أنت سمعت الإيضاحات التي قدّمتها لك وشاهدت الجهاز بعينيك وإنك في طريقك لمشاهدة تنفيذ الحكم الفعلي– ومما لا شك فيه بأنك قد كوّنت لك رأياً حول كل ما يجري مسبقاً، وإذا حدث أن كانت هناك بعض الأمور غير الموثوق فيها فإن مشاهدة تنفيذ الحكم ستكون كفيلة بإيجاد الحلول لها. والآن لا بد من وضع هذا الرجاء أمامك «ساعدني على مواجهة هذا الحاكم».

لكن الباحث لم يدعه يواصل الحديث إذ صاح:

– وكيف يمكنني ذلك؟ إن الأمر مستحيل. لا أستطيع تقديم المساعدة إليك كما لا أستطيع منعك من القيام بمهمتك.

– نعم تستطيع ذلك.

أجابه الضابط وبشيء من الإحساس أدرك الباحث بأن الضابط كان يمسك بقبضته:

– نعم تستطيع ذلك.

كرر الضابط تلك العبارة وهو أكثر إصراراً ثم أردف:

– عندي خطة كفيلة بالنجاح. إنك تعتقد بأن تأثيرك ليس كافياً، لكنني أشعر بأنه يفي بالغرض، وحتى إذا سلمنا جدلاً بأنك على حق، أليس من الضروري الحفاظ على هذا التراث من خلال قيامك بذلك الشيء الذي تظن بأنه غير واف بالغرض؟

أَصغِ إلى خطتي إذن. إن أَوّل شيء ضروري يجب عليك القيام به هو أَن تلوذ بالصمت جهد الإمكان فيما يخص حكمك على هذه الإجراءات.

يجب أَن لا تقول شيئاً على الإطلاق ما لم يسأَلونك عن الموضوع مباشرة، وإذا تحدثت بشــيء فيجب أَن يكون ذلك الشيء مختصراً فيه صــفة العمومية لا التخصيص ثم اجعل الموقف يوحي بأَنك لا تريد الدخول بمناقشــة الموضــوع، وبأَنك قد ســئمت منه وبأَنه إذا سمح لك بالكلام فستكون لهجتك عنيفة.

أَرجــو أَن لا تفكــر بأَنني أُريد منــك تلفيق الأَكاذيب، كلا، إن مــا أُريده هو أَن تكون أَجوبتك مقتضبة مثل «نعم، شاهدت الإجراءات، أَو، نعم، فقد شرحوا لي شيئاً»... مجرد ذلك ولا شــيء أَكثر. هناك بواعث كافية لكل جزء تبديه ولو أَنها ليســت البواعث نفســها التــي تخطر على بال الحاكم. ســوف يخطئ بالطبع في المعنى الذي ترمي إليه ويفســره بما يرضــي نفســه وذلك ما تتوقف عليه خطتي. وغداً ســوف ينعقد مؤتمر كبير يحضره الموظفون الإداريون جميعاً وسوف يشرف عليه الحاكم بنفسه وبالطبع فإن الحاكم هو من نوع الرجال الذين يحيلون مثل هذه المؤتمرات إلى مشاهد عامة لكل الناس حيث بني قاعة كبيرة تزدحم بالنظارة على الدوام وأَنا مضــطر للمشاركة في تلك المؤتمرات مع أَنها تبعث الغثيان في نفســي: ومهما يكن، فســتكون أَنت من ضمن المدعوين لهذا المؤتمر بالتأَكيد، وإنك إذا تصــرفت اليوم وفق ما أَقترحه عليك فإن قبولك لمثل هذه الدعوة سيكون طلباً أَلحّ عليه كثيراً، وإذا لم توجه لك الدعوة لسبب أَو آخر فعليك أَن تطلبها بنفسك.

ولا شــك بأَنك ستحصل عليها في هذه الحالة. وهكذا ستكون في اليوم التالي جالساً في المقصورة مع الحاكم والسيدات وسوف يَجِدُّ في البحث عنك ليتأَكد من وجودك هناك. وبعد كثير من الأَمور المضــحكة التافهة التي تذكر للتأثير على المستمعين فحسب، هي أُمور غير واضــحة الأَهداف، نعم لا شيء سوى أَنها غير واضحة الأَهداف. ومن بين كل ذلك يظهر أَيضــاً النقاش الذي يخص إجراءاتنا القضائية. وإذا لم يبدأ الحاكم بمناقشة ذلــك أَو تحــدّث عنه ولو بوقت متأَخــر فإنني أَرى بأَن إجراءاتنا لا بــد لها أَن تذكر على أَي حال، وعند ذاك ســأَنهض لأَعلن باختصــار مجرد تقرير، علماً بأَن مثل هذا التقرير المختصــر ليس مأَلوفاً، ومع ذلك ســأَتلوه وسيشكرني الحاكم العسكري بابتسامة ودية

كما هي الحال دائماً ومن ثم سوف لا يمكنه ضبط نفسه حيث سينتهز تلك الفرصة الثمينة المواتية ليقول:

أعلن الآن -أو شيء بهذا المعنى- أنّه قد تم تنفيذ واحد من الأحكام، كما يجب أن أضيف أن هذه العملية قد تمت تحت أنظار باحث معروف كان -كما يعرف الجميع- قد شرّف هذه المستوطنة بزيارته لنا على نحو استثنائي. إن حضوره في اجتماع هذا اليوم يضفي شيئاً آخر لأهمية هذه المناسبة.

أليس من الواجب علينا بهذا الخصوص أن نسأل الباحث المعروف ليبين لنا رأيه الشخصي في الأسلوب التقليدي الذي نسير عليه في تنفيذ الحكم ومجمل الإجراءات التي تؤدي إليه؟ وبالطبع فسوف ترتفع هتافات الاستحسان والموافقة الجماعية وسوف أكون أكثر الحاضرين إصراراً على ذلك، وبعد ذلك سينحني الحاكم نحوك ليقول: إذن، باسم المجتمعين هنا أضع بين يديك هذا الرجاء.

وفي هذه اللحظة ستتقدم إلى القسم الأمامي من المقصورة. ضع يديك حيث يستطيع أن يراهما كل واحد من أولئك المجتمعين، وإلا فسوف تمسكها السيدات وتضغط على أصابعك، ومن ثم تستطيع، في آخر الأمر من التحدث بصوت مرتفع. لست أدري كيف يمكنني تحمل ذلك التوتر النفسي انتظاراً لتلك اللحظة الحاسمة. تكلم على سجيتك دون تكلف. أعلن الحقيقة عالياً. اتكئ على مقدمة المقصورة وقل رأيك عالياً فيما يخص حكمك الثابت الرصين مخاطباً به الحاكم، ومع ذلك ربما لم يكن يهمك القيام بهذا الشيء لأنك تعدّ ذلك غير ملائم لشخصيتك.

إنَّ الناس في بلادك يقومون بمثل هذه الأمور ولكن بطريقة مغايرة، حسن، لا بأس في ذلك لأنه يمتلك التأثير نفسه، إذا شئت، لا تنهض، قل بضع كلمات همساً لكي يسمعها الموظفون فحسب. إن ذلك يفي بالغرض تماماً. إنك لا تحتاج حتى ذكر الحاجة إلى إسناد الناس لتلك الطريقة في تنفيذ الحكم.

أمّا الدولاب الذي علا صريره وقطعة الجلد التي تقطعت، وتلك القطعة القذرة من اللباد فلا تهتم بأمرها لأنني سوف آخذ كل شيء يخصها على عاتقي. صدقني، إذا لم تستطع إجراءات الحكم رمي الحاكم إلى خارج قاعة الاجتماع فلا شك بأنها سوف ترغمه على

الركوع، والاعتراف بشرعية ما أقوم به من إجراء ثم ترديد الآتي من كلمات «إنني أتواضع أمامك أيها الحاكم السابق».

هذه هي خطتي، فهلّا ساعدتني على تنفيذها؟ إنك، بالطبع، مستعد لذلك ثم إن ما هو أكثر من ذلك... يجب أن يقوم بهذا الشيء.

أمسك الضابط بذراعي الباحث، وحدّق فيه وهو يتنفس بإجهاد في وجهه.

قال الجملة الأخيرة تلك بصوت مرتفع لدرجة أن الجندي والرجل المتهم أصابهما الرعب في أثناء الانتباه إليه. لم يفهما كلمة واحدة مما قال، غير أنهما توقّفا عن الأكل وتفحّصا الباحث وهما يلوكان آخر لقمة من الأرز بين أسنانهما.

لم يكن عند الباحث، منذ البداية، أدنى شك عما ينبغي أن يعطي من جواب، فقد كانت له من التجارب في حياته ما يمكن أن يكون معيناً له لمواجهة مثل هذه المواقف المحيرة في هذه المستوطنة. إنه رجل أمين في جوهره ولا يخشى شيئاً، ومع ذلك فهو الآن، وقد واجه كلاً من الجندي والمتهم، تردد فترة من الوقت تساوي تلك التي يستغرقها الإنسان في استنشاق الهواء إلى داخل الرئة، وعلى أي حال، فقد قال في آخر الأمر ما كان ينبغي قوله:

- كلا.

رمشت عينا الضابط عدة مرات ولكنه لم يبتعد ببصره عنه، وعند ذلك أضاف الباحث:

- هل تريد مني أن أشرح لك الأمر؟

أومأ له الضابط برأسه وقد ران عليه صمت مطبق فما كان من الباحث إلا أن قال:

- إنني أستهجن الإجراءات التي تقوم بها حتى قبل أن أكون موضع ثقتك، وبالطبع فسوف أحاول الحفاظ على تلك الثقة على أي حال- كنت أفكر متسائلاً:

ما إذا كان الواجب يحتم عليّ التدخل، وفيما سيكون لتدخلي أي فرصة من فرص النجاح ولو كانت صغيرة. فقد أدركت لمن يجب التوجه في هذه الحال -إلى الحاكم بالطبع. أما أنت فقد أوضحت لي الحقيقة تماماً، ولكن دون أن يزيد ذلك من عزمي، وعلى العكس فقد ترك أسلوب الإقناع الذي تسير عليه أثره في نفسي ولكنه لن يكون له تأثير على ما أصدر من حكم في هذا المجال. ظل الضابط صامتاً ثم التفت إلى الجهاز وأمسك قضيباً من البرونز، وبعد أن تراجع إلى الوراء قليلاً حدّق في المنظم كما لو أراد التأكد من أن كل شيء كان

يعمـــل بانتظام. أمـــا الجندي والرجل المتهم فقد بدا عليهما أنهما قد توصّـــلا إلى نوع من الاتفاق والتفاهم فيما بينهما، فقد قام المتهم ببعض الإشـــارات نحو الجندي على الرغم من أن تلك الحركات كانت تتســـم بالصعوبة بسبب قطع الجلد التي ربطت بها أطرافه بقوة. مال الجندي على المتهم فهمس الأخير في أذنه بشيء جعل الجندي يومئ برأسه إيجاباً.

سار الباحث خلف الضابط وهو يقول:

لعلك لا تعرف ما أريد القيام به. سوف أخبر الحاكم العسكري برأيي حول هذه الإجراءات على وجه التأكيد، ولكن ليس في اجتماع عام بل في جلسة خاصة، كما أنني لن أطيل بقائي هنا لأحضـــر أي اجتماع آخر. سأســـافر مبكراً صباح يوم غد أو على الأقل، سأكون على ظهر السفينة التي ستقلني إلى الخارج.

بدا وكأن الضابط لم يكن يصغي لشيء، لكنه قال شيئاً في نفسه مثل:

– وهكذا تجد أن هذه الإجراءات لا تبعث على الرضا.

ثم ابتســـم كما يبتســـم العجوز على لغو طفولي يسمعه، ومع ذلك فقد كان يترسم خطا أفكاره من وراء تلك الابتسامة:

– حان الوقت إذن.

قال الضـــابط ذلك ثم اســـتدار نحو الباحث فجأة بعينين براقتين تحملان بعضـــاً من التحدي والرجاء رجاء في تعاون مشترك بينهما.

– الوقت لا شيء.

سأل الباحث متبرماً لكنه لم يحصل على جواب.

– إنك حر.

قال الضابط ذلك للمتهم باللغة المحلية الدارجة فلم يصدق الرجل ذلك في أول الأمر.

– نعم، إنك حر.

كرر الضـــابط تلك العبارة فتفتّح وجه المتهم من انتعاش حقيقي للمرة الأولى. هل الأمر حقيقي أم نزوة طارئة في مزاج الضابط لا تلبث أن تتغير ثانية؟ هل عرض الأجنبي التماساً لإطلاق سراحه وما هو ذلك الشيء؟

يســتطيع المرء قراءة هذه الأسئلة على وجه المتهم ولكن الأمر لن يطول، على أي حال، كان المتهم تحدوه الرغبة في أن يكون حراً فعلاً إذا كان ذلك ممكناً، ثم بدأ يجاهد بقدر ما سمحت له المسلفة بذلك.

– ولكنك ستقطع الأحزمة! استلق بهدوء وسوف نرخيها في الحال!

صاح الضابط بذلك ثم شرع يرخي الأحزمة فعلاً بعد أن أشار إلى الجندي يطلب مساعدته. ضـحك المتهم مع نفســه دون أن يتفوه بكلمة ثم أدار وجهه إلى اليسار باتجاه الضابط مرة وإلى اليمين باتجاه الجندي مرة أخرى، ولم ينس أن يفعل الشيء نفسه نحو الباحث.

– أخرجه!

أمر الضـــابط بذلك، لكن الأمر يجب أن يكون في منتهى الحذر بســبب المســلفة، فقد جرح المتهم ظهره قليلاً نتيجة للجزع الذي استحوذ عليه. ومن ذلك الوقت فصاعداً لم يعر الضـــابط ذلك المتهم أي قدر من اهتمامه حيث سار باتجاه الباحث فأخرج حقيبة الأوراق الجلديــة مرة أخرى وأخذ يفتش فيها فوجد الورقة التــي أرادها. أبرز الورقة إلى الباحث وهو يقول:

– اقرأها.

– لا يمكنني ذلك، فقد قلت في السابق إنني لا أفهم شيئاً من هذه النسخ المكتوبة.

– حاول أن تنظر إليها عن قرب.

قال الضابط ذلك ثم اقترب من الباحث لكي يقوما بقراءتها معاً. وعندما وجد أن ذلك لم يجد نفعاً، حدد بوســاطة خنصره شــيئاً مكتوباً في أعلى الورقة كما لو أن سطح المستند لم يسمح لأحد بتلويثه بوساطة لمسات اليد ومن ثم لكي يساعد الباحث في متابعة ما كان مكتوباً في ذلك المستند.

حاول الباحث جاداً، وهو يقصد من وراء ذلك إرضاء الضابط على الأقل، لكنه لم يستطع متابعة الخط وهنا بدأ الضـــابط يتهجّى الحروف الواحد بعــد الآخر ومن ثم قرأ الكلمات: «كن عادلاً»:

– هذا ما هو مكتوب هناك، وبالطبع، تستطيع الآن قراءة ذلك بنفسك.

مال الباحث فوق الورقة لدرجة خشي معها الضابط في أن يلمسها ويسحبها بعيداً عن مكانها. لم يبد الباحث أي ملاحظة حول الأمر، ومع ذلك فقد كان واضحاً بأنه لم يستطع حل رموزها.

- كن عادلاً. هذا ما هو مكتوب فيها.

قال الضابط مرة أخرى فأجابه الباحث معقّباً:

- ربما يتهيّأ لي ما قد أصدقك به.

- حسن إذن.

قال الضابط ذلك وقد اقتنع جزئياً على الأقل، ثم صعد على السلم وبيده الورقة حيث وضعها بكل عناية داخل المنظم وبدا بأنه أخذ يغيّر تنظيم كل الدواليب المسننة.

كان عملاً مربكاً ولا بدّ أنّه قد شمل دواليب ممعنة في الصغر، ثم اختفى لبعض الوقت رأس الضابط داخل المنظم كلياً لأنه تعيَّن عليه تنظيم عمل الجهاز على نحو دقيق. واصل الباحث مراقبته لذلك العمل، من الأسفل، بلا انقطاع فتصلبت رقبته وتأثرت عيناه من وهج الشمس الضاربة في كبد السماء، بينما انهمك كل من الجندي والرجل المتهم في شيء آخر خلال ذلك الوقت. التقط الجندي برأس حربته المدبب سروال المتهم وثوبه اللذين استقرا داخل القبر منذ فترة من الوقت. كان الثوب متسخاً لدرجة تعافه النفس ولذا فقد قام المتهم بغسله في ذلك الوعاء من الماء. وعندما لبس المتهم ثوبه وسرواله لم يسع الاثنان إلا أن يضحكا لأن الملابس كانت ممزقة بالطول من الخلف، ومن أجل إدخال السرور في قلب الجندي دار المتهم حول نفسه عدة مرات أمام الجندي الذي جلس على الأرض، وهو يضرب على ركبتيه من شدة الضحك، ولكنهما سيطرا على نفسيهما من التمادي في إظهار الفرح احتراماً للسيدين أمامهما.

وفي الأخير، عندما انتهى الضابط من عمله في الأعلى، أعاد فحص الجهاز جزءاً جزءاً وهو يبتسم ثم أغلق غطاء المنظم الذي ظل مفتوحاً حتى ذلك الوقت.

نزل إلى الأسفل فنظر إلى القبر وإلى المتهم ثم شاهد بنفسٍ راضيةٍ تلك الملابس التي أخرجت من ذلك القبر وبعد ذلك ذهب ليغسل يديه في وعاء الماء الذي أدرك، بعد فوات

الأوان، أنّ الماء فيه كان قذراً على نحو مقرف فاستولى عليه الضيق لعدم تمكنه من غسل يديه. وأخيراً، غمر يديه في الرمل، علماً بأن هذا الشــيء لا يبعث السرور في نفسه، ولكنه قام بذلك اضــطراراً على أي حال. وقف، بعد ذلك، يفك أزرار ســترته فسقط في أثناء ذلك، المنديلان، اللذان طواهما خلف ياقته، بين يديه:

– هذان هما منديلاك.

قــال الضـــابط هذه العبارة ثم رمـــى المنديلين إلى الرجل المتّهـــم والتفت إلى الباحث موضحاً:

– إنهما هدية من السيدات.

وعلى الرغم من السرعة الظاهرة التي خلع بها سترته الرسمية وبقية ملابسه فقد أمسك كل قطعة منها بكل رقة لدرجة أنه مرر أصابعه برفق فوق الشريط الفضي على السترة، وهزّ عذبة ملأى بالشراشب ليعيد وضعها الطبيعي. كانت هذه العناية التي تتسم بحب أكيد تنبع من الحقيقة المعروفة عنه؛ وهي أنه عندما يحدث له أن يخلع أي قطعة من ملابســه يســرع ويرميها في الحال وبنوع من عدم الرضــا إلى داخل القبر. الشــيء الأخير الذي بقي لديه كان ســيفه الصغير الذي ســحب من غمده وحزام ذلك السيف. قام بتكسير السيف، ومن ثم جمع القطع المكسورة إضافة إلى الغمد والحزام حيث رماها جميعاً بعنف وجلجلة إلى داخل القبر.

وقــف الضـــابط عارياً تماماً فعض الباحث على شــفتيه دون أن يتفــوه بكلمة واحدة. فقد أدرك جيداً ما ســيحدث، ولكن ليس له الحق في اعتراض ســبيل الضـــابط. إذ كانت الإجراءات القضائية التي تعلّق بها الضابط قد قاربت نهايتها حقاً –ربما كان ذلك بسبب تدخل الباحث الذي قطع على نفسه عهداً للقيام به– فإن ما قام به الضابط هو شيء معقول لا غبار عليه، كما أن الباحث فيما إذا كان في الموقف نفسه، لن يقوم بأي عمل آخر مغاير لما قام به الضابط نفسه.

لم يفهم أي من الجندي والرجل المتهم شيئاً مما كان يجري في أول الأمر، فهما لم يكلفا نفسيهما مراقبة أي شيء. فرح المتهم لاستعادته المنديلين، ولكن فرحته لم تدم طويلاً لأن الجنــدي اختطفهما منه فجأة. حاول المتهم، كرد فعل على ذلك، انتزاعهما من تحت حزام

الجندي، غير أن الجندي كان في غاية الحذر، اســتمرا يتمازحان ويتصارعان، لكن وقوف الضابط عارياً تماماً جلب انتباههما. بدا المتهم وقد صعقته فكرة هي أن تغييراً جذرياً في المصير قد ساد الموقف كله، وإن ما حدث له قبل قليل سيحدث للضابط تماماً أو أن الأمر ربما وصــل إلى نهايته المحتومة فعلاً. من الواضح أن الباحث هو الذي أصدر الأمر بذلك والمسألة لا تعدو أن تكون انتقاماً. إنه وإن كان لم يقس حتى النهاية، لكن الانتقام من أجله يجب أن يكون حتى النهاية. ارتســمت على وجه المتهم ابتسامة عريضة صامتة وظل هناك واقفاً طوال الفترة الباقية من الوقت.

وعلى أي حال فقد أدار الضــابط وجهه نحو الجهاز الذي بدا واضــحاً أنّه على معرفة تامــة به –الجهاز الذي أخــذ الآن يتحرك على غير نظام ليرى كيف يســتطيع تدبير أمره ويجعله يســتجيب له. ما على يده الآن إلا أن تدنو من المسلفة لترتفع وتنخفض عدة مرات حتى تكون في وضــعها الصــحيح لاستقباله. تلمس حافة المضــجع، فرآه يهتز سلفاً ثم جاء الكمام المصــنوع من اللباد ليستقبل فمه، ويستطيع المرء أن يلاحظ أنَّ الضابط كان في الواقع مشــمئزاً في أخذه، غير أنه انكمش منه للحظة واحدة ثم استســلم له في الحال واستقبله بهدوء. كل شيء جاهزاً عدا قِطَع الجلد التي كانت سائبة على الجوانب، ولكنها لم تكن ضرورية على ما يبدو لأنه لم تكن هناك حاجة لربطها داخل الجهاز.

لاحظ المتهم الأحزمة الســائبة فشــعر بأن تنفيذ الإعدام لم يتخذ شكلياته الكاملة حتى تشــد تلك الأحزمة تماماً، ولذا فقد أشــار إلى الجندي بلهفة وأســرعا معاً نحو الضــابط ليحكما وثاقه. مدّ الضــابط قدمه لدفع العتلة التي تحرك المنظم، ولكنه عندما رأى الرجلين مقبلين نحوه، سحب قدمه فسمح لهما بربط تلك الأحزمة. لم يستطع الضابط الوصول إلى العتلة كذلك لم يتمكن كل من الجندي والمتهم من إيجادها. أما الباحث فقد قرر أن لا يرفع إصبعاً واحداً. ليس هناك ضرورة فقد بدأ الجهاز عمله حالما شدت الأحزمة حول أطراف الضابط وجسمه.

اهتزّ المضجع فبدأت الإبر نقوشها على جسمه واستمرت المسلفة بالصعود والهبوط، بينمــا ظل الباحث يحملق في ذلك الجهاز فترة طويلة قبل أن يتذكر أنَّ أحد دواليب المنظم أخذ في الصرير، وما عدا ذلك فقد كان كل شيء هادئاً ولم تسمع حتى ولا همهمة خفيفة.

ونظــراً إلى أن الجهاز كان يعمل بكل هدوء فإنه، وبكل بســاطة، لــم يجلب انتباه أي أحد إليه. لاحظ الباحث كلّاً من الجندي والمتهم حيث كان الأخير أكثرهما حيوية ونشاطاً. فقد استرعى اهتمامه كل شيء في ذلك الجهاز، فهو يميل إلى الأسفل تارة، ويقف منتصباً على رؤوس أصــابعه تارة أخرى، وكان يشير بإصبعه طوال الوقت لإبلاغ تفاصيل ما يرى إلى الجنــدي. فقد أزعج الباحث ما كان يجري هناك وإن قرر البقاء هناك حتى النهاية، لكنه لم يستطع تحمل منظر الرجلين فقال لهما:

– هيا اذهبا إلى البيت.

كان الجندي مســتعدّاً تمام الاســتعداد للعودة إلى بيته، إلا أن المتهم عدّ ذلك الأمر أنه نوع من العقاب، ولذا فقد توسّــل إلى الباحث بيدين مشــبكتين من أجل السماح له بالبقاء، ولكن عندما هزّ الباحث رأسه معارضاً ولم يظهر أي نوع من اللين، ركع المتهم على ركبتيه متوسلاً. ولما رأى الباحث أن إصدار الأوامر وحدها لا تجدي نفعاً، كان على وشك الذهاب قريباً منهما لطردهما، غير أنه في تلك اللحظة بالذات، ســمع ضــجيجاً فوق رأسه صادراً من المنظم فشخص ببصره إلى الأعلى. أيكون الدولاب المسنن هو مصدر الإزعاج بعد كل ذلك؟ يبدو أن الأمر مختلف تماماً.

ارتفع غطاء المنظم ببطء ومن ثم انفتح على ســعته مصــحوباً بقرقعة مسموعة. وفجأة ظهرت أســنان أحد الدواليب وبعد أن ارتفعت تلك الأســنان ظهر الدولاب بأكمله كما لو أن قوة هائلة كانت تضــغط على المنظــم، وهكذا لم يعد هناك مجــال للاحتفاظ بالدولاب في مكانه. تحرك الدولاب إلى الأعلى حتى اقترب من حافة المنظم نفسه ثم سقط متدحرجاً على الرمال إلى أن استقرّ على أحد جانبيه. ارتفع بعد ذلك دولاب آخر وتبعه كثير من الدواليب الأخرى كبير وصــغير ودقيق لدرجة يصــعب تمييزه حيث حدث لكل واحد منها ما حدث للدولاب الأول، كان المرء يتصــور في لحظة أنَّ الحيز الذي يشــغله المنظم سيكون خالياً بالفعــل، غير أن جملة دواليب أخرى كانت ترتفع أمــام الأنظار التي تهوي متدحرجة على الرمال لتســتقر عليه. إن الشــيء الذي حدث أنسى المتهم أمر الباحث بالذهاب إلى البيت لأن تلك الدواليب المســننة قد أذهلته كثيراً. حاول كثيراً إمساك أحدها، وحث الجندي في الوقت نفسه على مساعدته في ذلك، لكنه كان يسحب يده خائفاً لأن دولاباً آخر بدأ يتقافز

نحوه مسرعاً. حيث إنَّ الاندفاع الأول لكل دولاب كان مصدر خوف له وذعر. والباحث، من الناحية الأخرى، شـعر بالارتباك لأن الجهاز كله قد تحوّل إلى قطع صـغيرة بكل وضوح. إذن، كان عمل الجهاز الهادئ خدعة وضـلال، وعلى هذا فقد اعتراه شـعور بأنه يجب أن يقف الآن إلى جانب الضابط نظراً لأن الأخير قد فَقَدَ القوة، ولم يعد بوسعه الاهتمام بنفسه، ولكنه في غمرة اهتمامه بتساقط الدواليب، نسي أمر مراقبة ما تبقى من الجهاز... ففي ذلك الوقت غادر آخر دولاب مسنن جهاز التنظيم كله. وهكذا فقد مال على المسلفة حيث كانت تنتظره مفاجأة جديدة غير سـارة. لم تعد المسـلفة تكتب شيئاً إنما كانت تضرب بسرعة فحسـب، ثم إن المضـجع لم يعد هو الآخر يقلب الجسـم بل اكتفى برفعه، وهو يرتجف، نحو الإبر مباشـرة. أراد الباحث أن يفعل شـيئاً –أن يوقف عمل الماكنة، لأن الذي يجري في داخل الجهاز كان دون مسـتوى الألم الذي يريده الضابط – إنه كما يعتقد، قتل يتّسم بالسـذاجة– مد الضابط ذراعيه، ولكن المسلفة ارتفعت في تلك اللحظة، وقد التصق عليها الجسـم، لتتحرك جانباً، تماماً كما اعتادت أن تقوم بذلك عند مرور الساعة الثانية عشرة. كان الدم يتدفق في مئة مجرى، ولكن الماء يختلط به لأن مواسير الماء قد تعطلت عن العمل، وفشل، في هذه اللحظة، العمل الأخير في إكمال مهمته، فلم يبتعد الجسم عن الإبر الطويلة، لأن الجسـم، وقد غطته الدماء، جرف ليبقى معلقاً على حافة القبر دون أن يقع فيه. حاولت المسلفة العودة إلى وضعها السابق، ولكن كما لو أنها لاحظت هي نفسها بأنها لم تتخلّص من حملها الثقيل بعد، بقيت، مع كل ذلك حيث هي، فوق حافة القبر. وعند ذاك صاح الباحث على الاثنين وقد أمسك بقدمي الضابط:

– هيا! ساعداني.

أراد الباحث أن يضـغط على القدمين، بينما يمسـك الآخران برأس الضابط من الجهة المقابلة لكي يبعدوه عن الإبر، لكن ما حدث هو أن الرجلين لم يقررا المجيء فقد أدار المتهم وجهه بالفعل مما اضطر الباحث للذهاب إليهما وإجبارهما على الوقوف عند رأس الضابط. وهنا، خلافاً لما كان يريد، اضـطر الباحث إلى النظر إلى وجه الجثة أمامه فوجدها مفعمة بالحياة التي كانت عليها، فلم يظهر عليها ما يشير إلى الخلاص المنشود من الخطيئة، ولم يجد الضـابط في ذلك الجهاز ما وجده الآخرون فيه. كانت شفتاه مطبقتين بإحكام وعيناه

مفتوحتين وفيهما التعبير نفسه الذي كانتا عليه في الحياة. كانت نظراتهما هادئة تدلان على القناعة، وقد غاص في جبهته مسمار حديدي كبير له رأس مدبب حاد...

وحينما وصـــل الباحث ومعه كل من الجندي والمتهم اللذين ســـارا وراءه إلى أوّل بيوت تلك المستوطنة، أشار الجندي إلى واحد منه قائلاً:

– ذاك هو المقهى.

في الطابق الأرضـــي من المقهى يوجد فناء من أرض منخفضـــة ذات كهوف وقد اسودّ ســـقفها وجدرانها بالدخان، وانفتحت على الطريق العـــام بطولها. وعلى الرغم من أن هذه المقهـــى كانت تختلف قليلاً عن البيوت الموجودة في تلك المســـتوطنة –البيوت التي كانت جميعهـــا آيلـــة للانهدام– حتى إنها كانت تقترب في بنائها مـــن دوائر الحاكم الفخمة، فقد تركـــت لدى الباحث انطباعاً بأنها تمثل تراثاً تاريخياً من نوع خاص وجعلته يشـــعر بتأثير الأيام الماضية.

اقتـــرب الباحث من ذلك المقهى، وقد تبعه رفيقاه ثم ســـارا بين الطاولات الخالية التي انتصبت في واجهة المقهى على الطريق، فتنفّس الهواء البارد الثقيل الذي جاء من الداخل، وهنا قال الجندي:

– الرجل العجوز مدفونٌ هنا، لأن الكاهن رفض أن يُدفَنَ في الكنيســـة. لم يدر أحد أين يجب أن يدفن لفترة من الوقت، ولكنه دفن فيما بعد في هذا المكان.

وبالطبع فإن الضـــابط لم يخبرك بذلك مطلقاً، لأنه، بالتأكيد، كان سيشعر بالخجل عند ذكـــر هذا الشـــيء، ثم إنه حاول عـــدة مرات نبش القبر خلال الليـــل، ولكنه كان يُطرَد على الدوام.

– أين القبر؟

سأل الباحث لأنه فكر بأن من المستحيل تصديق أقوال ذلك الجندي، وفي الحال أسرع كل من الجندي والمتهم أمامه يشـــيران بيدين مفتوحتين نحو البقعة التي يفترض أن يكون القبر فيها. قادا الباحث إلى الجدار الأســـود حيث كان بعض روّاد المقهى يجلسون حول موائـــد قليلة متناثرة قريباً منه. كان من الواضـــح أن أولئك الناس هم بعض عمال أحواض

السفن- رجال أشداء ذوو لحى قصيرة حالكة السواد. كانوا مخلوقات فقيرة متواضعة لم يرتدِ أي منهم سترة، وكانت ثيابهم ممزقة بالية.

حينما اقترب الباحث منهم نهضـــوا والتصقوا إلى الجدار، ودققوا النظر فيه ثم انتشر فيما بينهم همس:

- غريب، يريد مشاهدة القبر.

وأخيراً دفعوا إحدى الموائد جانباً فظهرت تحتها صـــخرة القبر فعلاً. صـــخرة بسيطة واطئـــة لدرجـــة كان من الممكن أن تغطـــى بالمائدة، وكانت فوقها كتابـــة محفورة بحروف صغيرة مما اضطر الباحث أن يجثو حتى يمكنه قراءتها. أمّا ما كان مكتوباً عليها فهو «هنا يرقد الحاكم العســـكري العجوز». فقد حفر أتباعه، الذين يجب أن تكون أسماؤهم مجهولة في الوقت الحاضـــر، هذا القبر وأقاموا عليه هذه الصخرة. وهناك نبوءة تقول إنّه بعد عدد محدد من الســـنين ســـوف ينهض هذا الحاكم من قبره ثانية ليقود أتباعه من هذا المكان فيعيد المســـتوطنة إلى ســـابق عهدها. «كونوا مؤمنين بذلك وانتظروا». حينما قرأ الباحث ذلـــك ونهض على قدميه رأى المتفرّجين من حوله يبتســـمون كما لو أنهم قد قرؤوا الكتابة هم أيضـــاً، وأنّهم قد وجدوا في الأمر ما يبعث على السخرية، وأنّهم كانوا يتوقّعون منه أن يوافقهـــم على رأيهم. تجاهل الباحث ذلك ثم وزع قليلاً من قطع النقود عليهم، وانتظر حتى أعيدت الطاولة فوق القبر ثانية وبعد ذلك غادر المقهى متجهاً نحو الميناء.

أمّا الجندي والمتهم فقد التقيا ببعض الأصدقاء الذين استوقفوهما بعض الوقت داخل المقهى، غير أنهما تعيّن عليهما توديعهم بسرعة لأن الباحث كان في منتصف السلم الذي يؤدي إلى الزوارق عندما اندفعا مسرعين وراءه. لعلهما أرادا إجباره، في اللحظة الأخيرة، على أخذهما معه، لأنه وهو يســـاوم صـــاحب الزورق لإيصـــاله إلى الباخرة، نزل الاثنان مســـرعين إلى أسفل الســـلم ولكن بهدوء لأنهما لم يجرؤا على الصياح. ولكنهما في الوقت الذي وصـــلا فيه إلى أسفل الســـلم، كان الباحث قد سبقهما في القفز داخل الزورق وكان صاحب الزورق قد أقلع من الشاطئ تواً. كان بإمكانهما القفز إلى داخل ذلك الزورق، غير أن الباحـــث رفع حبـــلاً ثقيلاً كثير العقد من قا ع الزورق ولوح به مهدداً، وهكذا منعهما من القيام بمحاولة القفز.